

رواية

أليف شافاك

ترجمة

د. محمد درويش

شرف

II

دار الآداب

أليف شافاك

شرف
II

رواية



دار الآداب ـ بيروت


شرف

شرف II

أليف شافاك / كاتبة تركيّة
الطبعة الأولى عام 2014
ISBN 978-9953-89-287-0



دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com





/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

الجزء المفقود

لندن، كانون الثاني ١٩٧٨

أسّست سينما فينِكْس في العام ١٩١٠ بواجهة مكسوّة بالآجرّ وعدد قليل من الدرج المؤدّي إلى البهو وصالة على طراز الفنّ الزخرفي[١]. وقد أسدت دار السينما خدمات إلى الشعب بعرض الأشرطة الإخباريّة والأشرطة الانهزاميّة طوال مدّة الحرب، ولكن لحسن الحظّ ظلّت من دون أن تلحق بها القنابل الألمانيّة أيّ ضرر. وقبل مدّة من الزمن، بعد أن استحوذ عليها موزّع أشرطة سينمائيّة متواضع الشأن، بدأت الدار تعرض أشرطة سينمائيّة خاملة الذكر وإن بقيت تعرض أحيانًا أشرطة كلاسيكيّة من إنتاج هوليوود عند

---

(١) آرت ديكو Art Deco: أسلوب زخرفي في الرسم والزجاجيّات والفخّاريّات والفضّيّات والأثاث والعمارة، بلغ ذروته في ثلاثينيّات القرن العشرين ويتميّز بألوانه القويّة وأشكاله الهندسيّة والتكوينات الطبيعيّة والتصاميم النسقيّة. والمصطلح مختصر عن التعبير الفرنسي art decorative المأخوذ أصلاً عن معرض Exposition des arts decoratifs (معرض الفنون الزخرفيّة) الذي أقيم في باريس سنة ١٩٢٥ (المترجم).

الطلب! غير أنّ موقعها كان بعيدًا جدًّا عن مركز المدينة ممّا جعلها شاغرة من الروّاد طوال الوقت.

واليوم، لا يوجد سوى أربعة أشخاص في الصالة ـ شابّة وشابّ كانا غير مهتمّين بالشريط السينمائي قدر اهتمامهما بابتكار أساليب جديدة في تبادل القبلات؛ ورجل جلس وعلى رأسه قبّعته وبدا أكبر سنًّا من دار العرض نفسها؛ أمّا الرابع فهو إلياس، الذي جلس بمفرده جامدًا ومتوتّرًا في موقع يكاد يتوسّط السينما. كانت قد مضت بضع دقائق على بدء العرض ولكنّه ظلّ يحدّق إلى المدخل، فهي لم تأت.

شاهد إلياس المشاهد الأوّليّة متوجّسًا تمامًا. وكانت الكتابة على الشاشة تقول: صورة بابتسامة، وربّما بدمعة، ولكن أسارير إلياس انفرجت لمّا شاهد صورة تشارلي تشابلن. كان يهوى تشابلن دائمًا ـ إذْ كانت فكاهته تمتزج بالأسى وبإنسانيّته التي لا حدود لها، وبعينيه الحزينتين السوداوين. وشيئًا فشيئًا زال توتّره واستغرق ذهنه في التفكير في قصّة «اللقيط».

وبعد برهة وجيزة شعر إلياس بحركة صغيرة في نهاية صفّ الكراسي، ولكنّه لم يملك الجرأة للالتفات ومعرفة القادم. واقترب منه شخص ما في العتمة وجلس إلى جانبه، هادئًا مثل ظلّ. فازدادت دقّات قلبه من وراء قفصه الصدري عندما تبيّن وجه بمبي، جميلاً مشرقًا، من طرف عينه. كانت عيناها مسمّرتين على الشاشة وصدرها يعلو ويهبط في قوّة.

أراد إلياس أن يقول لها: يسرّني جدًّا أنّك أتيت. أتدرين؟ كنت قلقًا من أنّك منزعجة منّي. ولكنّه احترم صمتها وهمس

بكلمة. وركّز الاثنان في العرض.

شاهدت بمبي الشريط مندهشة اندهاشًا يزداد على ملامحها عند كلّ مشهد. فعندما عثر تشابلن على طفل مرمي في سلّة نفايات وربّاه وكأنّه ابنه، ابتسمت ابتسامة إعجاب وتقدير. وعندما رشق الطفل نوافذ الجيران بالحجارة كي يتمكّن المتشرّد المتنكّر في زيّ مركّب الزجاج من إصلاحها من جديد والحصول على بعض المال، ضحكت ضحكة مكتومة. وعندما أخذت دائرة الرعاية الاجتماعيّة الطفل بعيدًا ترقرقت الدموع في مآقيها. وأخيرًا، وعندما التمّ شمل الأب بالابن، أشرق وجهها بالسعادة والرضا وبعلامة تدلّ على شيء ما، ظنّ إلياس أنّه الحزن. وبدت مستغرقة التفكير في الشريط ومأخوذة به، ممّا دفع إلياس إلى الإحساس بالامتعاض والانزعاج. يا له من إحساس سخيف أن يشعر بالغيرة من تشارلي تشابلن!

راقبها إلياس وهي تحلّ شعرها لتشدّه إلى الخلف. وانسابت إلى أنفه رائحة الياسمين والورد، فكانا مزيجًا من عبق ساحر. وقبل أن ينتهي الشريط السينمائي بدقائق قليلة، واتته الشجاعة ليمسك بأصابع يدها وليشعر أنّه أشبه بمراهق في أوّل موعد غرامي له. وارتاح كثيرًا لأنّها لم تجذب يدها بعيدًا عنه، جلسا ساكنين كأنّهما تمثالان قُدَّا من الظلمة، خائفان من أيّ حركة تصدر عنهما فتضع حدًّا لتلك اللحظة البهيجة.

ولمّا أُضيئت الأنوار من جديد، استغرقا بعض الوقت حتى يعتادا على الحياة الحقيقيّة. وأخذ من فوره دفترًا ودوَّن عليه اسم سينما أخرى في منطقة أخرى من البلدة وقال:

ـ الأسبوع المقبل، في اليوم نفسه والموعد نفسه. هل تأتين؟

فقالت متلعثمة:

ـ نعم.

وقبل أن يجد فرصة لقول أيّ شيء آخر، وثبت بمبي من على قدميها واتّجهت نحو باب الخروج، مبتعدة عنه وعن كلّ شيء جرى بينهما أو كان من شأنه أن يجري بينهما لو كانا شخصين مختلفين. وأمسكت في راحة كفّها اسم المكان الذي اتّفقا على أن يلتقيا فيه في المرّة المقبلة، أمسكت بالورقة في قوّة وكأنّها المفتاح المؤدّي إلى عالم سحري، مفتاح سوف تستخدمه الآن إن كان في وسعها أن تحسم أمرها.

وهكذا بدأ كلّ شيء، وبدأ الاثنان يلتقيان في كلّ يوم جمعة في الوقت نفسه، وأحيانًا في أوقات ما بعد الظهيرة. فارتادا سينما فينكس أكثر من ارتيادهما أيّ مكان آخر، ولكنّهما التقيا أيضًا في عدد آخر من دور السينما، وكلّها بعيدة عن منزلهما، وروّادها قليلون. ولمّا كانت الأشرطة السينمائيّة تعرض مدّة غير قصيرة، فقد انتهى بهما الأمر إلى مشاهدة «اللقيط» مرّتين. ولكنّهما ذهبا أيضًا لمشاهدة «الملك وأنا» و«لص بغداد» و«كنغ كونغ» و«جان دارك» و«أحدب نوتردام» و«بن هور».

وكانا ينظران إلى هذه الأشرطة السينمائيّة ليس بوصفها حكايات من ماضٍ بعيد بل بوصفها أقدارًا ما تزال تظهر للعيان في مكان ما. ومهما كان الشريط السينمائي الذي يذهبان لمشاهدته، فإنّ الشيء نفسه يحدث: إذْ تظلّ ترنو إلى الشاشة في حين يُبقي عينيه عليها. وهام إلياس حبًّا بالتغيّرات الطارئة على وجهها كلّما

اتّخذت حبكة الرواية مسارًا جديدًا. وتولّد لديه الانطباع بأنّه يلتقي عديد النساء الساكنات في أعماقها، مشاهدًا جوانب متباينة من شخصيّتها متوارية عن أنظار الآخرين وبضمنهم هي شخصيًّا. وكانت ترمقه بنظراتها أيضًا أحيانًا وبالأسلوب نفسه، كأنّها تريد أن تكتشف أعماق روحه. واقشعرّ بدن إلياس وتساءل عمّا تراه فيه، أو إن كانت تفكّر في أنّه جديد بحبّها.

وفي الوقت المناسب اكتشف أشياء أخرى عنها، أجزاء من أحجية الصور المقطوعة التي لن يكملها إلّا بعد أن يكون قد مضى زمن طويل على ذهابها. وعلى الرّغم من اسمها، فقد أدرك أنّ لونها المفضّل هو الأرجواني، وأنّها تحبّ أن تغنّي الأغاني العاطفيّة الكرديّة القديمة وأنّها ذات صوت جميل. ولأسباب دينيّة لم تكن تتناول لحم الخنزير ولا الروبيان أو القواقع أو الحبّار أو عنب الأحراج، التي كانت كلّها تدفعها إلى صكّ أسنانها، ولكنّها على الرّغم من ذلك كانت تستطيع أن تتلمّظ بشرائح الليمون طوال النهار. واكتشف أيضًا صغر سنّها. وإذا كانت طريقتها في لبس الثياب وشخصيّتها تجعلها تبدو أكبر سنًّا، إلّا أنّها كانت أصغر منه بستّ عشرة سنة.

ورويدًا رويدًا بدأ يفهم الوضع. فقد كان هذا الانجذاب المبهم الذي لا يسبر غوره نحوها، نحو هذه المرأة الغريبة عن الحياة التي عاشها، إنّما هي أشبه بذكرى عن طفولة يستعيدها. فقد شعر لسبب مجهول لا يدركه عقله الواعي ولكن يدركه قلبه، بالحاجة إلى أن يحبّها وأن يحميها من العالم المتوحّش برمّته. لقد تذوّق من قبل مثل هذه العاطفة إزاء ثلاث نساء في حياته وهنّ:

أخته وأمّه وزوجته السابقة. ولكن شعوره نحو بمبي كان مختلفًا عن شعور آخر مرَّ به من قبل. فقد كانت بوّابته إلى عالم كان يحسّ أنّه عالم واقعي جدًّا وإن كان غامضًا وخطيرًا. واضطرب اضطرابًا شديدًا لما فكّر أنّ هذا الحبّ محرّم وغير مشروع، ولكن احتمال فقدانها في أيّة لحظة زاد من حدّة رغبته المشتعلة فيها. كانت الحلقة المفقودة في حياته، الصلة التي تربطه بماضيه وبأسلافه وبجانبه الشرقي. كان حبّها معوّضًا عن الأشياء الضائعة والزمن الضائع.

وفي كلّ مرّة، وقبل إضاءة الأنوار من جديد في دار العرض، كانا يبتعدان أحدهما عن الآخر ويمضيان كلٌّ في سبيله، وبهذا لا يراهما أحد معًا أبدًا ـ أو هكذا كانا يأملان.

كانت تخرج قبله في جميع الأوقات. أمّا هو، فيتأخّر عنها، يسير داخل صالة العرض السينمائي مدقّقًا النظر في الملصقات على الجدران، والقاذورات على الأرض والحلويات والمشروبات الفوّارة، وهو ما يزال يفكّر في أحداث الشريط السينمائي وفي الضوء المتلألئ في عينيها، محاولاً أن يعتاد الخواء الذي خلّفته من ورائها.

* * *

سجن شروزبيري ١٩٩١

استيقظ في منتصف الليل فزعًا. الظلام يسود الزنزانة باستثناء الضوء الأصفر الشاحب المتسلّل من الممرّ. يفترض بهذه المصابيح أن تهدّئ أعصابنا على حدّ وصف بعض الأطبّاء النفسانيين، لكنّها تدفعني إلى التقيّؤ.

للسرير ملمس خشن، يشبه النوم على كتل إسمنتيّة، لكن ذلك ليس هو السبب الذي يجعلني أستيقظ في مثل هذه الساعة النحس. يمكنني أن أقول إنّ ثمّة مكروهًا. أحبس أنفاسي وأصيخ السمع. الشخير والضراط والأنين والحفيف وكزُّ الأسنان من الزنزانات المجاورة. الناس الذين هم في الخارج يظنّون أنّ السجن مكان غاية في الهدوء والسكينة، ولكن هذا غير صحيح غير أنّه يبدو خاويًا على نحو غريب في هذه الليلة على الرّغم من الأصوات المألوفة. شيء ما مفقود، أو أنّني أفقد رشدي.

اعتادت أمّي القول إنّ الهواجس هي همسات الله في غابة مظلمة. فهو يخبرنا بين حين وآخر أن نكون حذرين وألّا نكون أصدقاء شخص ما، وألّا نفتح بعض الأبواب وإنْ لم نتنبّه لذلك. بيد أنّني غير متأكّد من أنّ ذلك هو الذي يحدث لي الآن. فالهاجس يمثّل شعورًا بأنّ شيئًا غير مستحبّ سوف يحدث. أمّا إحساسي فمختلف لأنّه نوع من الأسى الذي يصيبك بعد وقوع شيء ما، ويكون بعد فوات الأوان.

أتّكئ على مرفقي وأصيخ السمع. في البدء أتصوّر أنّ طيف أمّي زارني، ولكنّني سرعان ما أدرك أنّها ليست هنا في هذه الليلة. قلبي لا يخفق بشدّة، وهو ما يحدث في كلّ مرّة أشعر بوجودها. وما من أثر لوهج غريب في زاوية من زوايا الزنزانة أيضًا كثلج سقط مؤخّرًا. وليس ثمّة حفيف كالذي ينبعث من ستائر حرير. ولا عبق الياسمين والورد. ولا روائح خلاوة السمسميّة. ولن أنسى متى حدث ذلك أوّل مرّة. إنّه يصعقني صعقة نار الجحيم.

اعتادت أن تزورني مرارًا في الماضي، ثم قلّت زياراتها شيئًا

فشيئًا. وفي الأيّام الأخيرة، لم تظهر لي قطّ. وكلّ ما أخشاه هو ألّا تظهر من جديد. يا لها من فكرة ساذجة ولكن ما دامت تأتي إليَّ فثمّة أمل في أن تغفر لي.

في بادئ الأمر، فقدت صوابي من شدّة خوفي وذعري. ولم أستطع النوم خشية أن تصل في منتصف الليل وتخنقني. واستغرقت بعض الوقت حتى أعلم أنّ الأشباح لا تتصرّف مثل هذا التصرّف. فأنت تظنّ أنّها تبحث عن انتقام، ولكن كلّ ما تبغيه هو الفهم. لهذا، فهي تفرغ نظراتها عليك وتنتظر إيضاحًا. تحدّق إلى روحك. ولكنّها لا تتكلّم، ولا تسأل في الأقلّ. هذا ما تفعله والدتي. إنّها أشبه بشريط صامت باستثناء الألوان.

لكن أمّي لم تأت الليلة. أجراسي المنبّهة لا صلة لها بها. ما هو إذًا؟ أزفر الهواء. أتنشّقه. ثم أحبس نفسي، وأصغي، في حذر أكبر. وعلى حين بغتة تستبدّ بي الدهشة. إنّ تريبي لا يشخر ولا ينتفض ولا يرفس أو يتكلّم في نومه وهو ما دأب عليه مهما كان مرهقًا. أنسلّ من سريري وأقترب منه.

كان موليًا ظهره إيّاي.

ـ تريبي!

لا جواب، ولا حركة تندّ عنه.

ـ هل أنت على ما يرام يا باتريك؟

لا أعرف سببًا يجعلني أناديه باسمه الحقيقي، وهو أمر لم أفعله منذ سنوات. غير أنّ الكلمات تخرج من فمي. ثم أزيح البطّانيّة من فوقه، فأشمّ رائحة كريهة. يبدو ضئيل الجسم على نحو غريب، وكأنّه انكمش في ليلة واحدة. أهزّه من كتفيه، ولكنّه ساكن

لا يتحرّك، فأهزّه من جديد، بقوّة هذه المرّة. قدماه تتدلّيان على نحو مضحك وكأنّهما قدما دمية مكسورتان. ذراعاه ثقيلتان وإنْ كان أكثر الناس الذين عرفتهم نحولاً وهزالاً.

ـ كفى يا تريبي بربّك! توقف أيّها الرجل!

أمدّ يدي لأجسّ نبضه. رقبته باردة ويابسة، «أبرد من حلمة ساحرة»، كما يردّد. ليس ثمّة دقّات قلب. فأرفع رأسه وأسنده إلى ذراعي وأتنفّس في فمه. الفم الذي قبّل زوجته وعددًا من النساء الأخريات. الفم الذي أطلق السباب والشتائم طوال الوقت ولكنّه دعا إلى الله أيضًا. الفم الذي دمّره ولكنّه كان أيضًا نعمته المنقذة. لا ردّ فعل.

أبدأ بالضحك، لأنّ الأمر مضحك، فإمّا أنّ ملك الموت أعمى أو أصيب بالخرف. على عزرائيل أن يكفّ عن عمله. ألا يرى الله أنّ التابع الأمين لا يؤدّي واجبه على أكمل وجه؟ لماذا يموت الناس الذين لا يستحقّون الموت دائمًا. كنت ألقّن تريبي كيفيّة استعمال قبضتيه. إنّه تلميذ رهيب، بطيء الفهم. ولكنّه يتعلّم. أجعله يضربني في المكان نفسه: على بطني. ثمّة أماكن قاتلة في جسم الإنسان، كالرأس والرقبة والحنجرة وقصبة الأنف أيضًا. لكن لو ضربني على هذه المناطق لبدت المشاجرة حقيقيّة، وعندئذٍ سيقع تريبي في ورطة. إنّ ضربه إيّاي على البطن أقلّ مدعاة للشبهة، فالكلّ يعرف أنّني ألاكم من أجل المزاح والعبث.

البطن هدف قاتل إن كانت الضربة مسدّدة تسديدًا قويًّا. نزيف داخلي. وإذا لم يعالج في غضون ساعات قليلة، فسوف يموت. وليس لديّ أدنى شكّ في أنّه سوف يُترك من دون علاج.

طبيعيٌ أنّ تريبي لا يعرف كلّ هذه الأشياء. وسيكون كلّ شيء حادثًا مؤسفًا، ومن شأن مفتّش أن يحضر ويكتب تقريره، وسوف يدوّن السكرتير على الآلة الكاتبة التقرير ويبعث به إلى الصحافة. وستُظهر إحدى صحف الإثارة اهتمامها فتكتب: «موت متّهم بالقتل غسلاً للعار في السجن». وسوف يقتطع الضابط ماك لوخلين القصاصة ويحتفظ بها في ملفّه. وسوف يتحدّثون عنّي مدّة من الزمان، ولن يشعر أحد بالحزن عليّ، ثم تُحفظ القضيّة، وكما هو الطبق النظيف الذي يأكل منه إنسان جائع، فإنّ تريبي سينجو بجلده وسأخرج أنا، حرًّا طليقًا في نهاية المطاف.

كان هوديني مذكّرًا لا أكثر. يقول الضابط ماك لوخلين إنّه لا وجود لذلك الشيء وأنّ القصّة هي حكاية غير قابلة للتصديق، فالساحر لم يمت بسبب الضربات كما يخيّل للحمقى من أمثالي أن يصدّقوا، ولكنّني لا أكترث سواء مات هوديني لهذا السبب أو ذاك. فكلّما أشاهد ملصقه، أتذكّر أنّ من المحتمل أن يموت المرء ضربًا. ثم يذكّرني مرّة أخرى بأشياء أخرى. أشياء محزنة. فقد كان هوديني هو السبب الذي جعل عمّي طارق يكتشف أمر عشيق أمّي كما اكتشفه الآخرون وبضمنهم أنا شخصيًّا.

أحرّك تريبي إلى الجانب وأجلس بجانبه. شيء ما يفرقع من تحتي. ألقي نظرة لأعرف ما هو. فألتقطه وأبدأ بالضحك من جديد. «أيّها الوغد الحزين».

إنّها محقنة. متى فعل ذلك؟ أهي حادثة؟ أكانت محقنة ذهبيّة؟ كيف لم أنتبه لذلك؟ هل انتظرَ حتى استسلمتُ للنوم؟ إنّني مغفّل. قذر. أنام وكأنّني قنفذ بدين في وكره الشتائي. إنّني ناقم على

نفسي. أتفحّص السرير. الملاءة مبلّلة بالبول، واللعاب والقيء. حاول جسده أن يتخلّص من السمّ، ثم أتنبّه إلى قبضة تريبي اليسرى، المحكمة، التي بدت منها مفاصل أصابعه مثل مسامير مدبّبة. أضغط على الأصابع كي تنفتح. ثمّة قصاصة ورق، فأقترب من القضبان كي أتمكّن من قراءتها من تحت النور المنبعث من الممرّ.

أخي أليكس. إذا كنت تقرأ هذه الرسالة فهذا يعني أنّني قد أوضحت كلّ شيء. لقد أردت أن تذهب قبلي. صحيح؟ أيّها الأحمق. أتظنّني لا أدري؟ لكنّني كنت أريد مساعدتك. صدّقني، لكن كلّ ما في الأمر هو أنّني لم أعد أطيق التحمّل. لا تنزعج. سوف أنتظرك مهما حدث. سوف أذهب وألقي نظرة. كفاك حيلة. كفانا هوديني. إنّك إنسان طيّب. وعندما ألتقي والدتك سوف أخبرها بذلك.

صديقك / تريبي

انهمرت الدموع على وجنتيَّ. أصفع وجهي. لا فائدة. أشدّ شعري. بيد واحدة، ثم بيدين. أقوى، فأقوى. في وسعي أن أشعر بالجلد يتداعى والشعر ينجذب من مكانه. وطوال هذه المدّة، يصدر عنّي صوت يشبه صوت أنين كلب في الشارع. سيّارة صدمتني وانطلقت في سرعة. عظامي كُسرت. دهسني تريبي.

أنهض على قدميَّ. رأسي يوشك أن ينفجر. الأدرينالين يعيد إليَّ إحساسًا عرفته مرّةً معرفة جيّدة: غضب. وظننت أنّني تركته على قارعة الطريق. قبل عامين اثنين وضعته في كيس وأحكمت شدّه وأغرقته وكأنّهُ هرّة غير مرغوب فيها. عاهدت نفسي على أن

أمضي بقيّة حياتي محاولاً، نعم في الأقلّ محاولاً، أن أكون إنسانًا أفضل. إلى هنا ينتهي الكلام عن المحاولة، إذْ عثر عليّ من جديد، وتعقّبني وعاد أدراجه إلى البيت يشمّ الطريق، وها هو الآن صديقي القديم السيّد الغضب. مخلصًا ووفيًا كدأبه.

أرفع ملصق هوديني من على الجدار وأمزّقه وأرمي بملاءة سريري وبطّانيّتي ووسادتي، أركل الجدران. وأسدّد اللكمات إلى الجدران، وأنقضّ على الجدران، وأضرب رأسي على الجدران.

أضواء. وقع خطوات. فوضى. شخص ما يدخل الزنزانة:

ـ ما الذي يجري؟

ويدخل آخرون. يدفعونني إلى الأرض، ويُبقون رأسي إلى أسفل. تُضاء الأنوار. نور زائد عن الحاجة. تؤلمني عيناي. هل هذا هو الضابط ماك لوخلين يقف على جسدي؟ ماذا يفعل هنا؟ نوبة ليليّة؟ الرجل يعشق مهنته.

يشقّون طريقهم في المكان، يفحصون نبض تريبي. يعثرون على المحقنة. يشاهدون القصاصة. يبدأ أحدهم في قراءتها في صوتٍ عالٍ. تبًّا. أحرّر نفسي. وأفاجئهم. أقفز من على قدميَّ. وأمسك القصاصة قبل أن يعرفوا ما فيها.

ويهتف سجّان شابّ وكأنّني كنت أغشّ في لعبة وأنّه خُدع:

ـ هه!

يتقدّم الضابط ماك لوخلين خطوة إلى أمام.

ـ ناولني إيّاها.

ـ هي خاصّتي!

ـ ما من شيء خاصّ بك أيّها المغفّل. ناولني إيّاها.

يحملق أحدنا في الآخر. وأخيرًا تحين اللحظة. يمكنه أن يظهر لي مدى كراهيّته لي، ويمكنني أن أظهر له أنّ الشعور متبادل. لقد انتهى التظاهر. وانتهت محاولات أن نكون أفضل ممّا نحن عليه. هكذا نحن. أحشر القصاصة في فمي.

يقول الضابط ماك لوخلين.

ـ آه، لا تفكّر في هذا أبدًا. يبدو أنّك شاهدت عديد الأشرطة السينمائيّة. صحيح؟

أبدأ المضغ. في بطء. لا ضرورة للعجالة. كلّهم يرمقونني بنظراتهم.

ـ سوف تندم على صنيعك ندمًا شديدًا يا أليكس. إنّني أمنحك فرصة أخيرة لإنقاذ مؤخّرتك. توقّف.

أمضغ. أمضغ. أمضغ. لم أعرف قطّ أنّ للورقة مثل هذا المذاق الطباشيري. أفكّر إن كان في وسع تريبي أن يشاهدني. هل تغادر أرواحنا أجسادنا مباشرة بعد موتنا وتحلّق نحو السماء مثل منطاد حارّ الهواء؟ أم أنّها تظلّ وإيّاها برهة وجيزة من الزمان؟ هل لبثت روح أمّي مدّة تراقب يدي التي أخرجت السكّين وطعنتها؟

أبلع القصاصة.

الضربة الأولى تصيب ذقني. لم أكن مستعدًّا لذلك قطّ. تصطكّ أسناني في قوّة. يعرف الضابط ماك لوخلين أين يسدّد الضربة، على العكس من تريبي المسكين. السجّانون الآخرون يشيحون بأنظارهم جانبًا، لا يوافقونه على ما صنعه. هذا ما

ألاحظه. فلديهم زوجات. أطفال. مواطنون طيّبون يريدون أن يناموا نومًا هنيئًا في الليل. لا أحد يريد أن تتلطّخ يداه بالدم. ولكنّهم لا يحاولون منعه. هكذا هو الحال مع المستأسدين. لا أحد يقول لهم: كفى! هذا هو السبب في كون المستأسدين على ما هم عليه. وينبغي لي أن أعرف لأنّني كنت وما أزال واحدًا منهم.

* * *

كانت أمّي تؤمن بالخرافات. في بيتنا خرز لطرد عين الحسد منتشرة في كلّ مكان. كانت تضع خرزًا زجاجيًا في جيوبي، في حقيبة ظهري. وفي إحدى المرّات، عثرت على خرزة وقد خيّطتها في سترتي الجلديّة. لم نصفّر ليلاً ولم نفتح مظلّة داخل المنزل ولم نقلّم أظافرنا بعد الغروب. كنّا أحيانًا نرتدي ثيابنا الداخليّة مقلوبة لطرد الحظّ السيّئ. وعندما نجلس إلى مائدة العشاء، لم يسلّم أحدنا سكّينًا إلى الآخر. وكانت أمّي تبذل قصارى جهدها كي تحميني من الآخرين. ولكنّها نسيت ما الذي ينخر في قلبي. لا شيء يحمي الإنسان ممّا يكمن في داخله.

مرّت بضعة أسابيع على ختاني في اسطنبول، وكان الجرح قد تماثل للشفاء، وبدأت أمارس اللعب في الشارع من جديد. لا بدّ أنّ الوقت كان خريفًا، إذْ كانت الأشجار تلقي بأوراقها وطينها على الطرقات. ثمّة قناة على مقربة من منزلنا. لكنّنا لم نسبح فيها قطّ. فالماء كريه الرائحة، نتن. الناس يرمون فيه مختلف الأشياء. علب معدنيّة فارغة وزجاجات وصناديق ومطّاطيّات ومنشورات تدعو للشيوعيّة. وعثر أحد الأشخاص يومًا ما على بندقيّة على ضفّة الشاطئ.

في ذلك اليوم كنت أتنزّه على امتداد القناة مستغرقًا في التفكير في البندقيّة. من كان صاحبها؟ لصّ من لصوص المصارف، أم قاتل محترف؟ هل عثر عليه رجال الشرطة؟ لا بدَّ أنّني كنت غارقًا في التفكير وإلّا لتنبّهت إليهم وغيَّرت من اتّجاه سيري، أو اختبأت من خلف شجرة إلى أن يتواروا عن الأنظار، ولكنّني بدلاً من ذلك سرت نحوهم. ثلاثة صبيان. أكبر منّي ببضع سنوات.

ـ انظروا إلى مَنْ هنا! الأحمر الصغير خارج يتنزّه.

ـ أين والدتك يا اسكندر؟ أليست معك؟

فهززت رأسي.

فقال الصبي الأوّل.

ـ إنّها تدعوك دائمًا سلطاني وغير ذلك من الهراء الكردي.

ـ إنّه سلطان الأحياء القذرة.

لم يشارك الصبي الواقف في الوسط والذي بدا زعيمًا في التهكّم اللاذع. كان يراقبني، قلقًا عليَّ، ومرتبكًا بسبب سلوك صديقيه، ففهمت خطأً أنّ تلك علامة، فخطوت نحوه خطوة واحدة. إنّه سيحميني.

وسأل الزعيم:

ـ هل صحيح أنّك هربت من عمليّة الختان؟ وأنّك تسلّقت شجرة؟

لا بدَّ أنّني صعقت. كيف عرفوا بذلك؟ من أخبرهم؟

فقال وكأنّه قرأ ما يدور في ذهني:

ـ الأقاويل تنتشر.

ـ ماذا حدث إذاً؟ هل خُتنت أم لم تُختن؟

قلت وأنا اسمع نبرة صوتي الضعيفة:

ـ خُتنت.

قال الزعيم:

ـ يقول إنّه خُتن، ولكن هل نصدّقه؟

دفعوني على الأرض، وجذبوا سروالي إلى أسفل، فصحت بأعلى صوتي.

ـ ما هذا؟ صغير جدًّا! مثل حبّة باميا. هروبه من الختان لا يثير الدهشة إذاً ـ لأنّ الجرح يكلّفه الشيء الكثير.

فقال الزعيم:

ـ ولكنّه لم يُختن ختاناً صحيحًا، وعلينا أن نكمل المهمّة.

هل كان يمسك بسكّين جيب في يده؟ أم أنّ الأشياء تتراءى لي؟ ما زلت غير متأكّد. كلّ ما أتذكّر هو أنّني تبوّلت على نفسي.

قال الزعيم:

ـ آه، لا. السلطان في مسيس الحاجة إلى الاغتسال الآن.

خلعوا عنّي بنطالي وسروالي الداخلي وجواربي وحذائي، ورموا بها كلّها إلى القناة. وقالوا:

ـ اذهب لجلبها، أو عد إلى البيت هكذا يرى الناس حبّة الباميا. ثم مضوا في سبيلهم، ولكنّني لم أصدّق أنّهم ذهبوا من غير رجعة. فجلست في ذلك المكان، واحتضنت ركبتيّ، مرتجفًا قليلاً ومتوقّعًا خروجهم من وراء الأشجار ومهاجمتي. لا أعرف كم من الوقت مضى، فقد هبط الظلام، وبدأت السماء تمطر مطرًا خفيفًا،

ولكنّني لم أكترث.

وظهرت أمّي من الظلال رفقة جارتين. لا بدَّ أنّها كانت تبحث عنّي في كلّ مكان. كيف عرفت أنّني قرب القناة، المكان الوحيد الذي منعتني من الذهاب إليه وحيدًا؟ ولم تسألني أيّ سؤال، بل لفّتني بلفاع وأخذتني إلى المنزل وحمّمتني ومشّطت شعري وألبستني منامة نظيفة.

وقالت:

ـ هه! تبدو مثل سلطان من جديد.

وبعد مرور عشرة أيّام باتت لديّ عصابة خاصّة بي. لم تكن عصابة مدهشة، بل كانت تتألّف من خمسة أشخاص لا أكثر، موالين ومخلصين لي إلى أبعد الحدود. لم يكن ثمّة من يرغب في مصادقة الأولاد الغجر. كانوا أشدّاء. يدخّنون. يجمعون كلّ شيء. سدادات القناني. رقائق الألومنيوم. علب بخّاخة.. ولم يكترثوا لشيء.

ضربنا ولدين اثنين ولكنّنا لم نلمس الزعيم. أردت أن أجعله يتعرّق. لا أعرف إن كنت سأضرب أو متى! في ذلك الوقت تشاجرت وأبي أوّل مشاجرة خطيرة. حادثة الكبش.. فعاهدت نفسي على ألّا أكون ضعيفًا مرّة أخرى. وكنت محافظًا على عهدي.

وفي يوم من أيّام الآحاد، رنّ جرس الباب. ففتحت أمّي، لتجد امرأة واقفة تبكي. وقالت إنّ عصابة من الصبيان يرتدون أقنعة هاجموا ابنها قبل يوم واحد، وأنّهم رموه في القناة القذرة. وكاد أن يغرق لولا لوح خشبي أنقذ حياته. لم يكن يعرف السباحة،

وقالت إنّ أولئك الأولاد، أولئك الأشقياء، أرغموا ابنها على أن يشرب بوله. وسألت، ولم تسأل، إن كانت أمّي تعرف أيّ شيء عن ذلك لأنّ ابنها لم يعطها أيّ أسماء.

وانساب إلى سمعي صوت أمّي وهي تدعوها إلى المطبخ قائلة إنّها متأسّفة لما أصاب ولدها، وقدّمت لها الشاي وقطعة من قالب حلوى. لكنّ المرأة لم ترغب في تناول أيّ منهما.

قالت أمّي:

ـ بالأمس كان يوم غسيلي، وساعدني اسكندر في خلع الستائر وإعادتها إلى محلّها ثانية، وهكذا فهو في رفقتي طوال النهار. إن كنتِ تفكّرين في شيء ما، فإنّ ابني لا صلة له بكلّ ما حدث.

ـ هل أنت متأكّدة؟

ـ تمامًا.

بعد انصراف السيّدة، ذهبت أمّي إلى حجرة المعيشة حيث كنت أجلس تحت النافذة أراقب الأحذية وهي تمرّ. توقّعت منها أن تخبرني بشيء ما. ضربة على الرسغ. قرصة على الأذن في الأقلّ، ولكنّها اكتفت بنظرة سدّدتها إليَّ، نظرة طويلة وجامدة. وأظنّني شاهدت أثر الزهو في عينيها. ثم قالت:

ـ ماذا تحبّ أن تأكل وقت العشاء يا سلطاني؟ هل تحبّ أن أعدّ لك شوربة العدس على الطريقة التي تحبّها؟

لم نتحدّث عن الصبيّ الذي هاجمته. لا آنئذٍ ولا بعدئذٍ.

اسكندر طبرق

* * *

المعركة الباسلة

لندن، مارس ١٩٧٨

قبل أن يصل إلى البيت المحتلّ، أدرك أنّ ثمّة خطبًا ما. وبينما كان يقترب من المبنى القديم لاحظ أنّ النوافذ المطلّة من الطبقات الثلاث قد سُدَّت بالورق المقوّى والأقفاص ـ وبعضها عليه رموز فوضويّة[1]. وكانت درجات الحرارة قد انخفضت قبل

---

(١) فوضويّة :Anarchism: هي نظريّة الحرِّيّة المطلقة التي تقوم على رفض سلطة الدولة أو أيّة سلطة قهريّة مماثلة: لم تُعرف هذه النظريّة إلّا في القرن التاسع عشر بوصفها مذهبًا في الوقت نفسه الذي ظهرت الاشتراكيّة. وترجع التيّارات الفوضويّة إلى ثلاثة منابع: ١ ـ الفوضويّة المسيحيّة ويمثّلها الأديب الروسي ليوتولستوي. ٢ ـ الفوضويّة الفرديّة ويمثّلها وليم غودوين الإنكليزي وماكس شتيرنر الألماني. ٣ ـ الفوضويّة الشيوعيّة ويمثّلها برودون الفرنسي وكروبتكين وباكونين الروسيّان. ويضع الفوضويّون عمومًا ـ ما عدا شتيرنر وتولستوي ـ حلًا يكاد يكون وهميًا، بديلاً عن الدولة هو دعوتهم إلى إقامة الاتّحاديّة، أي أنّ تتكوّن بين الأفراد عقود تتوالى وتتكرّر وتقوم على الموافقة الحرّة بين الأفراد. هذا وقد اختفت الدعوة إلى الفوضويّة ومبادئها بعد أن اجتذبت الحركات الاشتراكيّة ـ على اختلافها ـ جماهير عريضة، ولم نعد نجد الآن أثرًا لها إلّا في

يوم واحد إلى ما دون الصفر وباتت قطرات الثلج متدليّة من الميازيب كالدموع. وكان الهواء مثقلاً بصمت، وبسكون غريب.

في ليلة عيد مولد توبيكو، الليلة التي حمل فيها الصبيان يونس إلى منزله، كان يونس قد وصل المنزل متأخّرًا جدًّا، وفي الحال عمدت بمبي إلى وضعه على الأرض بضعة أسابيع بعد أن كان قد جنَّ وساورها قلق شديد عليه كاد أن يجعلها تتّصل بالمستشفيات. وكانت في كلّ صباح تصطحبه إلى المدرسة ثم تعود إليه من بعد الظهر لتعود وإيّاه إلى المنزل. أمّا اليوم، فقد بدأت تعمل في أوقات دوامها في انتظام في محلّ حلاقة المقصّ البلّوري، وبات يونس حرًّا طليقًا مرّة أخرى. وعلى الرّغم من أنّه تعهّد لأمّه أن يعود إلى المنزل مباشرة بعد انتهاء أوقات الدوام في المدرسة، وعلى الرّغم من أنّه لم يكذب، فإنّه وجد نفسه، على الرّغم من إرادته، يركب درّاجته ويتّجه إلى العنوان الذي كان يعرفه معرفة جيّدة.

وبعد أن ركن درّاجته، وثب وثبات سريعة على امتداد الطريق الضيّق المؤدّي إلى المنزل، محاذرًا ألّا يتزحلق. ولدهشته الكبيرة وجد الباب موصدًا. لقد جاء إلى هذا المكان مرّات ومرّات ولكنّه لم يجد الباب موصدًا، ناهيك عن إحكام غلقه بالرتاج من الداخل. كان محتلّو البيت يكثرون من التباهي بأنّ هذا هو الملجأ الوحيد في لندن الذي ليس بحاجة إلى مفاتيح أو أقفال لأنّه بيت في كلّ الأحوال، وليس سجنًا أو ملكيّة خاصّة كبقيّة الأملاك.

ولمّا لم يكن المبنى مزوّدًا بجرس، فقد طرق يونس الباب،

= كتابات بعض الفنّانين والنقّاد القلائل (المترجم).

طرقه أوّلاً في أدب جمّ، ولكنّه سرعان ما تحوّل إلى طرق يثير الهلع والذعر. وظلّ يدقّ في عنف بضع دقائق من دون توقّف.

وفجأة صاح صوت من الداخل:

ـ اتركنا وشأننا!

فتوقّف يونس عن الطرق مصعوقًا. هل يعقل أن يكون محتلّو البيت قد انقلبوا عليه، لا يريدون رؤيته بعد الآن؟ هل هذا هو السبب الذي دفعهم إلى الحجر على أنفسهم؟ ولكنّه على الرّغم من ذلك واصل الطرق بهدوء وثبات.

فهدر صوت آخر:

ـ اغرب عن وجهنا أيّها الشوفيني[1].

وتدخّل صوت نسائي:

ـ تبًّا! سوف ندخل في معركة!

انتاب الصبيَّ الذعر. فبقدر ما كان يهوى توبيكو، فإنّه لم يكن مستعدًّا لمواجهة بيت يحتشد بالمحتلّين المشاكسين والهائجين.

وقال في صوت متهدّج:

ـ هذا أنا، أنا، يونس! هلّا سمحتم لي بالدخول؟

وساد هدوء قصير الأمد، أعقبه صوت ضحك. وما هي إلّا بضع ثوان حتى فُتح الباب مصدرًا صريرًا مزعجًا، ووقف رجل عند المدخل. كان يشبه المغنّي إيغي بوب، بلا قميص كالمغنّي نفسه،

---

(١) شوفيني chauvinist: صفة واسم يطلقان على من هو مغالٍ في الوطنيّة، ترجع في أصلها إلى نيكولاس شوفين أحد جنود الجمهوريّة والإمبراطوريّة الفرنسيّة، اشتهر بين زملائه الجنود حبّه الأعمى لنابليون بونابرت (المترجم).

كاشفًا بذلك عن صدره العاري الأملس. وعندما شاهد يونس أشرق وجهه، وهتف من فوق كتفه:

ـ إنذار كاذب أيّها الناس! لم يعد هناك عائق! إنّه الطفل!

وقال يونس:

ـ مرحبًا. كنت راكبًا درّاجتي ومررت من هنا، فرغبت في رؤيتكم ومعرفة أحوالكم.

ـ لسنا بأحسن من ذي قبل. نحن نستعدّ لخوض معركة.

سأل يونس في هدوء:

ـ أيّ معركة؟

قال إيغي بوب في اهتياج:

ـ ضدّ السلطات.

كانت كلمة سلطة واحدة من تلك الكلمات التي يطلقها البالغون والتي سبق ليونس أن تناهت إلى مسامعه من قبل ولكنّه لم يفقه معناها قطّ. وقد سأل توبيكو يومًا ما عن معناها، فأخبرته مدفوعة بدافع الجواب إجابة بارعة:

ـ إنّها الشيء الذي يمتلكه الآباء بكثرة ولا تمتلكه الأمّهات أبدًا، أمّا الأولاد الذين هم على شاكلتك، فلا حقّ لهم فيها إلّا بعد أن يكبروا.

فسأل يونس وقد اتّسعت عيناه:

ـ وهل هو الشارب؟

ـ وهكذا، فعندما تفوّه إيغي بوب بالكلمة نفسها، تولّد لدى الصبيّ انطباع بأنّ محتلّي المنزل يستعدّون لمهاجمة الرجال من

ذوي الشوارب. فوقف في مكانه متسمّرًا مصعوقًا، وعلى وجهه نظرة تنمّ عن عدم تصديقه.

دفع إيغي بوب رأسه خارج الباب من دون أن يتنبّه لمشاغل الصبيّ وقلقه، وألقى نظرة خاطفة يمينًا وشمالاً ليتأكّد من خلوّ الطريق من أيّ نشاط مشبوه. ثم جذبه بعنف إلى داخل المنزل وأوصد الباب من الخلف، وأحكم سدّه بالرتاج الذي كان يتألّف من قضيب خشبي متحرّك مثبّت بسلك ومسامير:

سأل يونس:

ـ ماذا يجري؟

غير أنّ الرجل كان قد استدار على عقبيه وارتقى السلالم.

وعندما وصل يونس إلى الطبقة الثانية من المنزل لم يتمالك أن يصدّق عينيه، فقد كان محتلّو المنزل محتشدين هناك، بعضهم يصنع المنجنيق من مطّاط سميك، وبعضهم الآخر يهيّئ الهراوات والأنابيب التي تطلق منها المقذوفات بالنفخ في الفمّ فضلاً على السهام. وانهمك قسم آخر في إعداد الذخيرة. وبدأ كلّ واحد منهم ذا عزم وهدف، يعمل في حماسة من تحت غطاء من الإثارة. وكان الجوّ معبقًا بدخان السكائر والبخور والتبغ. وتربّع إبريق شاي، أو ما أشبه بذلك، من فوق موقد صغير ينفث بخاره، مصدرًا صفيرًا خفيضًا ومتعبًا. وبدا الإبريق نفسه ليونس وكأنّه يعمل في توتّر شديد.

كان الزعيم يقف في وسط هذه الجَلَبة مصدرًا الأوامر وكأنّه زعيم كشّافة. وكانت أمارات التركيز الشديدة البادية على وجهه الشبيه بوجه ابن عرس هي التي جعلت الصبيّ يرتاب في وجود أيّ

نظام لهذه الفوضى. وكان من بين ما مرَّ بباله من أشياء في تلك اللحظة هو الخروج من ذلك المكان في أسرع وقت. غير أنّ حاجته الماسّة لرؤية توبيكو تغلّبت على قلقه. أين هي؟ بذل قصارى جهده ليعرف مكانها، ولكنّه لم يشاهدها.

اقترب يونس من أحد الصبيان ـ وكان مجنّدًا صغير السنّ مسماري الشعر ودائري النظّارات ممّا زادت من اتّساع عينيه ـ يلقّب بوغارت.

ـ هه، أنت! ماذا تفعل؟

ـ مرحبًا بك يا يونس! أترغب في مساعدتي؟

فهزّ يونس كتفيه، وقال:

ـ حسنًا. ماذا ينبغي لي أن أفعل؟

ـ اسكندر.. هذا السائل في القناني. هذا كلّ ما هناك.

وهكذا أمسك الصبيّ القمع المطّاطي وبدأ يملأ زجاجات الخمر بمادّة التربنتينيّة لصنع قنابل المولوتوف. وبعد برهة وجيزة، قال يونس:

ـ ماذا ستفعلون بها؟ رائحتها غريبة!

فقال بوغارت:

ـ سوف نرمي بها على السلطات.

تصلّب يونس، وارتعش فكّاه، وتساءل عن السبب الذي يدفع بمحتلّي البيت إلى هذا الإصرار على رمي الزجاجات الكريهة على رجال من ذوي الشوارب. ثم ما الذي يمكن له أن يفعله ليجنّب والده هذه المعركة؟

فسأل:

ـ وهل ستهاجمون كلّ رجال السلطة؟

قال بوغارت في حين بدأت حنجرته تعلو وتهبط:

ـ لا، مستحيل! فأعدادهم كثيرة. الأوغاد. إنّهم يتناسلون كالجرذان. اللعنة عليهم!

قال يونس وهو يقف على قدميه:

ـ سأعود.

كان مضطرًّا إلى أن يفكّر في نفسه.

وجد يونس الضجّة نفسها في كلّ غرفة دخلها. الأمر جادّ إذًا! فالمحتلّون يستعدّون لحرب. ثم شاهد توبيكو. كانت تجلس وحيدة على حصيرة، محنيّة الرأس، مغمضة العينين، مستغرقة في التفكير. وجلس يونس إلى جانبها منتهزًا الفرصة لينظر إلى وجهها، شعرها الأسود، وَشْمها وأقراطها. حاول أن يفكّر في وسيلة لإنقاذها من المعركة القادمة وهو الشابّ الذي لا يملك شيئًا.

وسألته توبيكو في صوت خفيض، مغوٍ:

ـ أهذا أنت أيّها الصغير؟

شعر يونس أنّ وجهه احمرَّ.

ـ وكيف عرفتِ؟

ـ رأيتك قادمًا أيّها الأبله.

ثم التفتت جانبًا وغمزت له وقبّلته قبلة عجلى على وجنته، وقالت:

ـ الله! تبدو غايةً في الجدّ! ماذا يجري يا عزيزي؟

ـ لا أفهم صراحة ما الذي يجري هنا!

فقالت توبيكو وقد التمعت عيناها في هزء:

ـ آه، إنّه المجلس، يريد طردنا من هذا المكان. هل تصدّق هذا؟ أرسلوا إلينا ورقة إنذار تمنحنا أسبوعًا كي نخرج من هنا. حدث هذا قبل تسعة أيّام. لهذا نحن نتوقّع مجيئهم في كلّ لحظة. السفلة!

ـ لكن لماذا؟

ـ لكي يبيعوا المبنى لقطط سمان مثلهم.

وهنا شعر يونس بالارتياح لمّا عرف أنّ القضيّة كلّها لا صلة لها بأصحاب الشوارب. ثم أجهد أذنيه وكأنّه يتوقّع أن يسمع صوت ضرب المنجنيق وسيّارات الشرطة أو الإسعاف تحيط بالمنزل، ولكن لم يكن هناك سوى الريح خارج البيت ـ ريح قارصة، باردة. وسأل الصبيّ وهو يتنفّس تنفّسًا بطيئًا:

ـ إلى أين يذهبون؟

فقالت توبيكو:

ـ لن يذهب أحد إلى أيّ مكان.

ـ ولكنّ المنزل يعود إليهم. صحيح؟

ـ لا، ليس كذلك. بعض البيوت مشاعة لكلّ الناس. ولو سألتني لقلت لك إنّ كلّ البيوت ينبغي أن تكون مشاعة.

ثم اعتدلت توبيكو ومضت تقول في صوت ثابت ثبوت نظراتها:

ـ خطّتهم هي طردنا من المنزل. وخطّتنا هي محاربتهم، لأنّك إن لم تحارب النظام فإنّك النظام نفسه.

قال يونس مقترحًا:

ـ ربّما سوف يغيّرون من رأيهم. الله أكبر.

ـ الله؟ لله كوكب آخر يشبه كواكبنا. ثمّة فتاة أخرى مثلي، وثمّة يونس آخر مثلك. هم يشبهوننا ولكنّهم ليسوا نحن، لأنّ ذلك مستحيل عندما نكون نحن هنا. ما رأيك؟

أصغى الصبيّ في عناية ولكنّ الكلمات غابت عنه مثل رمال تنزلق من بين أصابعه. فهو لم يسمع من قبل شخصًا يطرح أسئلة على الله. كما أنّه، لسبب من الأسباب لم يفهمه، ساوره الحزن، وقال:

ـ أمّي تقول إنّ الله يحبّنا.

فقالت توبيكو مختنقة الصوت، كأنّ الكلمة انحشرت في بلعومها:

ـ حبّ؟ الحبّ شيء متقلّب. آسفة لأخبرك بنبأ مزعج: لقد نسيَنا الله.

ضاقت عينا الصبي، ثم اتّسعتا من جديد. رمق يديه بنظرة وغمغم بكلام غير مفهوم، وكأنّه يردّد دعاءً. ومن بين الكلمات، وبقدر من التأجيل، سمعته توبيكو يقول مثل صدًى بعيد:

ـ لكنّني لن أفعل ذلك. لن أنساك.

* * *

في غضون الساعة المقبلة، رسم القائد الخطّة على سبّورة سوداء مسروقة من مدرسة قريبة. وكان ثقيلاً على نحو غريب، وكأنّه يتعاطى مسكّنات، ولكن ما إن بدأ خطبته المسهبة العنيفة حتى بدأ ينبض حيويّة ونشاطًا. وقال إنّهم سوف يصعدون إلى الدور

العلوي حيث يحتفظون بكمّيّة من الذخيرة تكفي لجيش صغير إذا ما هاجمهم رجال الشرطة. وسوف تقلّب الأسرّة في الدور الأوّل والمناضد في الدور الثاني على جوانبها لتستخدم متاريس. ومن وراء الخطوط، سيخوضون غمار معركة عنيفة تضطرّ معها الصحافة البريطانيّة إلى المجيء لمشاهدتها. وفي حين يرسل المراسلون صور المقاومة من أماكن الحدث، فإنّ الشبّان في أرجاء العالم كلّه سوف يتحدّثون عن وحشيّة مجلس هاكني، وستخبر الحكومة، في محاولة لإنقاذ ماء وجهها، المجلس كي يتراجع عن قراره، وبهذا يربح محتلّو المنزل المعركة.

فقال بوغارت وقد تدلّت سيكارة مشتعلة بين شفتيه وهو واقف على بعد قدم واحدة من قنابل المولوتوف:

ـ هذا أمر بعيد أيّها الرجل! سوف تكون هذه كومونة باريس[1] الخاصّة بنا.

---

(١) كومونة باريس Paris Commune: هي ثورة باريس المشهورة بثورة العامّة التي اندلعت العام ١٨٧١، وتُعدّ أوّل ثورة اشتراكيّة واعية بأهدافها ولكنّها فشلت فشلاً ذريعًا لسوء تنظيمها. فقد كانت فرنسا تتعرّض لهجوم ألماني بقيادة بسمارك ممثّل الطبقات السائدة في أوروبا الرأسماليّة الهادفة إلى سحق أيّة ثورة اجتماعيّة في فرنسا مثلما سحقت الثورة الفرنسيّة العام ١٧٨٩. وكان الناس في باريس قد بلغوا حدّ المجاعة وحتى لحوم القطط والكلاب باتت غالية الثمن، وكانت البطالة متفشّية في كلّ مكان، وطالبت الحكومة الفرنسيّة من التجّار غير القادرين على سداد ديونهم إشهار إفلاسهم أثناء حصار باريس. فاندلعت الثورة على الرّغم من تحذير كارل ماركس لاشتراكيي باريس من القيام بها لأنّ ظروفهم لم تتّضح بعد؛ واستطاعت الكومونة أن تضرب مثلاً في إقرار العدالة والأمن والإخاء والمساواة، وجرت أكثر الانتخابات حرّيّة في ظلّ التماسك الثوري وعاش وزراء الحكومة الثوريّة كالعمّال حتى إنّ زوجة وزير الماليّة كانت تذهب إلى المغسل العامّ لغسل الثياب. لكنّ الثورة أخفقت بسبب التآمر عليها ـ (المترجم).

لكن إيغي بوب قال محذّرًا:

ـ لكن حكومة الكومونة انتهت نهاية دمويّة تمامًا.

كان يونس يعلم أنّ أمّه سوف تصاب بنوبة قلبيّة إذا ما اقتحم رجال الشرطة المبنى في تلك اللحظة واقتيد هو وبقيّة محتلّي البيت إلى السجن. وفكّر أنّه لا بدّ أن يخرج من هذا المكان، وفي أسرع وقت. فإذا كانت هذه حرب، فإنّها ليست حربه. ومهما كانت السلطة، فإنّه لا يريد أن يرمي زجاجات حارقة ولا حجارة عليها. ولكنّه على الرّغم من هذه الأحاسيس التي مرَّت به، إلّا أنّه أخفق في التحرّك. بل ظلّ، مثل هرّة صغيرة في حاجة إلى الدفء، قريبًا من المرأة التي أحبَّ، يعدّ ذخيرة جديدة ويستمع إلى القصص الثوريّة، ويقضم الذرة المشويّة وينشد: ثوروا! ثوروا!

ولحسن حظّ الصبي لم تنشب المعركة التي خشيها في عصر ذلك اليوم، بل حدثت بعد ذلك بثلاثة أيّام عندما كان يونس في المدرسة. فقد كانت الاستعدادات غير مناسبة، وعلى الرّغم من بسالتهم في القتال، فقد اعتُقلوا جميعًا في غضون ساعات قليلة.

وتقرّر إطلاق سراح محتلّي المنزل كلّهم بعد يوم أو يومين بعد تدقيق رجال الشرطة الشامل والتعهّد بحسن السلوك والتصرّف الاجتماعي. في هذه الأثناء، أسرع المجلس إلى إحكام غلق المنزل بألواح خشبيّة، ولم يمض وقت طويل حتى صدر الأمر بإفراغه من كلّ محتوياته.

* * *

محظيَّة بلون الكهرمان

مكان على مقربة من نهر الفرات، نيسان ١٩٧٨

حرّكت جميلة يد الهاون لتطحن الزعفران الأحمر بلون الياقوت. هذا آخر ما تبقّى من هذه المادّة ولم تعرف متى ستتمكّن من الحصول على كمّيّة أخرى. وكانت بعض الموادّ الأخرى قد بدأت تشحّ مثل نبتة السمسق والطرخون ومخلب الشيطان، ولهذا ينبغي لها الذهاب إلى الجبال أكثر من مرّة فضلاً عن زيارة المهرّبين. غير أنّها شعرت في الآونة الأخيرة أنّها ليست ميّالة إلى ترك منزلها إلّا في حالة طارئة أو حالة ولادة، والأمران سيّان.

قضت الصباح كلّه في القبو تشتغل وتفكّر. فهذا هو ملاذها، مأواها: هذه الغرفة تحت الأرض المظلمة والمعتمة التي لا تتجاوز أبعادها ستّة عشر قدمًا طولاً وأربعة عشر قدمًا عرضًا والتي تفتقر إلى النوافذ وإن كانت تحتوي على باب أفقي صغير في أعلى مجموعة من الدرجات. وكان المكان كلّه يحتوي على رفوف خشبيّة تمتدّ من أسفل الجدران وحتى سقوفها. وكان على كلّ رفّ

عدد من القناني والأوعية من مختلف الأحجام والألوان وفيها أعشاب برِّيّة ولحاء أشجار وزيوت عطريّة وبذور وتوابل ومياه معدنيّة وجلود ثعابين وقرون حيوانات وحشرات مجفّفة ـ ومئات الموادّ التي كانت تستعملها في إعداد الأدوية والمراهم. وكانت ثمّة أربع فتحات في زوايا مختلفة، ضيّقة جدًّا، تُهَوِّي الداخل الساكن والهادئ. ولكن على الرّغم من ذلك، كان الجوّ معبقًا برائحة مميّزة، هي رائحة ترابيّة لاذعة وإن كانت جميلة قد باتت عاجزة اليوم عن الإحساس بها. ولكن إذا ما هبط شخص ما إلى هذا المكان فسوف يدوخ وتغمره الرائحة. بيد أنّ هذا الشيء بعيد الاحتمال لأنّ ما من أحد سبق له أن وصل إلى هنا، ولن يصل أحد مستقبلاً.

كانت جميلة تقضي يوميًّا وعلى مدى السنوات الخمس عشرة المنصرمة ما لا يقلّ عن ساعتين في القبو تعدّ الخلطات التي قد يطلبها أحد ما، يقرع بابها في لحظة عاجلة. كانت هي الطبيبة المداوية. القابلة العذراء التي تتكلّم بلغة الطيور والزواحف والحشرات. حفيدة النبي سليمان. هكذا كان الناس يسمّونها في الحيّ. وكان ذلك سببًا مكّنها من العيش وحدها في البرّيّة. كان أهل الحيّ يحترمونها ويخشونها ويحتقرونها. ونتيجة لذلك، تركوها وشأنها. هذه المرأة التي لم تكن امرأة. ساحرة تخطو على أطراف أصابعها على حبل مشدود بين عالمين.

عندما تهبط جميلة إلى القبو وتصبح في داخله، تخرج من جسدها وتتحوّل إلى قناة لطاقة مبهمة تخترق الكون، تشفي وتعالج وتتكاثر. في القبو، تولد نفسها بنفسها، يتّسع رحمها ليشمل العالم

الطبيعي الممتدّ من حولها برمّته، كهف ملؤه الدفء والحنان تفقد فيه مسرورة كلّ إحساس بالذات. ولم تكن بقادرة على معرفة الليل من النهار. لم يكن ذلك أمرًا مهمًّا، إذْ كانت تحيا خارج الزمان، في دورة خاصّة بها. كانت أحيانًا تعمل في القبو من الشفق حتى الغسق تهيّئ الوصفات الأزليّة وتجرّب وصفات جديدة. عمل لا يبعث على الضجر. عينان مرهقتان ولكنّهما غير ضجرتين. لكلّ زهرة ولكلّ مادّة غير عضويّة سرّ إلٰهي زرعه الله. الناس غالبًا ما تفوتهم الدلائل. ينظرون إلى شجيرة الدبق ـ فيشاهدون نبتة طفيليّة تنمو على جذع الشجرة ولا يشاهدون المرهم اللازم للدورة الدمويّة الذي تمنحه الثقة. هذا ما كانت تحتاج جميلة إلى تحقيقه. فعندما تثق بك أشكال الحياة، تمنحك سرّها. ليس مباشرة، بل رويدًا رويدًا. ثم تعرف نوع النبتة التي تشفي حقًّا مرضًا معيّنًا. إنّ كلّ ما هو موجود في الكون، مهما كان صغيرًا أو تافهًا، هدفه أن يكون جوابًا على شيء آخر. وحيثما وُجدت مشكلة، وُجد لها الحلّ. وغالبًا ما يكون الحلّ، ويا للدهشة، قريبًا جدًّا. القضيّة هي أن تنظر، وكانت جميلة ناظرة.

لم تكن مهتمّة بالسفر إلى مناطق غير مألوفة أو اللقاء بالغرباء أو اكتشاف قارّات وراء الأفق. لا بدّ أنّ العالم ينطوي على مختلف الأشياء، لكنّ البشر متشابهون في كلّ مكان. ويكفي أن تشاهد المصابيح الغازيّة على التلال الممتدّة إلى أسفل وهي تومض بالنور ليلاً. لقد أراد الله منها أن تخدمه بالكشف عن أسرار الطبيعة، ولهذا السبب آمنت بأنّ مهمّتها تتمثّل في البقاء حيث هي. إنّها تعرف مداواة عديد الأمراض وإن كانت ثمّة أمراض أخرى لا

تعدُّ ولا تحصى ما زالت سرًّا من الأسرار. فمن تحت الثياب الزاهية الألوان، الطويلة الأكمام، والقمصان المزركشة، كانت ترتدي السروال على الدوام، الذي يساعدها في ركوب الخيل عند الضرورة. لا بدَّ لها أن تكون على أهبّة الاستعداد لكلّ طارئ، ليلاً ونهارًا.

ونسج الأهالي القصص والحكايات من حولها. وقالوا إنّ الجنّ هو الذي يعطيها تركيبة الأدوية التي تعالج المرضى بها. واعتقد آخرون أنّها تسلّلت إلى جبل كاف الذي لا يلقى فيه بشر أيّ ترحيب لأنّه موطن الحوريّات والجانّ والأشباح. وكانت جميلة تهزّ رأسها في دهشة عندما تسمع مثل هذه الحكايات التي لا تصدّق. وكان الأهالي الذي يقطنون في منطقة متعطّشة للأبطال والأساطير والمعجزات يتوقّعون منها أن تجسّد كلّ هذه الأشياء الثلاثة، ولكن جميلة كانت تعلم أنّها لا تستطيع أن تفعل إلّا ما يمكنها فعله. وكانت تساوم على ما تقدّمه من خمائر ومراهم اعتمادًا على قدرة الشخص المحتاج إليها، غير أنّها كانت تقدّمها من غير مقابل في أغلب الأحيان. وكانت تشتري بالمبالغ القليلة التي تحصل عليها موادّ إضافيّة.

واهتمّت جميلة كذلك بإعداد السموم وتحضيرها، وإن كانت لا تقدّمها إلّا لرهط قليل جدًّا من الناس. فالسمّ هبة من الله وبركة إلٰهيّة غالبًا ما ينسى الناس تقديرها حقّ قدرها. ويمكنك أن تنظر اليها بوصفها لعنة أو علاجًا شأنها شأن كلّ شيء آخر في الحياة. فالطبيعة خارج حدودِ الخير والشرّ. فالمادّة التي يمكن لها أن تشفيك، يمكن أن تصيبك بالمرض أيضًا. والمادّة التي يمكن لها

أن تجعلك مريضًا، يمكنها أن تشفيك أيضًا. كانت جميلة مؤمنة بأنّ مهنة صانع السموم لا تختلف عن مهنة أيّ حرفي آخر. وكانت كالصنائعي الماهر مسؤولة عن نوعيّة منتجها وليس عن الوسيلة التي يستخدمه بها الناس. فقد كانت تبيع السمّيّات للقضاء على فئران الحقول والذبابيات والجرذان والصراصير والأفاعي. وإذا كانت توافق على الرأي القائل إنّ منتجاتها يمكن أن تكون مميتة، فإنّها طالما خلصت إلى القول إنّ اللحوم مميتة أيضًا. فمن يلتهم كمِّيّات كبيرة جدًّا من اللحوم يصاب بداء النقرس وهو مرض قاتل إن تركه المصاب به من دون العلاج. ولكن لم يتوقّف أحد عن شراء اللحوم لذلك السبب، كما لم يذهب أحد لاعتقال الجزّارين.

تألّق جبين جميلة من تحت نور المصباح الزيتي عندما وضعت الهاون جانبًا وأخرجت علبة صغيرة مربّعة. عرق اللؤلؤ. في داخل العلبة حجر. حجر لا يقدّر بثمن. ألماس، أصفر بلون العسل وأكبر من حبّة بندق. أمسكتها بين أصابعها وتفحّصتها. ثمّة ناس في هذا الوادي على استعداد لأن يذبح أحدهم الآخر من أجل الحصول على مثل هذه الجوهرة المميّزة. مجانين! فالماس لا يمكن امتلاكه، بل يمكن النظر إليه فحسب. وكلّ مالك جديد ليس سوى محطّة موقّتة في رحلة ألماسة الطويلة. فهمت جميلة هذه القضيّة وآمنت بها. ألماسة في حوزتها الآن، ولكنّها يمكن أن تكون في مكان آخر غدًا. أمّا في هذه الأثناء، فقد استعملتها جميلة لإكمال تدابيرها. فبعض الحجارة تمنح دفئًا، نورًا داخليًّا، وعندما تحتفظ بها داخل جرعة دواء برهة وجيزة من الزمان، فإنّها تتخلّى عن روحها، تهدّئ من حافّاتها وتساعد في مزج الموادّ. لهذا

السبب كانت تحتفظ ببعض المجوهرات، لكنّ الماسة كانت هي الأفضل.

كان سكّان وادي الرافدين يطلقون منذ غابر العصور عبارة «دموع الله» على الألماس، وكانوا يعتقدون أنّ الألماس مصنوع من الغبار المتساقط على النجوم من شظايا تتكسّر من صواعق البرق في الليالي العاصفة. يضاف إلى هذا أنّ جميلة تناهى إلى سمعها من يقول إنّ الألماس هي قطرات متبلرة من العرق تتساقط في ربيع كلّ عام عندما تمارس أمّنا الأرض الحبّ مع السماء الأب. يا له من خيال جامح! إنّ الناس يسمحون لأفكارهم أن تندفع اندفاعًا جنونيًّا عندما يصادفون أشياء لا يستطيعون التحكّم فيها إلّا قليلاً، وكأنّهم باختراعهم هذه الحكايات سوف يتمكّنون من فهم كلّ ما من شأنه أن يربكهم إرباكًا مؤلمًا، ومن ذلك سكنهم القصير الأمد في هذا العالم.

إنّ الحياة البشريّة أقصر من مطر صيف مقارنة بقطعة من الماس. فبعد أن يصل البشر إلى سنّ الثمانين يصبحون شيوخًا ضعفاء، على حين تبقى الماسة في نظر الناس طفلاً رضيعًا. وخمّنت جميلة أنّ زهاء ثلاثمائة أو أربعمائة سنة قد مضت منذ استخراج قطعتها الماسيّة من المنجم وتلميعها. ما زالت شابّة. ويمكن أن تعيش الآف السنين، أو أكثر.

وعندما نعود إلى قضيّة الجشع من أجل اقتناء الماس، فإنّنا لا نجد فرقًا كبيرًا بين الأثرياء والفقراء، فضلاً عن أنّ هذا الجشع لا نهاية له حقًّا. فمن لا أمل له في امتلاك ماسة تجده يتطلّع إلى امتلاكها. ومن يملكها يتوق إلى حيازة ما هو أكثر من قطعة. الغشّ

والطمع والقسوة، عرفتها هذه الماسة منذ زمن مبكر. فتاريخها تاريخ دموي، وخان الجنود والجواسيس أحدهم الآخر من أجل أن يحظوا بماسة واحدة فحسب. وقدّمت الخادمات خدمتهنّ لسيّداتهنّ باحترام أكبر وأحبّت السيّدات أزواجهنّ حبًّا أكبر، وشعر الأزواج أنّهم أكثر رجولة في رفقتها من تحت سقوفهم. وتحوّل ما هو ملتبس إلى حقيقة مؤكّدة، وتطوّر الغزل إلى زيجات، والأصدقاء إلى أعداء، والأعداء إلى كتائب. وكما هو شأن عمود من شعاع الشمس الذي يعكس الثلج الناصع البياض، فإنّ الماسة الكهرمانيّة تزيد من بريق كلّ ما حولها بالأسلوب نفسه الذي تبدو فيه الشمس أكثر سطوعًا عندما تنعكس على الثلج الأبيض. لكنّها تنطوي على ظلمة حالكة في داخلها. فقد كانت جميلة تعلم أنّ ماسة في مثل هذه الروعة يمكن أن تبعد شخصًا ما عن روحه.

كانت الماسة هديّة من بيك، وهو رجل اعتاد أن يجمع مختلف الناس الذين ينحنون أمامه وينشر الذعر ويفرض الاحترام على حدٍّ سواء. وكانت جميلة قد أنقذت حياة ابنه الوحيد. وإذا كان الأطبّاء قد عجزوا عن شفائه، فإنّها بذلت أقصى ما في وسعها، تجهد نفسها في هدوء، معيدةً الطفل من مملكة عزرائيل بوصة فبوصة، وكأنّها تجذب زحافة من وسط الثلوج. وعندما فتح الولد عينيه أوّل مرّة وتكلّم، بكى البيك، بل صاح مثل معظم الرجال الذين يصيحون عاليًا وهم غير معتادين البكاء.

عرض البيك المال على جميلة، ولكنّها رفضت تسلّمه. نقود ذهبيّة. مستوطنة نحل تعطي عسلاً. مزرعة حرير. ولكن جميلة كانت تهزّ رأسها رافضة في كلّ مرّة. وكادت أن تمضي في سبيلها

عندما عرض عليها الماسة التي أسماها محظيّة بلون الكهرمان، فانجذبت إليها لا بسبب قيمتها بل لما تنطوي عليه من ألغاز وأحجيات في باطنها. يمكنها أن تصفها بأنّها حجر أسرار.

وقال البيك:

ـ يقولون إنّها ملعونة. لا يمكن شراؤها ولا يمكن الاستحواذ عليها عنوة. لا يمكن سرقتها، ولا يمكن أن تُمنح إلّا من القلب على أنّها هديّة. هكذا وصلت إليَّ، وهكذا سأعطيكِ إيّاها.

وشعرت جميلة في غمضة عين كأنّها هي والحجارة مرتبطتين ارتباطًا عميقًا وغامضًا يفوق قدرتها على الفهم. ولكنّها رفضت على الرّغم من ذلك. بيد أنّ البيك رجل ذكي، فأدرك أنّ جميلة كانت قد افتتنت بالجوهرة مثلما نفرت منها بعد أن ساورها قلق مفاده أنّها لو أخذتها، فإنّها لن تكون في مأمن بعد اليوم. وكان أحد الأسباب من وراء نجاتها من الأشقياء واللصوص في الوادي يكمن في أنّها لا تملك شيئًا يستحقّ السرقة. فلم يلحّ عليها البيك ولكنّه أرسل في الليلة نفسها الماسة مع رسول موثوق به. ومنذ ذلك اليوم ظلّت جميلة تؤدّي دور المضيف للمحظيّة الكهرمانيّة اللون.

ثمّة أشياء كثيرة غريبة عن الجنس البشري. فالبشر يظنّون أنّ الحشرات مثيرة للاشمئزاز ولكنّهم يشعرون بالسعادة عندما تحطّ دعسوقة على أصابعهم. وهم يمقتون الجرذان ولكنّهم يعشقون السناجب. وإذا كانوا يجدون النسور سببًا للنفور، فإنّهم يعتقدون أنّ العقبان مثيرة للإعجاب. كما أنّهم يمتعضون من البعوض والذباب ولكنّهم يحبّون اليراع. وإذا كان النحاس والحديد مهمّين

طبيًّا، فإنّ الذهب هو المعدن الذي يعجبون به الإعجاب كلّه. كما أنّهم لا يعيرون أيّة أهمِّيّة للحجارة من تحت أقدامهم ولكنّهم يجنّون جنونًا مطلقًا عندما يشاهدون المجوهرات الصقيلة.

بدا لجميلة أنّ البشر يختارون من بين كلّ ما يفعلون بضعة أشياء يفضّلونها ليغدقوا عليها من حبّهم وليفرّقوا من بقيّة الأشياء. ولم يفهموا إلّا قليلاً أنّ الأشياء التي لا تروقهم ضروريّة لدورة الحياة ضرورة الأشياء التي يعتزّون بها اعتزازًا كبيرًا. إنّ كلّ مخلوق من مخلوقات هذا العالم خُلق ليواجه التحدّي وليغيّر وليكمل شيئًا آخر. فبعوضة الماء لا تقلّ أهمِّيّة عن ذبابة الليل أو البرونز عن الذهب. هكذا صمّم الله، صانع المجوهرات العظيم، الكون برمّته.

ثابت إلى رشدها وسط كلّ تلك الأفكار عندما سمعت صوت طَرْق حادّ وعالٍ. ثمّة شخص ما يدقّ بابها من فوق. فما كان منها إلّا أن وثبت على قدميها وأعادت الماسة إلى العلبة. كم مضى على الطرق؟ ارتقت الدرج وصدرها يعلو ويهبط. وعندما رفعت الباب الأفقي الذي يؤدّي إلى غرفة المعيشة، تلقّت الضجيج مثلما تتلقّى صفعة.

ـ افتحي الباب! أين أنت أيّتها القابلة العذراء؟

وضعت جميلة يديها على جانبي الباب الأفقي ودفعت بجسدها إلى الطبقة العليا ثم أغلقت الباب وغطّته بالسجّادة، وأخيرًا أمسكت بندقيّتها واتّجهت نحو الباب مستعدّة استعدادًا تامًّا.

ولكنّ الدهشة ألمّت بها عندما شاهدت المهرّب الذي اعتنت بزوجته قبل أيّام. والد الطفل ونصف الطفل. وكادت أن تسأله عن

حال الطفل عندما شاهدت الرجل الواقف وراءه. كان يحمل رفيقه على ظهره. آثار دم. متخثّر وغامق.

قال المهرّب:

ـ أختي جميلة. . . يجب أن تساعدينا.

وفهمت. كانوا قد عبروا الحدود إلى سوريا حاملين بضاعة تتألّف من الشاي والتبغ والحرير وربّما المخدّرات، لكنّ الأمور لم تسر كما يشتهون، إذْ كان ثمّة كمين تعرّضوا له، وأُصيب أحدهم بطلق ناري. ربّما كان في الإمكان تركه وشأنه في ذلك المكان ولكنّهم لم يتركوه بل حملوه طوال الطريق إلى هنا، وهو ينزف نزفًا شديدًا وكانت روحه توشك أن تغادر جسده. ولم تكن جميلة في حاجة إلى أن تنظر إليه نظرة ثاقبة كي تعرف أنّه يُحتضر.

قالت جميلة:

ـ أعتقد أنّني لا أستطيع تقديم أيّ مساعدة، بل يجب نقله إلى المستشفى.

مصّ المهرّب طرفي شاربه، ولم يبدُ عليه أنّه غاضب أو مستاء، بل كان نافد الصبر. قال:

ـ تعرفين أنّنا لا نستطيع نقله إلى هناك.

وتبيّن بعد قليل أنّهما اتّفقا على شيء ما، إذْ وضعا الرجل الجريح على أريكة ومضيا في سبيلهما، ولكنّ المهرب قال قبل أن يخطو خارج المنزل:

ـ أرجو أن تضرمي نارًا في حديقتك إذا ما توفي، لأنّنا سنراها وسنأتي لدفنه.

كان وجهه طويلاً، شديد النحول، وكان بارز الوجنتين، متهدّل الكتفين، كئيب الملامح، مفرطًا في الطول والنحافة. حاولت جميلة أن تخمّن عمره. ربّما هو في أواخر العشرينيّات من عمره ولكن قد يكون قد تجاوز سنّ الأربعين. ولمّا كان ممتقع الوجه، شاحبًا، قدره يزحف داخل أوردته، فإنّ عمره قد يكون معروفًا أو غير معروف تمامًا.

رفعته قليلاً وبكلّ ما تستطيع من رفق ووضعت وسادة من تحت رأسه، فشعرت به ثقيلاً وخفيفًا في الوقت عينه. صدر عنه صوت أشبه بالحشرجة، صوت مكتوم لا يشبه صوت البشر. كان ثمّة شيء ما في صدره، رصاصة أخرى مستقرّة في بلعومه. وانساب دم من أنفه. كانت جميلة قد رأت صعوبات جمّة قبل الآن وتغلّبت على عدد كبير منها، ولكنّها لم تصادف في حياتها كلّها ما جعلها تتهيّأ لمثل هذا الرعب الذي انتابها الآن.

ربّما يكون قتله رحمة به. فالجواد المكسور الساق يستحقّ أن يموت ميتة كريمة. ويكفي لهذا الرجل كأس من شراب يتكوّن من أعشاب الشوكران السامّة. نبتة قديمة وطيّبة. المثير للدهشة أنّ أعدادًا كبيرة من الناس تظنّها نبتة الشمرة، فتفيض أرواحهم من دون أن يدروا. وكان القرويّون يسمّونها «نفس الشيطان». ولكن كان لجميلة اسم أفضل لها وهو السديم الأرجواني. ليتها تمكّنت من جعل الرجل يبلع كمّيّة مناسبة وعندئذٍ سوف يستسلم لنوم الخزامى ويحلم حلمه الأخير. كادت أن تقتل نفسها مرّتين في حياتها: الأولى بعد أن أعادها المختطفون إلى أبيها وكانت ما تزال عذراء ولكنّها ملطخّة السمعة، والثانية في اليوم الذي علمت أنّ آدم طلب

يد بمبي. ولكن في كلتا الحالتين، كان إصرارها على المضيّ قُدمًا في الحياة والخوف من الجحيم، أو ضرورة أن تشاهد الشمس تبزغ كلّ صباح، هي التي أرغمتها على البقاء حيَّة.

عدَّلت جميلة من كتفيها، موطّنة العزم على ألّا تسمح لنفسها الانشغال في التفكير على الرّغم من قوّة الدافع الذي كان يدفع بها إلى ذلك الاتّجاه. فركّزت في جروح الرجل، ومزّقت ثيابه وجرّدته منها. وكادت أن تصرخ لمَّا شاهدت شدّة نحوله وهزاله، هشاشته وضعفه، وعظامه البارزة إلى الخارج. كان مصابًا بثلاثة جروح بليغة: أحدهما في ساقه والآخر في كتفه، أمّا الثالث فكان جرحًا حرجًا، قريبًا من العمود الفقري. من أصابه بهذا الجرح إنّما كان يطلق عليه النار من الخلف.

استخرجت جميلة رصاصتين ونصف الرصاصة وهي تعمل طوال ما بعد الظهيرة، التي أغمي فيها على المريض مرّتين من شدّة الألم. أمّا الرصاصة الثالثة فكانت تحت ركبته اليمنى ولكنّها كانت متناثرة، ولم تجد سببًا يدفعها إلى أن تغور عميقًا أكثر ممّا ينبغي لأنّ في إمكانه أن يعيش وإيّاها، إنْ كان قادرًا على اجتياز كلّ هذه المحنة.

وأدركت أنّه لن يعود إلى وضعه الطبيعي قبل الإصابة، فالرصاصات، شأنها شأن الحجر الكريم والألماس تنقل أرواحها إلى أجساد أولئك الناس الذين تلامسهم.

بعد مرور زمن طويل على مغيب الشمس من السماء، راحت جميلة في غفوة قصيرة وهي جالسة على كرسي بجانب الرجل، متصلّبة الرقبة، في هذه الليلة، كما في الليلة الماضية، ثمّة نذير

شؤوم يتردّد في صدرها ويقبض أنفاسها.

غير أنّها استيقظت على صوت آهاته، وكان يفتح فمه ويغلقه كأنّه سمكة خارج البحر. فأسرعت إلى غمر منديل في ماء وبلّلت به شفتيه الظامئتين.

ـ ماء، من فضلك!

فقالت جميلة في رقّة:

ـ آسفة. هذا كلّ ما يمكنك الحصول عليه الآن. وسأعطيك مرّة أخرى في وقت لاحق. أعدك.

فما كان منه إلّا أن شتمها بكلمات غير واضحة. كانت الحمّى قد بلغت به مبلغًا كبيرًا، يغيب عن الوعي تارة ويثوب إلى رشده تارة أخرى. وفكّرت إن كان رجلاً محترمًا. وهل لهذا الأمر أيّة أهمّيّة؟ وهل كانت لتمتنع عن محاولة إنقاذ حياته لو لم يكن محترمًا؟ لا بدَّ أنّه متزوّج وله أطفال. ولو مات الآن، فهل سيفتقده أحدٌ ما؟

أزاحت جميلة السجّادة رويدًا رويدًا وفتحت الباب الأفقي، لأنّ لديها عملاً ينبغي لها أن تنجزه في القبو: دواء يتعيّن تحضيره، ولكنّه دواء لها شخصيًّا في هذه المرّة ليساعدها في التغلّب على قلقها. اختلست نظرة إلى المريض الراقد من فوق السرير، واطمأنت إلى أنّه لن يستيقظ إلّا بعد مرور بضع ساعات. فحشرت نفسها داخل فتحة الباب، وما إن وازنت نفسها من فوق السلالم حتى أغلقت الباب بعد أن أمسكت به بأطراف أصابعها. لم يكن في وسعها أن تعيد السجّادة إلى مكانها، ولكنّها اقتنعت بأنّ الباب سيظلّ مغلقًا. وإذا ما استيقظ الرجل فسوف يظنّ أنّها خرجت لقطع

بعض الأخشاب.. وهكذا تركت الباب يأخذ مكانه من فوق الفتحة ولكنّه أصدر صوتًا قويًّا.

في تلك اللحظة، فتح المهرّب عينيه، لكن على الرّغم من أنّ الغشاوة كانت تغطّيهما، إلّا أنّه تمكن من إلقاء نظرة على الكوخ، نظرة تنقّلت ما بين كومة الخشب المرتّبة ترتيبًا أنيقًا والبندقيّة المعلّقة على الجدار حتى استقرّت أخيرًا على الباب الأفقي. غير أنّ نظرة لا سبيل إلى فهمها استقرّت في عينيه قبل أن يغيب عن وعيه ويستسلم لإغفاءة مؤلمة.

* * *

أسماء

لندن، نيسان ١٩٧٨

أغلقت الباب وتنفّست تنفّسًا عميقًا. حالات الهروب التي تنتابني في منتصف الليل باتت مألوفة في الآونة الأخيرة. كنت أوصد الباب من ورائي في الحمّام بعد أن يكون كلّ فرد قد أوى إلى سريره واستسلم للنوم. أشعلت شمعة وألقيت نظرة فاحصة إلى وجهي الذي تتغيّر ملامحه مع كلّ ذبذبة من ذبذبات وهجها. لم أكن مهتمّة في ملاحظة شكلي بعد أن بلغت الخامسة عشرة من عمري، لأنّني كنت أبغي، بدلاً من ذلك، أن أكتشف ما الذي يكمن من تحت السطح وأن أرتبط بتلك النفس الأخرى التي ما زال يتعيّن عليَّ اكتشافها.

لمعظم الفتيات اللواتي أعرفهنّ غرف نوم خاصّة بهنّ، وفي إمكانهنّ غلق أبوابهنّ إنْ كان ذلك يعجبهنّ. أمّا أنا، فالأمر ليس كذلك. فإذا ما أردت أن أغلق باب الغرفة التي يشاركني النوم فيها شقيقي الأصغر، فإنّ أسرتي سوف ينتابها الهلع معتقدة أنّ مكروهًا

قد حدث لي. لهذا أنا أعشق الحمّام ـ المكان الوحيد الذي يمكنني أن أكون فيه في خلوة رفقة أفكاري وجسدي.

نزعت كنزتي الصوفيّة وصدريّتي التي تشبه لون البشرة والتي كنت أكرهها كراهية شديدة. نهداي بارزان، تبدو عليهما أوردة زرقاء رقيقة، كنت أراها مثيرة للنفور. إنّهما عبئان يتعيّن عليَّ حملهما وكأنّني لا أحمل أعباء أخرى. ففي صباح هذا اليوم حاول أحد الصبيان من تلاميذ صفّي أن يلمسهما متظاهرًا أنّه يريد الحصول على كتاب من فوق رفّ ورائي. ولمّا لاحظت نيّته، تمكّنت من تفاديه في اللحظة الأخيرة. وفي تلك اللحظة تمامًا صكّ سمعي صوت مجموعة من الصبيان وهم يضحكون ضحكًا نصف مكبوت. لقد خطّطوا كلّهم لهذا الحدث. وأفاضوا في الحديث عنه. الحديث عن نهديَّ. فشعرت بالغثيان.

كان المطر يهطل خارج المبنى على شارع لافندر غروف. وعندما نظرت إلى النافذة من خلال المرآة سألت نفسي مرّات ومرّات عن شكلي لو كنت صبيًّا. أمسكت قلم الحاجب البنّي بلون البندق وعمدت بادئ ذي بدء إلى زيادة سمك حاجبيَّ وبعدها وصلتُ ما بينهما. ثم بدأت أرسم شاربًا من فوق شفتيَّ، ولم يكن شاربًا خفيفًا أو رفيعًا، بل جعلته كبيرًا، كثًّا، يلتفّ إلى أعلى. لو رآني اسكندر الآن لهزّ رأسه غير مصدّق وقال: لقد جُنَّ جنونك يا أختاه! كنت أحيانًا أشعر وكأنّني شخص لا يجاري الآخرين في ميولهم ومشاربهم، كأنّ ثمّة خطأ في المدوّنات السماويّة التي جعلتني أنتهي إلى هذا الوضع. كنت أبذل قصارى جهدي كي أكون أحد أفراد أسرة طبرق في حين أنّ قدري الحقيقي ينتظرني في مكان آخر.

وكان اسكندر يقول كلّما عرّفني بشخص ما خاصّة إذا كان ذلك الشخص فتًى:

ـ مرحبًا، هذه هي أختي. إنّها لا تهوى إلّا الخاسرين.

لم يتحقّق أيّ فشل، إذْ كان الفتى ينأى عنّي بعيدًا ولكنّني ما كنت لأكترث له. وعلى الرّغم من غرابة ما كان يقوله اسكندر، إلّا أنّه كان على صواب. فقد كنت أجد نفسي على الدوام منجذبة انجذابًا لا يقاوم إلى المضطهدين والمظلومين. وكنت حتى في مشاهدتي لعبة كرة القدم، أرغب رغبة شديدة في أن تكون نتيجة المباراة التعادل كي ينتهي بي الأمر إلى تشجيع الفريق الخاسر. وكانت فكرة صعوبة المشاعر التي تساور اللاعبين في تلك اللحظة والانسحاق تحت وطأة خيبة عشّاقهم يكفيان كي أشجّعهم.

وكانت أمّي تقول:

ـ أنت تشجّعين القواقع، تلك مشكلة.

كانت أمّي تعتقد بوجود نمطين من الناس في العالم: مشجّعو الضفادع ومشجّعو القواقع.

ففي القرية التي عاشت فيها أمّي وهي بنت صغيرة، كان الأطفال يمسكون بالضفادع من جدول ماء قريب. وفي يوم ما أمسكوا بأكبر ضفدع وقعت عليه عينا بشر. فأتى أحد الأولاد بطاس من بيته وقلبه من فوق الحيوان القبيح الذي ظلّ جالسًا من دون حراك من شدّة خوفه. وكان الأولاد يأتون طوال النهار ويدقّون على الطاس الزجاجي، ويقتربون أكثر لإلقاء نظرة أفضل على الضفدع، ينتابهم الحماس والنفور من مشاهدة عينيه الجاحظتين وجلده الحقير. ثم أخرج أحد الأولاد قوقعًا من جيبه

ووضعه من تحت الطاس المقلوب فما كان من الضفدع إلّا أن نسي محنته ورمز في ضحيّته وفي الوقت عينه، كان القوقع يتهادى في سيره مؤملاً التحرّر من سجنه غير واعٍ بالخطر المحدق به. ووثب الضفدع مرّة، ومرّتين وأمسك بالقوقع والتهمه تحت أنظار حشد الأولاد الذين كانوا يصيحون وهم يشاهدون سائلاً رغويًا دبقًا ينساب من فمه.

وقالت أمّي إنّ الأولاد كلّهم شجّعوا الضفدع في ذلك اليوم وصفّقوا له وهتفوا: «ولكن لو كنتِ في ذلك المكان فإنّني أراهن على أنّكِ ستقفين إلى صفّ القوقع. إنّني أقلق عليك أحيانًا».

لا بأس إنْ كنت في معسكر القوقع ـ شريطة ألّا أضطر إلى مجاراة أولئك الذين تتّصف حياتهم بالسرعة، كما هو حال بعض البنات في صفّي. كانت مدرستي معروفة بالاستقطاب. فمن جهة، ثمّة فتيات مثلي وهنّ المجتهدات اللواتي يتراوحن بين القبيحات والعاديّات في جمالهنّ في أفضل الأحوال وينهمكن في الدراسة من أجل الحصول على أعلى المستويات. ولا يحظين باهتمام كبير باستثناء اهتمام المدرّسات. وهناك صنف الخَبَثْ وهنّ الفتيات اللواتي لا يكترثن لصفوفهنّ وتجدهنّ توّاقات للبدء في حياتهنّ فلا يجدن ضرورة في إضاعة دقيقة أخرى على تعليمهنّ. وأجمل فتيات هذه المجموعة هنَّ اللواتي يطلق عليهنّ اسم باربي.

كنت أراقب صنف باربي من الفتيات وأدرس أساليبهنّ وكأنّني أشرِّح أجناسًا جديدة في درس من دروس علم الأحياء. وكانت تلك الفتيات لا يتجاذبن أطراف الحديث إلّا عن الفتيان، وتشاطر إحداهنّ الأخرى في أدقّ المعلومات عن أيّ فتًى يحبّ أيّ فتاة.

وكنّ يحتفظن بسجلّات مفصّلة عن كلّ من يخرج في صحبة فتاة ويبذلن قصارى جهدهنّ لمعرفة إن كان هذان الاثنان قد مارسا الحبّ أم لا. وإذا عرفن أنّهما مارسا الحبّ، فكم مرّة؟ وإن كان الانتفاخ في بطن فتاة ما يرجع إلى الحمل أم لا، أو إن كانت ستحتفظ الفتاة بالطفل بعد الولادة أم ستطلب من أحد أن يتبنّاه. وكنّ على الدوام يغرمن بأحد الفتيان ثم ينفصلن رومانسيًّا أو جنونيًّا، يعشن كلّ يوم في حالة صعود وهبوط عاطفي يترك الشوق في عيونهنّ والقيل والقال العذب على ألسنتهنّ.

وكانت تزجية الوقت المفضّلة لديهنّ تكمن في التسوّق ككلّ. وكانت أمّهاتهنّ أو أخواتهنّ الأكبر سنًّا منهنّ يصطحبنهنّ إلى مراكز التسوّق لشراء الثياب الداخليّة. وفي حين كان الصنف الأوّل من الفتيات ينصحن بشراء صديريّات رياضيّة، إلّا أنّهنّ كنّ يلجأن إلى اختيار صديريّات مخرّمة ـ مثيرة جنسيًّا وأنيقة. وفي اليوم التالي تجدهنّ في المدرسة وهنّ يظهرن صديرياتهنّ لكلّ واحدة منهنّ في المرافق الصحّيّة ويكثرن من التعجّب والدهشة. فإذا كانت حاجة ما جيّدة فإنّها تتحوّل إلى ممتازة، وإلّا فإنّها تافهة. وينطبق الشيء نفسه على الطعام والثياب والمعلّمات والآباء ويصل الأمر إلى البلدان والشؤون الدوليّة.

وكان صنف باربي من الفتيات يتذمّرن أحيانًا بشأن الدورة الشهريّة أمام صديقاتهنّ الحميمات، وغير الحميمات على حدّ سواء، وأمام أصدقائهنّ من الفتيان وأمام أمّهاتهنّ، بل أمام آبائهنّ كما هو حال بعضهنّ ـ وتلك فكرة تكفي لأن تثير فيَّ الخوف والوجل. وسألت نفسي، وهو سؤال علمي في الأعمّ الأغلب، عن

السبب في اختلاف هذه الأمور من ثقافة إلى أخرى ناهيك عن اختلافها من بيت إلى آخر. فلو كلّمتُ أمّي عن دورتي الشهريّة لاحمرّ وجهها خجلاً، وعندئذٍ سأجدها تلقي عليَّ محاضرة، مفرداتها معتمدة على ما كانت تردّده جدّتي نازي.

هل يمكن للأمور أن تكون مختلفة لو أنّني كنت قد التحقت بمدرسة محلّيّة مع أطفال الجيران؟ لو كانت أسماء زميلاتي في الصفّ هي عائشةَ أو فرح أو زينب بدلاً من تريسي أو ديبي أو كلير، فهل من شأن انسجامي أن يكون أكبر وأسهل وأفضل؟ ربّما، ولكنّني لا أذهب هذا المذهب. أعلم أنّ الأمر يبعث على الشفقة، بيد أنّ الحقيقة هي أنّني كنت أفضّل أن أنجز واجباتي المدرسيّة أو أن أقرأ في كتاب مفيد على أن أتسكّع مضيّعة الوقت رفقة أندادي. ومع هذا، فقد كنت فخورة بمنجزي ويرجع الفضل في ذلك إلى معلّمتي في المدرسة الابتدائيّة الستّ باول. يا لها من امرأة مسكينة! فقد انتشرت أقاويل تفيد أنّ ابنها الوحيد مُنع من دخول المدرسة وأنّه انتقل من بيت الأسرة إلى منطقة لا تعرف عنه شيئًا. وبسبب محنتها وبلواها، فقد وهبت الستّ باول نفسها لمساعدة الأطفال المعوزين كي يقفوا على أقدامهم. وكنت أنا واحدة منهم.

سررت كثيرًا بشاربي، فبدأت أرسم لحية صغيرة على ذقني. نعم. كانت الستّ باول هي التي جاءت إلى منزلنا وكلّمت والديَّ وأقنعتهما على إرسالي إلى مدرسة أفضل. إلى مدرسة تؤكّد تدريس اللاتينيّة واليونانيّة وليس إلى مدرسة غير رسميّة.

وقالت لهما: بعد سنوات من التجربة يمكنني أن ألاحظ من مسافة بعيدة طفلة مميّزة. واستنادًا إلى خبرتي المهنيّة فإنّ ابنتكما يا

سيّد ويا سيّدة طبرق موهوبة وبارعة.

كما كلّمت الستّ باول مديري المدرسة الجديدة ـ وكلّهم من البيض والنصارى والإنكليز والطبقة المتوسّطة ـ وبصرف النظر عمّا قالته لهم، فإنّها نجحت في مسعاها. وعلى الرّغم من أنّني قوقعة في أعماقي إلّا أنّني وثبت وثبة ضفدع.

كنت أرغب في أن أصبح أديبة وليس أنثى فحسب. وذهب بي الأمر إلى أنّني اخترتُ لي اسم الشهرة الأدبي وهو جون بليك أونو ـ وهو اسم يتألّف من أسماء الشخصيّات الثلاث المفضّلة لديَّ: شاعر وأديب وفنّان تمثيلي وهم جون كيتس ووليم بليك ويوكو أونو.

غالبًا ما فكّرت في السبب الذي جعل أسماء الإناث مختلفة اختلافًا كبيرًا عن أسماء الذكور، وأنّها غريبة الأطوار، كأنّ النساء لسن حقيقيّات بل هنّ من نسج الخيال. أمّا أسماء الرجال فتجسّد القوّة والقدرة والسلطة مثل مظفر وتعني المنتصر، وفاروق ومعناه الشخص الذي يميّز الصدق من الكذب، وحسام الدين بمعنى سيف الدين. لكن أسماء النساء تعكس من جهة أخرى رقّة مثل رقة الزهريّة الفخاريّة. فالأسماء من مثل نيلوفار ويعني زهرة اللوتس، أو غولسرين ويعني زهور منتشرة، أو بينانز ويعني ألف تملّق، تجعل النساء زينة هذا العالم، تشذيب خفيف للشعر من جانبي الرأس ولكنّه ليس ضروريًا جدًّا.

جَيْ. بي. أونو. اسم يُذكر أمام باعة الكتب بنبرة تنمّ عن حسن تقدير واحترام. صحيح أنّه ينطوي على قدرٍ من الغموض ولكنّه يوحي بصفات ذكوريّة وأنثويّة على حدٍّ سواء. اسم ليس في

حاجة إلى صديريّات للنهدين.

* * *

بعد أن فرغت من رسم اللحية الصغيرة، نظرت نظرة متفحّصة إلى وجهي. لا فائدة. ليس هناك من سينظر إليَّ طويلاً حتى لو تنكّرت بمظهر الرجال. آه، يا ليتني كنت أملك رشاقة أبي وعينيْ أمّي ـ الخضراوين، الواسعتين المتميّزتين بنظرة خاصّة بهما. ولكنّني على العكس من ذلك، أملك كلّ الملامح غير المتجانسة مجتمعة معًا، بما فيها رقبة أمّي القصيرة وعينا أبي الاعتياديّتان. فكان أنفي بصلي الشكل، منتفخًا وشعري بلغ به التجعّد حدًّا يرفض معه أن ينسدل إلى أسفل. أمّا جبيني فعريض أكثر ممّا ينبغي. ثم إنّ ثمّة شامة على ذقني، بنّيّة الشكل وقبيحة وبارزة. وقد طلبت من أمّي مرّات ومرّات أن تأخذني إلى طبيب لإزالتها، غير أنّ الشامة كانت واحدة من الأشياء التي لا تكترث لها أمّي أيّ اكتراث. كانت امرأة جميلة ـ هذا ما أكّده كلّ شخص. وكان أخواي وسيمين، لهذا من غير الإنصاف أن تذهب الجينات الخاصّة بالجمال في إجازة بين الولدين وتنساني.

كان ليونس وجهٌ ملائكيٌّ على الرّغم من أنّ ألق الطفولة بدأ يغادره. أمّا اسكندر، فكان وسيمًا بدوره ولكن وسامته كانت من نمط مغاير. وسامته جذّابة تنطوي على توقّد ووضاعة ـ الرائع القذر على حدّ تعبير الفتيات من صنف باربي. كنت أدرك أنّ عددًا من زميلاتي في الصفّ يروقهنّ أخي الجذّاب، وأنّهنّ صادقنني وناصرنني لأنّني أخته. وكان اسكندر يأتي أحيانًا ليقلّني من المدرسة إلى البيت، فيسدّد نظراته الخاطفة التي يتميّز بها الشبّان

الأشذّاء، يمينًا ويسارًا فتؤتي ثمارها لدهشتي الكبرى.

وهمست الفتيات:

ـ لن أرفض هذا الشابّ.

ـ إنّه يشبه مايكل كورليون في شريط «العرّاب» السينمائي. وكلّ ما هو في حاجة إليه بندقيّة.

وتذمّرتُ متسائلة:

ـ متى أجريتنّ آخر فحص على عيونكنّ؟

كنت لا أجد أيّ وجه شبه بين اسكندر وآل باشينو، ولكن حتى لو سمعن السخرية في صوتي، فإنّهنّ لم يكترثن لي. فقد كنّ يرين في أخي صفات الذكر التي لا سبيل إلى مقاومتها.

ومنذ انتقال أبي، تغيّر اسكندر تغيّرًا كبيرًا ـ فأصبح مغترًّا بنفسه متباهيًا، نكد المزاج، صعب الإرضاء، بَرِحًا، يضيّع وقته رفقة أصدقائه وصديقته الفقيرة. وكان يتدرّب على الملاكمة ليل نهار، كأنّ العالم يحتشد بأعداء غير مرئيين. إن كان هذا هو ذعر المراهقة وقلقها كما يُقال، فلا أظنّني راغبة في أن أكبر.

كنت أنا وأمّي قريبتين إحدانا من الأخرى، ولكن كلّ شيء تغيّر في اللحظة التي بدأ فيها نهداي بالظهور ومررت بأوّل دورة شهريّة. وكان الشيء الوحيد الذي أبدت اهتمامًا به الآن هو عذريّتي. فكانت تكثر من مواعظها عن الأشياء التي لا ينبغي لي أبدًا أن أفعلها حتى في أشدّ أحلامي جموحًا. وأخبرتني أكثر من مرّة عمّا هو ممكن وما هو مسموح به. كانت قنوات اتّصالها الجبّارة مخصّصة للقوانين والممنوعات. وحذّرتني أمّي من الصبيان

قائلة إنّهم لا يسعون إلّا لشيء واحد، شيء واحد لا أكثر. في هذه السنّ، يكون معظم الصبيان أنانيين ووقحين، بعضهم لا يتخلّص من هاتين الصفتين أبدًا. ولكنّها على الرّغم من ذلك، لم تفرض مثل هذه القوانين على شقيقي. فيونس ما زال صغير السنّ، في حين كانت تعامل اسكندر معاملة مختلفة تمامًا. كانت صريحة: اسكندر ليس بحاجة إلى أن يكون حذرًا. يمكنه أن يتصرّف على هواه. بأيّة وسيلة كانت.

الشيء الذي لم تفهمه أمّي هو أنّني لم أكن مهتمّة بالصبيان أيّ اهتمام، فقد كنت أجدهم يبعثون على السأم والضجر، ضحلين، يعملون عمل الهورمونات. ولو لم تتكلّم في هذا الموضوع ليل نهار لما وجدت نفسي أُعيد النظر في موضوع الجنس. فقد كانت القواقع خنثويّة على الرّغم من كلّ شيء، تملك أعضاء تناسليّة ذكوريّة وأنثويّة. لم لا يمكن للبشر أن يكونوا كذلك؟ لو أنّ الله خلقنا على صورة القواقع لما كانت هناك قلوب محطّمة كثيرة ولما كان هناك ألم كثير في هذا العالم!

* * *

قلب من زجاج

منطقة على مقربة من نهر الفرات، نيسان ١٩٧٨

كان المريض يتّقد حرارة من فوق السرير، فعاينت جميلة درجة حرارته بوضعها شفتيها على جبينه، وهو أسلوب دأبت عليه مع الأطفال الرضَّع. ثم وضعت يدها الرقيقة على رسغه لمعرفة نبضه، فوجدته ضعيفًا وسريعًا. كانت دقّات القلب أشبه بطبول تنساب إلى المسامع من مكان بعيد وكأنّها أصوات حرب. كان الجسد البشري لغزًا، يحبّ القتال. وكان الجسد مقاتلاً وأكثر مقاومة من الروح على الرّغم من أنّ معظم الناس لا يعرفون ذلك. ولكن للجسد نقاط ضعفه شأنه شأن كلّ المحاربين العظام. يخاف المجهول، ويحتاج إلى أن يفهم العدو كي يتمكّن من مقاومته وضربه وردعه وتدميره. وإذا لم يعرف من هو الذي يقاتله، فإنّه لن يتمكّن من تحقيق النصر. وهنا يأتي دور جميلة. فمنذ بدء التاريخ، كان المعالجون من أمثالها يساعدون المرضى على استعادة قوّتهم كي يتمكّنوا من معرفة مرضهم. ولم تكن تعالجهم قدر ما كانت

تساعدهم كي يعالجوا أنفسهم.

وعندما بلّلت جميلة منشفة في محلول الخلّ ووضعتها على جبين المهرّب، لم تتمالك نفسها من التفكير، بأقلّ ما يمكن من التردّد، في نمط الرجل الذي تعالجه. فمن ناحية أولى، لا يساورها أيّ شكّ في أنَّ كلّ إنسان يستحقّ أن يعيش، ولكن هل يستحقّ كلّ إنسان أن يُبعث من الموت؟ تلك محنة طالما فكّرت فيها ولكنّها لم تتوصّل إلى أيّ نتيجة محدّدة. هل يولد البشر طاهرين، عفيفين، ثم ينشأون نشأة تفسدهم من بعد ذلك؟ أم أنّهم يحملون بذور الرذيلة منذ شهور حملهم؟ وقد ذكر القرآن أنّنا كلّنا خُلقنا من نطفة أمشاج، فكم زُرع من حياتنا الراهنة في تلك النطفة؟ هذا ما أرادت جميلة أن تعرفه. فاللؤلؤة، صافية ونقيّة، ولكنّها تنمو من ذرة تراب تغلغلت في محارة مصادفةً، هذا إن كان الافتراض صحيحًا. ويمكن حتى للبذرة السيّئة أن تتحوّل إلى شيء رائع. ولكن على الرّغم من هذا، ثمّة أوقات لا تنتج الذرة السيّئة إلّا شبيهاتها. بعض الأطفال الذين ساعدت على ولادتهم في هذا العالم سينقلبون إلى نصّابين وكذّابين ولصوص ومغتصبين وقتلة أيضًا. لو كانت تملك طريقة تتوقّع بها كيف سينشأ كلّ طفل، فهل ستلجأ إلى عدم المساعدة في ولادة قسم منهم؟ هل يمكنها أن تترك جنينًا في رحم أمّه، مدفونًا في راحة، كي تحول بينه وبين جلب المصائب والبلوى إلى العالم؟

في كلّ مرّة كانت جميلة تمسك مولودًا جديدًا بين ذراعيها، فإنّها تجد متعة في لمس أصابع قدميه الصغيرة وفمه الشبيه ببرعم وردة، وأنفه الشبيه بالزرّ، وكانت تشعر بالثقة من أنّ الخير وحده

هو الذي يأتي عن مخلوق بمثل هذا الكمال. ولكنّها شعرت أيضًا بين حين وآخر أنّ بعض الأطفال ليسوا متشابهين. منذ البداية. وقد تفطن الأمّهات إلى هذا الأمر لو لم تحجب ستارة الحبّ أحاسيسهنّ. أمّا هي، فمختلفة وفي وسعها رؤية الأشياء. لكن كلّ ما في الأمر هو أنّها لا تعرف ماذا تفعل بها بعد ذلك.

ثمّة قابلات قتلن الأطفال الذين أتين بهم إلى هذا العالم، وإن كان هذا صعب التصديق. وتلك هي قصّة النبي إبراهيم ـ القصّة التي سمعتها جميلة وبمبي من والدهما.

في يوم مشمس اصطحب بيرزو بناته الثماني لزيارة بركة ماء مقدّسة في أورفه. كانت نازي توشك أن ترزق بطفل من جديد، على الرّغم من تقدّمها في السنّ، فذهبت الأسرة إلى هناك لتدعو من أجل أن ترزق بولد. كانت السحب تشقّ طريقها على امتداد السماء مترامية الأطراف. الناس في كلّ مكان. همسات أصوات ناعمة تشبه حفيف ورق الشجر. واستبدّت الدهشة بالبنات وهنّ يشاهدن كلّ شيء، فتجمّعن، خجولات ولكنّهنّ متحمّسات أيضًا. أطعمن الأسماك. وفي طريق العودة أخبرهنّ والدهنّ عن الأسطورة الكامنة من وراء المكان. كان بيرزو رجلاً مختلفًا في ذلك النهار، رقيق العينين، رائع الابتسامة. كلّ ذلك قبل أن يُمنى كلّ شيء بإخفاق كبير.

كان الملك نمرود رجلاً لا حدود لطموحاته ولا لقسوته.. وفي يوم من الأيّام، أخبره كبير المنجّمين أنّ حكمه سيبلغ منتهاه عند ولادة صبي اسمه إبراهيم. ولمّا كان نمرود غير مستعدّ للتخلّي عن العرش، فقد أمر كلّ القابلات في إمبراطوريّته أن يقتلن كلّ

مولود صبيّ، من دون استثناء، ثريًّا كان أم فقيرًا. وهكذا انطلقت القابلات لتنفيذ الأمر. ففي بداية الأمر ساعدن الأمّهات على الولادة، فإذا كان المولود ذكرًا، قتلنه خنقًا، لكن والدة إبراهيم تمكّنت من الهروب والنجاة من هذا العمل الوحشي، وولدت من غير مساعدة من أحد في كهف من كهوف الجبال ـ مظلم ورطب ولكنّه آمن.

ولمّا بلغ إبراهيم أشدّه، قاوم أعمال النمرود الوحشيّة. فغضب الملك غضبًا شديدًا، وطلب من الناس، صغارًا وكبارًا أن يجمعوا الحطب وإضرام نار هائلة تستمرّ مشتعلة أيّامًا بلا انقطاع، ثم أمر برمي إبراهيم في النار، ولكنّ النبي إبراهيم خرج من النار بعد برهة وجيزة، من دون أن يلحق به أذًى باستثناء خصلة من شعره تحوّل لونها إلى أبيض. وفي لحظة واحدة، حوَّل الله النار إلى ماء والجمر الأحمر إلى أسماك. وهكذا ولدت بركة الماء المقدّسة في أورفه.

وعلى الرّغم من كلّ شيء، لم تمتعض جميلة من حياتها. فبعد أن تزوّج آدم وبمبي، أقنعت والدها أن تظلّ عازبة وأن تساعد القابلات في المنطقة. فوافق على طلبها معتقدًا أنّ رغبتها ليست سوى رغبة موقّتة، ولكنّها استمرّت على تلك الحال، ولم تندم على شيء حتى اليوم سوى أنّها لم تتمكّن من أن تصبح طبيبة. لو كانت الظروف غير هذه الظروف، لكان ذلك هدفها: أن تشتغل في مستشفى واسع ونظيف مرتدية صدريّة بيضاء وبطاقة بها تقول: الدكتورة بس جميلة.

* * *

مالت جميلة إلى أمام أكثر وقطّعت بصلتين إلى شرائح سميكة

ووضعت حلقاتها من تحت قدمي المريض وغطّتها بوشاح من كتّان. وفي حين أخذت قطع البصل تسحب الحمّى من الرأس باتّجاه الأجزاء السفلي من الجسد، ظلّت جميلة تغيّر المنشفة المبلّلة من فوق حاجبيه كلّ بضع دقائق، وقامت بما كانت تقوم به على الدوام عندما لا يكون لديها أيّ عمل تؤدّيه: الصلاة. وبحلول منتصف الليل، انخفضت درجة حرارة المهرّب، فشعرت جميلة بالاطمئنان واستسلمت للنوم وهي جالسة على الكرسي، وراودها حلم مزعج..

رأت نفسها في مدينة تحترق، وكانت وحيدة وحاملاً. وكانت مضطرة إلى العثور على مكان لتلد فيه ولكن أينما ولَّت وجهها رأت الفوضى. فالمباني تنهار والناس يركضون متدافعين يمينًا وشمالاً، والكلاب تنبح في هلع وجزع. وفي غمار تلك الاضطرابات شاهدت جميلة سريرًا هائلاً بأعمدة سميكة ذات نقوش بارزة، ووسائد حريريّة. فما كان منها إلّا أن استلقت وولدت ابنة. وعندما سأل شخص ما عن اسم البنت، قالت:

ـ سوف أسمّيها بمبي تيمّنًا باسم توأمي التي قضت نحبها.

واستيقظت جميلة، ضربات قلبها متسارعة، وعاينت نبض المريض، فكان مقاربًا للنبض الطبيعي. لقد اجتاز المحنة. وفي الخارج، كان الصبح قد انبلج. فركت جميلة أطرافها المتيبّسة واحتست كأس ماء بارد، وحاولت ألّا تفكّر في الحلم، وأشعلت الموقد على مهل وبدأت تعدّ وجبة الفطور. فسخّنت قطعة من الزبدة ووضعت فوقها ثلاث بيضات، مضيفة إليها كمِّيّة قليلة من الملح وشيئًا من نبتة إكليل الجبل. لم يكن الطهو من الأمور التي

تشغل بالها كثيرًا، فكانت تكتفي بأطباق بسيطة، ولمّا لم يكن لديها من تهتمّ به وترعاه، فإنّها لم تشعر بضرورة تهذيب مهاراتها في الطهو.

ـ يا للرائحة الطيّبة! ماذا تعدّين؟

جفلت جميلة واستدارت، فرأت المهرّب جالسًا من فوق السرير، أشعث الشعر، ذهبي اللحية قصيرها. وقالت:

ـ بيض لا أكثر.

وهنا قبع كما يقبع الخنزير استحسانًا أو استهجانًا، وقال:

ـ ومن أنت بحقّ السماء؟

ـ أنا جميلة، القابلة.

فبانت عليه أمارات التأنيب.

ـ ولماذا أنا هنا؟

ـ لقد أُصبت بطلق ناري. ونجاتك وبقاؤك على قيد الحياة أعجوبة. لقد مضى على وجودك في هذا المكان أسبوع. تفضّل. اشرب قليلاً من الشاي.

رشف رشفة ثم بصقها.

ـ ما هذا؟ لطعمه مذاق بول الحصان.

فقالت محاولة ألّا تبدو وقد أُهينت:

ـ يستحسن بك أن تشربه، كما يستحسن ألّا تبصق داخل بيتي.

قال هامسًا في صوت أجشّ:

ـ آسف. أعتقد أنّني يجب أن أشكرك على إنقاذك حياتي.

ـ بل عليك أن تشكر الله، فهو الذي ينقذ الحياة.

عبس لتلك الفكرة، ولزم الصمت برهة وجيزة.

ـ هه! قابلة. ألديك سيكارة؟

قالت جميلة:

ـ لا ينبغي لك أن تدخّن.

ـ أرجوكِ، نفس واحد!

اختلجت في نفس جميلة مشاعر متباينة ولكنّها أخرجت في نهاية المطاف كيس تبغ وبعض ورق السكائر، وبدأت تلفّ سيكارة. راقب يديها، الخشنتين والحمراوين والمشقّقتين والمتقرّحتين من كثرة الغسيل بالماء البارد، وراحتي يديها المتصلّبتين من قطع الأخشاب.

قال:

ـ أنت امرأة غريبة.

ـ هكذا يقولون.

ـ كيف يمكنك العيش وحيدة في هذا المكان. أنت في حاجة إلى رجل لحمايتك.

ـ هل لامرأتك رجل يحميها الآن؟ أراهن أنّها وحيدة مثلي. بعض النساء يتزوّجن ولكنّهنّ يبقين مستوحدات. والبعض الآخر منهنّ مستوحدات مثلي!

ابتسم المهرّب ابتسامة عريضة، وكشفت عيناه عن قدر من المرح:

ـ يمكنني أن أتزوّجك، ولن تمانع زوجتي، وستكون سعيدة بحضور رفيقة.

أشعلت جميلة سيكارة، وأخذت نفسًا ونفثت الدخان، ثم ناولته إيّاها كارهةً، ومتجاهلة يده التي لامست أطراف أصابع يدها في خفّة.

ـ شكرًا لكرمك. ولكنّني سعيدة هكذا.

رمقها بنظرة متفحّصة من دون أن يبدي أيّة ملاحظة. ثم تكلّم من جديد، والدخان ينساب من منخريه.

ـ كنّا أربعة عند اجتياز الحدود. هل أخبروك بما حدث للرجل الآخر؟

هزَّت جميلة رأسها غير متأكّدة إن كانت تريد أن تسمع هذا الكلام.

ـ لقد وطأت قدماه لغمًا أرضيًّا. صدّقيني، هذا هو الأسوأ. أنا لست خائفًا من الإصابة أو السجن، ولكنّني أخاف الألغام. على أيّة حال، لن يحدث هذا لي، وسوف أدفن من دون إصابة. بكلّ أعضائي. لا أعضاء مفقودة.

سألته من دون أن تعرف كيف تردّ:

ـ ألديك أطفال؟

ـ ثلاثة صبيان، والرابع في الطريق. وسيكون صبيًّا أيضًا، إن شاء الله.

ـ ألديك أيّة بنات؟

ـ نعم، أربع.

ثم مال إلى أمام، يسعل، ملتوي الوجه.

ـ لا بدّ لي من الذهاب. إنّهم بحاجة إليَّ.

ـ حسنًا، إنّهم بحاجة إليك قويًّا، مفعمًا بالنشاط والحيويّة، وليس ضعيفًا وجريحًا. ينبغي لك أن تحظى بقسط من الراحة أوّلاً، وبعدئذٍ في وسعك الذهاب.

ـ تناهى إلى مسامعي حديث الناس عنك، يقولون إنّ لديك زوجًا من الجانّ يزورك في الليالي الظلماء التي يُفتقد فيها البدر، وهو الذي يجهّزك بالأدوية السرِّيّة. صحيح؟

أخرجت جميلة صينيّة نحاسيّة دائريّة من الخزانة ووضعت عليها رغيف خبز وشايًا والمقلاة التي تئزّ بالبيض. وحملتها إليه في رفق، وابتسمت مضطرة وقالت:

ـ زوج من الجانّ! أعتقد أنّني امرأة اعتياديّة، وحياتي مثيرة للسأم أكثر ممّا تتخيّل.

غير أنّ جميلة سرعان ما ندمت على تفوّهها بهذه العبارة، إذْ الأفضل أن يظنّ الرجل أنّها مخلوقة غريبة، امرأة لا تشبه غيرها من النساء. ولا ينبغي لها أن تُظهر له، ولا لأيّ شخص آخر، عيوبها وهشاشتها وإنسانيّتها، إذْ لو عرفوا أنّ لديك قلبًا من زجاج لكسروه.

* * *

صبي من شمع

لندن، مايس ١٩٧٨

في اليوم الذي اعتُقل فيه محتلّو البيت، اقتيدت توبيكو أيضًا إلى الحبس، ولكنّها على العكس من الآخرين توارت عن الأنظار بعد إطلاق سراحها بوقت قصير. لم يعرف أحد إلى أين ذهبت. فما كان من يونس الذي استبدّ به القلق إلّا أن طرق باب بيت جيران المنزل المحتلّ، ففتح له رجل عجوز الباب قليلاً ورنا إليه من وراء سلسلة الأمان.

ـ آسف لإزعاجك. إنّني أبحث عن صديقتي، الفتاة ذات الشعر الأسود والوشم، والتي كانت تقطن في المنزل المجاور.

ـ أتعني أين يعيش المجانين أجمعين؟

ردَّ يونس متحيّرًا:

ـ آه!

فقال العجوز:

ـ لا أعرف أيّ فتاة ذات شعر أسود ووشم. ليتهم ذهبوا من غير رجعة. إلى حيث القت!

ثم صفق الباب في قوّة.

فقرّر يونس أن يفتّش في البلدة بمفرده، فركب درّاجته الهوائيّة وطاف الشوارع، شارعًا في إثر شارع، مسرعًا نحو كلّ امرأة حتى وإن كانت تشبه توبيكو شبهًا بعيدًا. كما فتّش في الأسواق ومحلّات التسوّق وغسيل الثياب وأماكن بيع المشروبات الروحيّة للاستهلاك في البيوت، ولكنّه بقي عاجزًا عن العثور عليها.

وهكذا إلى أن حلَّ يوم في بواكير مايس وكان ينعطف في سيره من حول ناصية شارع كنغز لاند، على بعد خطوات قليلة من سينما ريو، وكان فكره في كلّ مكان وفي اللامكان لأنّه كان يأمل في العثور على توبيكو، عندما لمحت عيناه الناعستان شابًّا وشابّة واقفين أمام منصّة لبيع الزهور، مولين ظهرهما له، ومنشغلين في اختيار أصّ من الزهور. لم يعرف ما الذي جذبه إلى الشابّين، ولكن شيئًا غامضًا جعله لا يقدر على إشاحة نظره عنهما.

مدّ الرجل يده ولمس معصمها، مداعبًا إيّاه في خفّة ومحبّة. كان جسدها يميل نحوه وكأنّها توشك أن تضع رأسها على كتفه في أيّة لحظة. وعلى حين بغتة، شعر يونس بانزعاج في أعماقه، وضغط في أذنيه: معرفة بشعر المرأة الكستنائي، والثوب الأخضر، بأكمامه الطويلة وأزراره الذهبيّة، وقوامها الجميل وذراعها الرشيقة. . . وخفق قلب الولد، واحمرّ وجهه وزمَّ شفتيه.

جذب الرجل المرأة إليه وهمس في أذنها، لمس عنقها بشفتيه، لمسًا سريعًا وقصيرًا، ربّما مصادفة بريئة وغير مقصودة،

وخجولة، فما كان منها إلّا أن التفتت قليلاً وابتسمت، كاشفة بذلك عن غمّازة في وجنتها اليمنى.

أمّاه.

استدار الولد بدرّاجته ومضى مسرعًا، وفكّر وهو تحت تأثير الصدمة والذعر اللذين استبدّا به، أو ربّما فكّر جانب واحد من عقله أنّه لم يشاهد أمّه على ذلك النحو من قبل. كانت المرأة التي رآها قبل قليل هي أمّه، ولكنّها لم تكن تشبهها. كانت تحيط بها هالة من السعادة، وكانت مشرقة، كالزهور التي كانت تبتاعها.

عاد يونس في ذلك المساء مثل صبيّ من شمع، ممتقع الوجه، لا روح فيه ولا حيويّة. فضايقه اسكندر وأسماء إلى حدٍّ بعيد قائلين إنّه يشبه أحد التماثيل في متحف مدام توسو. وانتاب القلق بمبي خشية أن يكون قد أُصيب بأنفلونزا في معدته، فحاولت أن تسقيه شايًا بالنعنع، ولكن يونس رفض مزاحهم وتجاهله، وأصرَّ على أن يأوي إلى النوم مبكرًا.

في تلك الليلة، بال في فراشه.

* * *

هارون المهرَّب

منطقة على مقربة من نهر الفرات، مايس ١٩٧٨

خرجت جميلة في أواخر عصر ذلك اليوم لجمع الحطب. وفي طريق عودتها، جلست من فوق صخرة، واستغرقت في التفكير. كانت قد ثبّتت رسالة في حزامها، فأخرجتها وحدجتها بنظرة من عينيها النهمتين وكأنّها نسيت ما هي. لكنّ الرسالة كانت حقيقيّة بخلاف الوحوش التي كانت تراودها في أحلامها، حقيقيّة كالجبال المحيطة بها، ومثلها، مثقلة بالاحتمالات. وبدأت تقرأها:

أختي العزيزة جميلة:

لا بدَّ أنّني أرسلت لك مئات الرسائل طوال هذه السنين. لقد مررت بأوقات طيّبة وأوقات عصيبة، وهذه أصعب رسالة أكتبها إليك. لقد التقيت شخصًا ما يا أختاه. بالله عليك لا تقطّبي جبينك، ولا تصدري حكمًا عليَّ، بل امنحيني فرصة لأشرح لك وإنْ كنت غير متأكّدة من أنّني أفهم ما يحدث. أنا لا أستطع أن

أبوح بسرّي إلّا لك. لا أحد يعرف. إنّني غبيّة، بليدة الذهن، خائفة، ولكنّني مفعمة بالفرح والأمل أيضًا. كيف؟

كنت مقتنعة طوال هذه المدّة أنّ فؤادي جافّ، ذابل، مثل قطعة من الجلد متروكة تحت أشعّة الشمس منذ زمن طويل، عاجزة عن حبّ أيّ شخص سواك أنت وأولادي. أمّا أن أحبّ رجلاً، فهذا ما لا أعتقده. وعندما التقيته، شعرت وكأنّني أعرفه منذ زمن. لم أستطع وصف هذا الشعور، وحاولت أن أبعده عن أفكاري. ولكنّني فشلت.

هو طاهٍ، مثلك يعرف لغة الاعشاب والتوابل. الشبّان يتظاهرون هنا في شوارع لندن. كلّ شخص ثائر لسبب من الأسباب، أمّا هو فليس بثائر. يقول إنّ الصبورين من الناس هم وحدهم الذين يمكنهم الطهو. رجل ينتمي إلى أكثر من بلد وله أكثر من اسم، بلا وطن. لعلّه يحمل مسقط رأسه على ظهره مثل سلحفاة معمّرة.

أعرف أنّك أصبت بالهلع. أعرف ماذا ستقولين لي: هذا عار. شبح ماما سيطاردني إلى ما لا نهاية. وشبح بابا أيضًا. «أفضّل أن أشاهد جثّة بنت من بناتي في نهر دجلة على أن تلحق العار بي». هذا ما قاله بعد هروب هديّة. أتتذكّرين ذلك؟

أخبريني. كيف يمكنك أن تمنعي شخصًا من القراءة إذا كنت تلقّنينه الحروف الأبجديّة؟ وكيف يمكن لمن ذاقت الحبّ أن لا تظمأ له؟ إنّك إذا ما رأيت نفسك من خلال عيني حبيبك، فإنّك لن تكوني بعد ذلك الفتاةِ نفسها. كنت عمياء طوال هذه المدّة، ولكن بما أنّ عينيَّ مفتوحتان الآن فإنّني أهاب النور. ولكنّني لا أحبّ أن

أعيش عيشة مزدوجة. لا، لقد انتهى ذلك.

لا تغفري لي يا عزيزتي إن كنت لا تجدين المغفرة في فؤادك ولكن أرجو منك أن تحبّيني. الآن وكلّ يوم. وسأحبّك بدوري. دائمًا وأبدًا.

توأمك الهائمة بك

بمبي

واستنتجت جميلة أنّ أختها قد أُصيبت بالجفاف مؤكّدًا. ثمّة شيء يبعث على الوهن بسبب الحبّ. قوّة غامضة تجرّدك من أحاسيسك وقوّتك. قد لا يكون آدم مهتمًّا، ولكن من شأن كلّ فرد أن يسرع للقذف في سمعة بمبي ـ الأصدقاء والجيران والأقارب هنا وهناك. وحتى لو تمكّنتْ من الحصول على طلاق سهل فهل سيوافق هذا الطاهي على الزواج بها من فوره كي يضع حدًّا للأقاويل ـ هذا الرجل الذي يحمل وطنًا متنقّلاً، ولا يملك إحساسًا بالماضي؟ إنّه رجل بلا هويّة، نصراني على الأرجح، فزاد في الطين بلَّة. كلّما أنعمت جميلة في التفكير في الموضوع، أدركت إدراكًا أكبر استحالته. ينبغي لها أن تُخرج شقيقتها من لندن، لتكون في مأمن، بعيدة عن الخطر. يتعيّن عليها أن تحمي بمبي من القيل والقال، ومن القدح في سمعتها، وإذا اقتضت الضرورة، من نفسها.

تسارعت الأفكار في ذهنها حتى وصلت كوخها ودخلته حاملة على ظهرها حزمة من الحطب، ووضعت حملها بالقرب من المدفأة واستعادت أنفاسها. ولاحظت من طرف عينها أنّ المهرّب قد غادر مكانه من فوق الأريكة بعد بضعة أسابيع أمضاها تحت عنايتها

ورعايتها، وبات قادرًا في نهاية المطاف من الوقوف على قدميه. التفتت نحوه نصف التفاتة مبتسمة. وهنا لاحظت البندقيّة في يده.

قال مصوّبًا البندقيّة في اتّجاهها:

ـ إنّك تثيرين دهشتي بأسرارك. أتساءل عمّا تخبّئين.

ـ كيف يمكنني أن أخبّئ شيئًا؟ إنّني قابلة، ولا أحصل على أجر لقاء عملي.

بدا مقتنعًا بكلامها أوّل وهلة، ولكنّه قال بعد هنيهة:

ـ حسنًا سوف نرى. خذيني إلى القبو أوّلاً.

تلعثمت جميلة في الكلام وهي تردّد في نفسها: كيف اكتشف القبو؟ ثم قالت:

ـ ماذا؟ لا يوجد شيء فيه. لا شيء سوى حليٍّ رخيصة وقديمة.

فقال لها:

ـ الحليُّ القديمة جميلة.

كانت أوردة وجهه منتفخة، وعيناه متّقدتين، وأضاف:

ـ هيّا. دلّيني على الطريق.

لكن جسدها الذي لم يألف تلقّي الأوامر من أيّ شخص تصلّب وأبدى مقاومة.

ـ تحرّكي وإلّا فجّرت رأسك وأطعمتك للكلاب.

ثم همس:

ـ وعندئذٍ سأهبط إلى القبو في كلّ الأحوال.

أزاحت جميلة السجّادة جانبًا وفتحت الباب الأفقي وتراجعت خطوة إلى الوراء كي يتمكّن من رؤية أسفل القبو.

قال:

ـ لا. سوف نهبط معًا. أنت أوّلاً، لكن انتظري...

رمى لها بحبل وجعلها تربط يديها من الأمام ربطًا يجعلها تتمكّن من استخدامهما إذا دعت الضرورة وإنْ كان بشيء من الإحكام كي لا تستطيع حلّ العقدة في سهولة.

ـ لا يمكنني الهبوط إلى أسفل على هذا النحو.

ـ آه، أنت امرأة ذكيّة. ستجدين حلًّا.

شقّت جميلة طريقها هابطة أسفل السلالم درجة درجة وهي توازن ثقل جسدها بصعوبة بالغة، وهبط من ورائها. وكان في وسعها أن تشعر أنّه يتألّم، فما زالت جروحه لم تتماثل للشفاء بعد، ولكن طمعه كان أقوى من ألمه.

وقال وهو ينحني إلى أمام وكأنّه يوشك أن يتقيّأ:

ـ ما هذه الرائحة؟

شعرت جميلة بالرائحة لأوّل مرّة منذ سنين، رائحة توابل نفّاذة، منتشرة في المكان.

وهتف متعجّبًا:

ـ حسنًا، حسنًا. ماذا فعلتِ هنا؟

ثم نظر من حوله وأمسك بزجاجة تحتوي على بذور خردل وهزّها في ريبة، وأضاف:

ـ كنت أعرف. أنتِ ساحرة. والآن، أخبريني عن الكنوز التي تخبّئينها.

ـ لا شيء. أعشاب وأدوية كما ترى. إنّني أحضّر الأدوية، وقد جعلك أحد هذه الأدوية تتماثل للشفاء. هل تتذكّر ذلك؟

قال:

ـ ظننتك قلت إنّ الله وحده هو الشافي. أتدرين؟ كنت على حقّ. لا أحد سوى الله. هو الذي أنقذني. الرجال الذين لم يمرّوا بنصف ما مررت به باتوا اليوم في عداد الموتى. هم في قبورهم، وأنا حيّ أرزق. إنّني أنجو على الدوام.

وَكَزها بنهاية البندقيّة، ففقدت توازنها موشكة على السقوط. وقال وهو يخطو خطوة مقتربًا منها وسدّد نظراته إلى وركيها ونهديها:

ـ إنّني في شوق لمعرفة نكهتك. إذًا أنت لم تتعرّفي إلى رجل. مسكينة. ربّما ينبغي لي أن أجبرك على الركوب وإيّاي أيّتها القابلة العذراء.

بدأ يفتّش الطاولة، موليًا ظهره إيّاها إلى حدٍّ ما. فأفرغ محتويات الزجاجات، واشتمّ الأوعية الزجاجيّة، وفرَّغ الحاويات وحطّم بعض الأغراض من غير اكتراث، فدار عقل جميلة وتشوّش ذهنها، إذْ كانت المحظيّة الكهرمانيّة فوق الرفّ، في علبة عرق اللؤلؤ. وقالت في صوت متوتّر بسبب الجهد الذي كانت تبذله لإخفاء قلقها:

ـ لنصعد إلى الطابق العلوي.

ـ وماذا في الطابق العلوي؟

ـ سأطهو لك الطعام وأغسل قدميك.

كان وقع الكلمات يشبه وقع السكّين، إذْ توقّف المهرّب، وعيناه تفتّشان.

ـ أتظنّينني غبيًّا؟

قالت مذعورة:

ـ لا، على وجه التوكيد، فأنت رجل ذكي.

ـ لماذا تتملّقين إليَّ؟ لم هذا التحوّل؟ ينبغي لك أن تضربيني.

ثم أضاف بعد هنيهة:

ـ إلى أين تنظرين؟

أدركت جميلة غلطتها. ففي غمرة ارتباكها، كرّرت النظر إلى الرفوف من ورائه، فلاحقت عيناه عينيها، ولم يستغرق وقتًا طويلاً حتى عثر على العلبة.

ـ آه، أيّتها الساحرة القذرة! انظري إلى هذا الجمال! لا بدّ أنّها تساوي ثروة. من أين سرقتها؟

ردّت جميلة منهكة:

ـ كانت هديّة.

فسأل وهو يضع الماسة في جيبه:

ـ آه، نعم؟ أتتوقّعين أن أصدّقك؟ هيّا. استديري. سنصعد الآن. أنت في المقدّمة. وبلا حيل.

ما إن تحرّكت جميلة لتتّجه نحو الدرج حتى ضربها بأخمص البندقيّة، فمالت وترنّحت واصطدم جبينها بدرجة من درجات السلّم المعدنيّة، وغابت عن وعيها، وبات العالم بلون الدم.

ثابت إلى رشدها بعد مرور ساعات، رأسها يدور ومعدتها

تتقلّب، والألم في صدغيها موجعًا أشدّ الوجع، فلم تتجرّأ على فتح عينيها. لبثت على الأرض بضع دقائق تئنّ وتتألّم مثل هرّة عمياء، ثم نهضت شيئًا فشيئًا، في بطء شديد، منتظرة كي تعتاد عيناها الظلمة.

عثرت على شفرة، فقطعت الحبل من حول معصميها. كانت الفوضى تضرب أطنابها في أرجاء القبو، وكأنّ جيشًا هاجمه وسلبه من محتوياته. وشاهدت علبة عرق اللؤلؤ على الطاولة. لم تسنح لها الفرصة لتقصّ على المهرّب أسطورة الماسة. كانت الماسة ملعونة، فلا يمكن إلّا تقديمها أو تسلّمها على أنّها هديّة. لذلك لا يمكن مصادرتها، ولا يمكن أخذها عنوة، كما لا يمكن بيعها.

صعدت الدرج تجفل مع كلّ درجة ترتقيها. ولمّا وصلت الطابق الأعلى، شاهدت الباب الرئيس مفتوحًا، الوادي صامتًا وهادئًا، يخلو من العواصف. وبدأ كلّ شيء يثير ذعرها وهلعها على حين بغتة. فالأرض التي رعتها وحمتها طوال هذه السنين بدت لها محتشدة بالعقارب والأفاعي والنباتات السامّة والمتطفّلين الأشرار... مصائد نُصبت لها. فبدأت تبكي، وتصغي لنفسها وهي تولول وكأنّها تسترق السمع إلى غريب، تجهش بالبكاء في قوّة وعنف على النحو الذي يجهش به شخص ما نسي كيف يبكي وتذكّر فجأة الآن كيف يبكي. ومضى بقيّة النهار في بطء شديد، يثير الألم والعذاب. لم تتجرّأ على الخروج من البيت. ولم تؤدّ صلاتها. ولم تأكل طعامها، بل جلست على الأريكة ترشف الماء من كوب وضعتها فوق حجرها، لا تحسّ بأيّ شيء من حولها.

ثم صكّت أسماعها بعض الأصوات. رجال. جياد. كلاب.

مسحت عينيها براحتي كفّيها، فكانت لمسة أصابعها الخشنة مؤلمة على بشرة وجهها. وفكّرت أنّه لا بدَّ قد عاد رفقة أصدقائه.

ماذا يريد أكثر من ذلك؟ جسدها؟ حياتها؟ لم تستطع العثور على بندقيّتها. لقد أخذها منها أيضًا. وأمسكت بخنجر ولكن يديها ترتعشان ارتعاشًا قويًّا جعلها تدرك أنّها لن تمتلك القوّة الكامنة لاستخدامه، ولهذا أعادته إلى مكانه، واتّجهت نحو الباب موطّنة العزم على مواجهة قدرها.

قدم أربعة رجال على جيادهم وقت الغسق، ولكن واحدًا منهم لا أكثر هو الذي وثب من فوق جواده واقترب منها، حذاؤه الثقيل الطويل الرقبة يسحق ما تحته وكأنّه يسير وسط طبقة سميكة من الوحل. وسرعان ما استدلّت جميلة على زعيم المهرّبين، الرجل الذي أنجبت زوجته طفلاً ونصف الطفل. وهو الرجل نفسه الذي ترك في منزلها المهرّب الجريح وتسبّب لها في كلّ هذا الشقاء وهذه التعاسة.

ـ أختي جميلة . . . أيمكنني الدخول؟

تنحّت جميلة جانبًا من دون أن تتفوّه بكلمة واحدة وفسحت له الطريق كي يدخل.

شاهد الكدمة على جبينها وعينيها المتورّمتين.

وقال:

ـ لن أمكث طويلاً، فقد تسبّبنا في ألم كبير لك. لقد حضرت لأعتذر منك عمّا حدث. كان رجلاً لا يستحقّ منكِ أيّ شفقة.

أدركتْ أنّ الواجب يقتضي منها أن تقول شيئًا ما، لكنّ

الكلمات لم تصل شفتيها.

وقال:

ـ لقد أحضرت لك بعض الأشياء. هديّتي لك.

أخرج من جيب سرواله كيسين من الحرير يفتحان ويغلقان بخيط يجذب إلى الجانب، أحدهما أحمر وثانيهما أسود. ثم مدَّ يديه إلى يديها وأمسك بهما برهة وجيزة وهو يحدّق إلى عينيها. ثم وضع الكيس الأحمر في راحة كفّها اليسرى، والكيس الأسود في راحة كفّها اليمنى.

ولمّا وجدت نفسها أخيرًا قادرة على الكلام، سألت:

ـ أين هو الآن؟

ـ لن يسبّب لك أيّ متاعب بعد الآن. صدّقيني.

ـ ما اسمه؟ لا أعرف حتى اسمه.

فقال قبل أن يعود أدراجه إلى الوراء نحو جواده:

ـ كان اسمه هارون. هذا ما كتبناه على شاهد قبره!

استغرقت جميلة بعض الوقت كي تدرك العبارة، وعندما أدركتها شهقت. ثم فتحت الكيس الأحمر، مشدوهة مذعورة، فوجدت داخله المحظيّة الكهرمانيّة اللون تخلب الألباب. ثم فتحت الكيس الثاني، لتجد فيه أذنين مروّعتين، داميتين. عندئذٍ أدركت جميلة أنّ الكيسين صُنعا من مادّة واحدة، أحدهما تحوّل لونه إلى الأسود بسبب الدماء. أخيرًا، وعلى الرّغم من أنّ هارون سار في حقل ألغام، إلّا أنّه دُفن وبعض أعضائه مفقودة.

اندفعت جميلة من وراء الزعيم مدفوعة بدافع ما، ومرَّت بها

لحظة من الزمان خشيت فيها أن يكون قد اختفى وتحوّل إلى شبح آخر من الأشباح التي تتخيّلها في حياتها. ولكنّها لاحظت الجياد الأربعة تهبط الطريق كثير الأخاديد، وقالت في صوت مختنق:

ـ انتظرني.

فما كان منه إلّا أن جذب المهماز، فحذا رجاله حذوه.

ولمّا وصلت إليهم، تردّدت، لا تعرف كيف تعبّر عمّا يدور في رأسها. ثم دفعت خصلة من الشعر تحت وشاحها وتوسّلت:

ـ أرجوك. إنّني في حاجة إلى مساعدتك.

ـ أخبريني.

ـ إنّني أريد الذهاب إلى أختي في إنكلترا. إنّها في ورطة، وهي في حاجة إليَّ.

تبادل الرجال النظرات، ولكنّها مضت في الكلام:

ـ لا أملك جواز سفر ولا مالاً. لا شيء. لا بدّ لي من السفر بحسب طريقتك، بصورة غير شرعيّة.

ثم فتحت يدها، واستأنفت قائلة:

ـ ولكنّني أملك المحظيّة الكهرمانيّة، وفي إمكاني أن أهبها لمن أشاء، وقد اخترتك أنت. وستكون رجلاً ثريًّا ولن تجلب عليك النحس. ثق بي.

ـ أتريدين منحي الماسة لقاء ترتيب رحلة إلى الخارج؟

ـ نعم.

عقد زعيم المهرّبين حاجبيه وجذب طرفي شاربه، مستغرقًا في التفكير، وقال:

ـ ليس هذا سهلاً، ولا يشبه عبور الحدود إلى سوريا.

ـ تناهى إلى سمعي أنّ ثمّة رجالاً ينظّمون مثل هذه الرحلات، لكنّني لا أستطيع العثور عليهم. أمّا أنت فتستطيع ذلك. هل تتذكّر الابن الأصغر لأحمد؟ ألم يسافر بتلك الطريقة؟ إلى أيّ بلد رحل؟ إلى سويسرا؟ لقد ساعدوه على الاختباء في شاحنة. صحيح؟ لقد أفلح في سفره.

ما إن تفوّهت جميلة حتى بدأت الكلمات تتدفّق مثل نهر، وكانت تتكلّم من صميم فؤادها، بكلّ حماسة وإلحاح، يدفعها في ذلك دافع ضروري لم تدركه، ولعلّها لا تستطيع السيطرة عليه.

راقبها الزعيم من دون حراك، ولكن جميلة سرعان ما شاهدت في عينيه الغائرتين مختلف المشاعر: قلق وتفهّم وضياع وإعجاب غامض. وقال:

ـ سأبذل قصارى جهدي. وإذا شاء الله أن يحقّق ذلك، فإنّه سوف يتحقّق.

داخت جميلة وارتعشت وسَرَت البرودة في أوصالها وهي ترفع يديها وتفتح راحتيهما. فسقط آخر ما تبقّى من شعاع الشمس الآذنة بالمغيب على الماسة، وقالت:

ـ خذها، وليباركك الله.

أشاح الزعيم بوجهه جانبًا وكأنّه يكلّم الريح الآن، وقال غلطة:

ـ احتفظي بها، فأنت جديرة بها يا جميلة.

ثم أومأ برأسه إيماءة صغيرة ورفس جانبيْ جواده من دون أن

ينبس بكلمة أخرى، فلحق به رجاله. راقبتهم جميلة وهم يبتعدون، يحيط بها الغبار الذي انبعث من حوافر الخيل وكأنّه ذكرى تطاردها.

* * *

سجن شروزبيري ١٩٩١

عندما أرجع من الحبس الانفرادي أجد شخصًا آخر في سرير تريبي. بهذه السرعة. أعتقد أنّني كنت أتوقّع إلى حدٍّ ما أنّ بعض الوقت سيمضي قبل مثل هذا العمل، ولكن سجن شروزبيري مملوء حتى الاكتظاظ. وفي كلّ يوم، ثمّة نزلاء جدد. يذكّرني نظام السجن بالمصنع الذي كان يشتغل فيه أبي. المحكومون يأتون إلى السجن وكأنّهم قطع بسكويت من فوق حزام ناقل. السجّانون يتولّون مهمّة تنظيمهم وحفظهم وقفل الأبواب من ورائهم، جماعات جماعات. المكان يحتشد بهم تمامًا، حتى لم يعد ثمّة مكان للحداد على أيّ فرد.

يبدو رفيقي في الزنزانة لا بأس به من أوّل وهلة، لا يوحي بأيّ ضرر. لا أسأله عن سبب وجوده في هذا المكان، ولا يتطوّع هو شخصيًّا للحديث عن ذلك. أنت لا تثير مثل هذه القضايا. رجل نحيل البنية، صغيرها، عالي الجبين، أخرق الفكّ، تعوزه الرشاقة، وجهه واضح المعالم. ينعكس الضوء المنبعث من الأعلى على شعر رأسه، وللوهلة الأولى، تجذبني رقّة مشاعره.

يقول وهو ينحني انحناءة خفيفة:

ـ اسمي زيشان.

ثم يتوقّف عن الكلام، وكأنّه ينتظرني كي أعرّفه إلى نفسي، لكنّني أشبك ذراعيَّ على صدري وأعبس في وجهه، صامتًا.

ثم يقول:

ـ زيشان سعيد بالتعرّف إليك.

يا له من كلام مضحك. إنكليزيّته ركيكة. أظنّه في سنّ الأربعين، من الشرق الأقصى، أسمر البشرة، متوسّط الطول. يحاول أن يتكلّم قليلاً، لكنّني لا أشجّعه. يستحسن رسم خطّ يفصل بيننا منذ الآن. لو كان غيره في محلّه لتخلّى من فوره عن الكلام معي. سوف يساوره القلق بشأن صحّة ما سمعه عنّي من أمور، وبشأن استطاعته النوم نومًا آمنًا في هذه الليلة، وفي كلّ ليلة على مدى الأشهر القليلة القادمة. لكن يبدو أنّ زيشان مرتاح. وبعد أن لبثت صامتًا طويلاً، حسمت أمري على أن أفصح له عن شيء يفكّر فيه.

أقول له:

ـ توفي الرجل الذي كان ينام فوق ذلك السرير.

يقول زيشان:

ـ آه، أسمع ذلك وأسمع أيضًا أنّكما صديقان وفيّان. لا بدَّ أنّ وفاته صعبت عليك. آسف جدًّا، جدًّا. تقبّل اعتذاري.

ـ أتعني تعازيك؟

ـ صحيح.

أعود بخفّي حنين. الشفقة تفاجئني باستمرار. لا أعرف ماذا أفعل بها. فأقول له:

ـ أنا لا يهمّني من أنت، ولا ما هو اسمك. وسأخبرك بالقواعد السارية في هذا المكان، وكلّما تعلّمتها على نحو أسرع، كان ذلك أفضل لك. القاعدة الأولى: لا تقتحم أبدًا المكان المخصّص لي. القاعدة الثانية: لا تطأ على أصابع قدمي. القاعدة الثالثة: لا تزعجني. واضح؟

تطرف عيناه مرتبكًا. فيشيح بنظره عنّي، وينظر بعينيه الصغيرتين المائلتين إلى الجدار، ومن الجدار إليَّ ثانيّة. ويقول:

ـ واضح لزيشان.

وسرعان ما نسمع الأصوات. وقت فتح الزنزانات صباحًا. وتفتح أبواب الزنازين على مصارعها. نلتزم الصمت، منتظرين التعداد والتدافع والعدّ وسريعًا.

يظهر الضابط ماك لوخلين للعيان. ثمّة ضماد يلفّ أذنه اليسرى. نتبادل أنا وهو النظرات الثاقبة. لم يغفر لي التهامي رسالة تريبي، ولم أغفر له زيادة توتّره أعصابي. لم يغفر لي عضَّ أذنه، ولم أغفر له إرساله إيّاي إلى الحبس الانفرادي. أنا وهو متعادلان وفي المربّع الأوّل من جديد، ولكنّنا أكثر حدّة.

يقول الضابط ماك لوخلين:

ـ إنّني أراقبك. غلطة واحدة أخرى وسوف ألحق بك هزيمة ساحقة.

أقضم جوانب لساني ولا أنطق بكلمة. أتنفّس تنفّسًا عميقًا كي أحافظ على توازني. يقف قريبًا جدًّا منّي فأرى الشعيرات في منخريه. هذه المسافة جيّدة. يمكنني أن أسدّد ضربة لأنفه برأسي. زاوية مثاليّة. لكن، يا للأسف، تركت الفرصة تفوتني.

عندما أصبحنا منفردين، يحدّق زيشان إليَّ، ملؤه حبّ الاستطلاع.

ـ لِمَ هو غاضب منك؟

ـ لأنّه فأر يتظاهر أنّه رجل.

يضحك زيشان كأنّه يسمع أفضل نكتة.

ـ الرجل ـ الفأر. تعبير يعجبني.

ثم يستغرق في التفكير.

ـ ثمّة أيضًا الرجل ـ السمكة والرجل ـ الطائر والرجل الأفعى والرجل الفيل. لا يوجد سوى عدد قليل من الرجال ـ البشر في هذا العالم.

ليست لديَّ فكرة عمَّا يقول. ثمّة مسحة غريبة تحيط بهذا الرجل لكنّني لا أعرف ما هي. ليس سهلاً ثنيه عن مراميه، كما أنّ ابتسامته تؤرقني. أوشك أن أخبره أن يبعدها عن وجهه عندما يقول:

ـ ليس سهلاً الشجار دائمًا.

أقول مفكّرًا في السؤال:

ـ ماذا؟ أتسألني إن كان الشجار صعبًا طوال الوقت؟

ـ نعم، نعم. أسألك. شجار، شجار، ألا تتعب منه؟

أحملق في وجهه ذاهلاً، لكن يبدو أنّه لن يتوقّف، ويبدو صريحًا، محبًّا للاستطلاع. وأسأله:

ـ من أين أنت؟

ـ آه.

ولكنّه يمسك عن الكلام، وكأنّني طرحت عليه أحجية لا سبيل إلى حلّها، ثم يمضي قائلاً:

ـ أوّلاً، أنا وُلدت في بروناي.

ـ وأين تقع بحقّ الجحيم؟

يبدو أنّني ألحقت به إهانة، وهو ما لاح على وجهه. يقول:

ـ بروناي دار السلام. جزيرة بورنيو. نحن مستعمرة بريطانيّة. ثم نالت بروناي استقلالها.

ـ حسناً، يبدو أنّ موظّفي الملكة لم يؤدّوا واجبهم أداءً حسناً في تعليمكم اللغة الإنكليزيّة. هه؟

ولكن زيشان يقول متجاهلاً ملاحظتي.

ـ إنّني أتعلّم أشياء جديدة في كلّ يوم. زيشان تلميذ شاطر.

أسخر منه. ما زلت لم أحسم أمري إن كان يثيرني أو أنّه معتوه. وأسأله:

ـ قلت لي: أوّلاً إنّك وُلدت في بروناي. وما معنى هذا؟

يشرق وجهه مبتسمًا، كاشفًا عن أسنانه ـ الصغيرة والضيّقة والمرقّطة والشبيهة بالرزّ الجافّ.

ويكرّر زيشان:

ـ أوّلاً، وُلدت في بروناي. ثانيًا، وُلدت في العالم كلّه. لهذا، فأنا أنتمي إلى كلّ الأماكن. العالم هو بيتي.

وفجأة ينهار.

ـ آه، تبًّا لك. لا تقل لي إنّك واحدٌ من أولئك الصليبيين. هل أنت إنسان مزعج؟

ـ ماذا؟

ـ سؤال: هل أنت عضو في جمعيّة أو ما أشبه ذلك؟

لا يفهم، ويبدو هلوعًا لحظة من الزمان.

ـ لأنّني أخبرك أنّني لا أريد أن يعظني أيّ شخص عن الطريق القويم. لقد سئمت وتعبت من كلّ ذلك الهراء. يستحسن بك أن تخرج من علبة الصابون.

فيردّد من دون أن يفهم:

ـ علبة صابون؟

ـ أعني هل أنت متطرّف؟

ـ متطرّف؟

ويشرق وجه زيشان، سعيدًا لأنّه فهم أخيرًا. لكن ملامح الجدّ بدت على محيّاه.

ـ المتطرّف يقول إنّ الناس مخطئون أجمعين. أنا على حقّ. يقول زيشان إنّ الناس على صواب كلّهم، وأنا مخطئ. فكيف يمكن أن أكون متطرّفًا.

ـ لا بأس.

يمكنني أن أوافق على ذلك، ولكن فكرة جديدة استبدّت بي:

ـ إذا قلت إنّك من كلّ مكان، فما هو دينك إذًا؟

فيقول:

ـ الحبّ هو ديانتي.

أقلّب عينيّ:

ـ لم أسمع بمثل هذا الكلام.

يبدو محتارًا برهة من الزمان.

ـ الأذن تسمع ما يمكنها سماعه. أصوات كثيرة في هذا العالم لا نسمعها.

ـ هل أنت إذًا بوذي أم يهودي أم مسلم أم نصراني؟ ما أنت؟

فيقول:

ـ أي، أي، أي.

ثم يضرب صدره.

ـ الكون كلّه في إنسان واحد.

ـ وذلك الإنسان هو أنت؟

فيقول مؤكّدًا على الكلمة الأخيرة:

ـ ذلك الإنسان هو أنت.

حسنًا. هذا يكفيني. انتهت اللعبة. ها هو الآن يقودني إلى الطريق الخطأ. أنا لا يروقني الناس الذين يعتقدون أنّهم أقوم الناس، الذين يظنّون أنّ لديهم إجابة عن كلّ شيء.

ـ الكون؟ هه! سأقول لك ما الذي يحتويه: العدوان والوحشيّة والفساد والإرهاب...

ثم أضيف:

ـ والقتل.

يقول زيشان كأنّه لم يسمع من قبل أيّ كلمة من تلك الكلمات:

ـ آه.

فيغمض عينيه. وفي لحظة من الزمان يتولّد لديّ الانطباع أنّه سوف يأوي إلى السرير لينام. ولكنّه سرعان ما يبدأ الكلام في صوت رائق:

ـ انظر إلى الطبيعة، فترى الحيوانات تفتك بالحيوانات. كبار البعوض يلتهم صغار البعوض. الذئب يأكل الحمل. آه. سفك دماء كثيرة. ولكن في الطبيعة، نجد الحيوان يحمي الحيوان. الأسماك تسبح معًا. والطيور تطير أسرابًا.

ـ لأنّ أسماك القرش والصقور منتشرة في كلّ مكان. وإذا ما بقيت رفقة الجماعة فثمّة فرصة للنجاة.

ـ المخلوقات تهتمّ بالمخلوقات اهتمامًا كبيرًا.

ـ نعم. يا له من هراء جميل.

ويفتح عينيه.

ـ ليس زيشان هراءً.

ـ حسنًا، يؤسفني أن أعلن عن نبأ حزين. الطبيعة كلّها في حالة حرب. والشيء نفسه ينطبق على هذا المكان. الشيء نفسه في كلّ مكان. إنّه سباق جرذان.

يميل إلى أمام وينظر شزرًا إليَّ:

ـ انسجام في كلّ مكان. . .

يقول ويتفوّه بكلمة «انسجام» harmony وكأنّه يقول howmany. ثم يسترسل في الكلام:

ـ الشيء نفسه هنا، لكنّ السؤال الأهمّ هو: هل ثمّة انسجام داخلك؟

لعلّ سؤاله هو السؤال الصحيح على أيّة حال. لا أملك فكرة عن عدد الأشخاص الكامنين في أعماقي.

أقول:

ـ لا بأس. إذا كان كلّ شيء يعني الانسجام المقيت، وإذا كان الشرّ يوازي الخير، فهذا يعني أنّ لكلّ امرئ ما شاء له من الأفعال، يفعلها كما يريد. ما الفرق؟

ـ لا. ليس الأمر كذلك. إنّك لا تستطيع أن تفعل ما تريد، بل لا تفعل إلّا ما يقدّره الله لك. لديّ عناصر. ولديك عناصر. العنصر الأكبر عند زيشان هو الماء. أمّا عندك فربّما هو النار. نعم. نعم. أظنّك نارًا. فإذا لم يكن ثمّة انسجام داخل المرء، فإنّه يكون غاضبًا على الدوام. مخاصمًا على الدوام. يبعث على الشفقة. حادّ اللسان كالسهم. الكون غابة كما قلت. وفي الغابة الكبيرة، أصنع حديقتي الخاصّة بي.

ـ أيّ حديقة لعينة تتحدّث عنها؟

يقول زيشان وكأنّه يكتب رسالة لي:

ـ صديقي العزيز، الغضب نمر. فعندما تشاهد نمرًا تفكّر: آه، يا له من حيوان عظيم. أريد نمرًا. ولكنّك لا تستطيع تدجينه. لا أحد يستطيع، لأنّ النمر سيأكلك.

ـ عليك أن تنسى موضوع النمور الغاضبة، فنحن لا نتعلّم أيّ شيء منها، بل نتعلّم من البشر، وهذا أمر جميل. نتعلّم من الاختلاف وليس من التشابه.

ـ الأنا تشبه النسر. طير كاسر. النسر يقول: طِرْ معي

وستصبح إنسانًا قويًا. لكن تلك كذبة. إنّها حيلة. إذا كانت الأنا الخاصّة بك قويّة فهذا يعني أنّك ضعيف. وإذا كانت الأنا ضعيفة، فأنت قوي.

يتحدّث في بطء ولكن في ثقة. يلتقط كلماته في عناية، وكأنّها زهور من زجاج. وعندما يفرغ من كلامه أقول:

ـ شيء واحد أفكّر فيه لا غير...

ـ ما هو.

ـ لماذا لم يحبسوك في جناح المجانين.

ـ ما هذا؟

أؤشّر بسبّابتين على أذني مديرًا إيّاها من حولها، فيفهم هذه الإشارة المتعارف عليها عالميًّا من حيث دلالتها على الجنون. فيضحك، ضحكة تنمّ عن بهجة وسعادة ويقول:

ـ نعم، نعم، صحيح. إنّهم يقولون إنّ زيشان أصيب بمسّ من الجنون إلى حدٍّ ما.

* * *

حضرت الشرطة في ذلك اليوم إلى منزل كاتي، فأسرعت بالخروج من الباب الخلفي. كنت محظوظًا، سرقت درّاجة هوائيّة وانطلقت بها بعيدًا عن حيّ هاكني بأسرع ما يمكنني، وبعدها ركبت مجّانًا. فقد أقلّني طالبان فرنسيّان يتكلّمان بلهجة ثقيلة، وكانا فرحين فرحًا شديدًا. لم يسبق لي أن التقيت أشخاصًا مثليين، بل لم ترقني فكرة المثليين أصلاً. غير أنّني لم أكن في موضع يسمح لي أن أحكم عليهما. لاحظا حالتي الشقيّة وشعرا بالورطة التي أنا

فيها، فلم يطرحا عليَّ أيّ سؤال. واشتريا لي وجبة غداء، وقدَّما لي السكائر، وأسمعاني شيئًا من موسيقى غريبة.

أوصلني الطالبان إلى بلدة واريك، ولكن قبل أن يمضيا في طريقهما، دخّنّا نحن الثلاثة الماريجوانا خارج القلعة. أتذكّر الآن كيف ضحكنا ضحكًا كاد يصيبنا بالجنون، ولكنّني لا أتذكّر النكتة التي أضحكتنا، هذا إن كانت ثمّة نكتة. وبعد ذلك مضى الاثنان في سبيلهما إلى الشمال.

وعلى حين بغتة بقيت وحدي، وبعد مرور أربعة أيّام، أُلقي القبض عليَّ - فقد قبضوا عليَّ نائمًا في العراء، في أحد المتنزهات. في ذلك الوقت، كنت أتضوّر جوعًا، منهكًا، حتى إنّ اعتقالي بدا راحة لي إلى حدٍّ كبير. وكنت أثناء سير التحقيق هادئًا ومتعاونًا. لم يخبروني أنّها ماتت، إلّا بعد حين من الزمان. وكنت واثقًا أنّ إصابتها لم تكن بليغة. ليست سوى طعنة بخنجر على مقربة من كتفها الأيمن. ما مدى خطورة إصابتها؟ ثم جاء أحد الضبّاط وقال لي:

ـ ألا تعلم؟ لقد قتلتها.

قلت ذاهلاً:

ـ ماذا تعني؟

ـ لقد قتلت والدتك أيّها السافل المريض. كيف ستخرج من تلك الورطة؟

لم أصدّقه، وظننت أنّها خدعة كي يجعلني أعترف. حيلة قديمة من تلك الحيل التي يلجأ إليها رجال الشرطة. ولكنّهم أمسكوا بصحيفة ووضعوها أمامي. ربّما كانت القصاصة نفسها التي

وضعها الضابط ماك لوخان في ملفّي الشخصي. هكذا عرفت أنّ والدتي توفيت.

كنت متلبّد الأحاسيس أثناء المحاكمة. تجمّدت على النحو نفسه يوم كنت فوق الشجرة في يوم ختاني. الصحافة. المصوّرون. جمع من الناس احتشد حاملاً الشعارات المضادّة لي خارج قاعة المحكمة. غرباء تمامًا. وهناك جمع من الناس وقفوا مؤيّدين لي. غرباء تمامًا أيضًا. وشاهدت أخي يونس، واسع العينين، غير مصدّق. في تلك اللحظة صعب عليّ التنفّس، توقّفت رئتاي. فسقطت على الأرض مثل رجل عجوز مجهّز بجهاز التنفّس. ظنّوا أنّها نوبة من نوبات الربو. وكان الطبيب رقيق الحاشية، ففحصني، ولكنّه لم يجد فيَّ شيئًا. ثم جاءني الطبيب النفساني. رجل فظيع. كلّه سوء. فرميت بمنفضة السكائر على رأسه، ولكنّها أخطأته لسوء الحظّ.

في الليلة الأولى التي أمضيتها في الحبس، كنت قد تهاويت على سريري وحدجت السقف بنظراتي. ساعة كاملة. وفكّرت إنْ كان الطبيب النفساني على حقّ. هل ثمّة أشياء مطمورة في أعماقي؟ هل أصابني مسّ من الجنون؟

كان المدّعي العامّ قد قال أثناء المرافعة:

ـ إنّه ليس بمجنون. هذا الشابّ في كلّ قواه العقليّة. ويستحقّ الإعدام.

في تلك الليلة التي أعقبتها، لم يغمض لي جفن. بحسب تجربتي، كلّما كان نومك سيّئًا، ازددت نزقًا وسوء طبع. وهكذا سارت الأمور. فشعرت في السنوات الأولى في الحبس وكأنّها

كابوس لا نهاية له. وكنت أيضًا كابوسًا للآخرين. جعلت أيّامهم شاقّة، صعبة. وبعد مضي مدّة من الزمان، مرّت بي ليلة أتذكّرها جيّدًا. كانت السماء تمطر خارج السجن. عاصفة قويّة ورعد وبرق وما أشبه. ثم توقّف سقوط المطر، واستقرّ صمت كان وقعه أشدّ وأقسى. في تلك اللحظة، ساورني شعور هو الأشدّ غرابة. شعرت كأنّ أمّي موجودة معي في هذا المكان. لم تكن مستاءة أو منزعجة قطّ. فهي قد تجاوزت مثل هذه الصفات.

وبدأتُ أجهش بالبكاء. بكيت، وضاقت أنفاسي، وآلمتني. وانهمرت من عينيّ كلّ تلك الدموع التي لم أستطع أن أذرفها طوال حياتي.

* * *

بعد أن أنفقت أسبوعين رفقة زيشان، أجدني وقد خرجت عن إحدى قواعدي. فسألته:

ـ ما الذي أتى برجل مثلك إلى هذا المكان؟

بانت عليه ملامح الخيبة وهو يقول:

ـ آه، يقولون إنّ زيشان اقترف جريمة فظيعة. لكن لا يوجد دليل. لكن ثمّة رجلاً استمعت إليه المحكمة لأنّه يتحدّر من أسرة معروفة. يقول إنّه شاهدني أسرق حقيبة يد، وألحق الأذى بسيّدة عجوز وأنّها في غيبوبة في المستشفى.

ـ هل هاجمت سيّدة عجوز من أجل النقود؟

فيقول:

ـ لا يقترف زيشان مثل هذا العمل. وعندما تفتح السيّدة عينيها

فسوف تقول الحقيقة. إنّني أنتظر، وأدعو.

ـ حسنًا، دعني أفكّر إن كنت قد فهمت فهمًا صحيحًا. أنت تقول إنّك في السجن بسبب جريمة اقترفتها؟ هل تتوقّع منّي أن أصدّقك؟

ينظر إليَّ نظرة غريبة وكأنّه يفكّر في أسلوب لذكر نبأ عاجل. ثم يقول:

ـ إنّني أفكّر عن سبب حدوث هذا الأمر منذ اليوم الذي جاءت الشرطة فيه إلى منزلي. لا شيء يحدث عبثًا. لله غاية. ما هي؟ أطرح السؤال من دون جواب، ولكنّني أفهم الآن.

ـ بماذا تفكّر؟

ـ استمع! أنا لا أعرف لماذا وضعني الله في السجن. دائمًا أردّد: لماذا؟ لماذا؟ ثم ألتقيك، فيروح عنّي الحزن.

ـ إنْ لم تتوقّف عن هذا الهذيان فسوف أجعلك حزينًا حقًّا.

لكنّه لا يبدو خائفًا البتّة.

ـ أنا أفهم الآن السبب في وجود زيشان هنا. شكرًا لك.

ثم يتوقّف هنيهة، ويتنهّد.

ـ لو أتيتَ إليَّ لكان الأمر أسهل. لكنّك لم تأت. لهذا اضطررتُ إلى المجيء إليك. وهكذا يصبح زيشان سجينًا. ثمّة سبب لكلّ ذلك.

ـ هراء! أتريد أن تقول إنّك بريء من أيّة تهمة، وإنّ قوّة كونيّة هي التي أرسلتك إليَّ؟

ـ نعم. أنت على حقّ الآن.

يشرق وجهه مبتسمًا، سعيدًا مثل طفل يملك بالونًا جديدًا.

الرجل في أشدّ حالات الجنون، طار عقله. حالته تزداد سوءًا بمرور كلّ يوم، إلّا إذا كان يتعمّد ذلك، ولكنّني أفطن لحالته فجأة. فأمسك به من قبته وأدفعه في اتّجاه الجدار.

ـ هل وضعك الضابط ماك لوخلين هنا معي؟ هل كانت تلك فكرته لتلقيني درسًا؟ تريد أن تصيبني بالجنون. صحيح؟ هل هذه هي الخطّة؟

يرفع رأسه إلى أعلى وكأنّني أسدّد له لطمة.

ـ أقول لك إنّ الله هو الذي أرسلني إلى هذا المكان، وأنت تقول ماك لوخلين. صاحبك ماك لوخلين صغير ولكنّ الله عظيم.

أتركه وشأنه وأفرك صدغيّ ـ إنّه بداية صداع. أسأله:

ـ كم عمرك؟

يخفض من بصره ويقول خجلاً:

ـ سبعة وستّون عامًا.

ـ لا تمزح.

ـ إنّني صادق.

ـ لا تبدو في السابعة والستّين.

فيقول:

ـ شكرًا لك. زيشان يبدو لنفسه!

ـ هل تعني أنّ زيشان يعتني بنفسه؟

ـ نعم، نعم. يعتني.

مرّة أخرى يبدأ بالهذيان:

ـ جئت إليك. لم تكن ثمّة فائدة تُرجى منّي مؤّخرًا، لهذا أرسلني الله إلى هنا لأنّ الله لا يحبّ الكسل. علينا أن نعمل كلّنا في جدّ.

ـ أيّ عمل؟

ـ يقول المتصوّفة . . .

ـ ما هذا الكلام؟

ـ المتصوّف هو شخص ينظر إلى أعماق القلب، ويعتقد أنّ الناس أجمعين مرتبطون أحدهم بالآخر. الاختلاف ظاهري لا أكثر، في البشرة والثياب وجواز السفر. لكن قلب البشر واحد. في كلّ مكان.

ـ هنا قد عدنا من جديد. كلام فارغ.

يبتسم، إمّا لأنّه لا يفقه ما أقول أو لأنّه يريد أن يتجاهلني.

ـ المتصوّفة يعتقدون أنّنا عندما نموت ونبعث من جديد، فإنّ الله سوف يطرح علينا أربعة أسئلة: كيف أنفقت وقتك؟ من أين حصلت على مالك؟ كيف أنفقت أيّام شبابك؟ أمّا السؤال الرابع فهو غاية في الأهمّيّة: ماذا فعلت بالعلم الذي منحتك إيّاه؟ هل تفهم؟

ـ لا.

فيقول:

ـ أنا عالم. أنا معلّم.

ـ أتذكّر أنّك قلت إنّك طالب.

ـ كلّ معلّم هو طالب.

ـ آه، امنحني استراحة.

فيردّد في هدوء:

ـ أنا معلّم وأنا هنا لأمنحك من علمي.

سبق لي أن عرفت كلّ أنواع الرجال في هذا المكان، بين السجّانين وزملائي من النزلاء على حدٍّ سواء: المضطربون عقليًّا والمجانين وأكثر الرجال حزنًا وأضعفهم وأحقرهم، وفي بعض الأحيان، كلّ هؤلاء يتمثّلون في رجل واحد. ولكن لم يكن ولن يكون هناك أيّ شيء في شروزبيري يشبه زيشان. وُلد في بروناي ونشأ وترعرع في العالم. لا أعرف ماذا أفعل به.

اسكندر طبرق

* * *

أســماء

لندن، مايس ١٩٧٨

جاء العمّ طارق والعمّة ميرال لزيارتنا رفقة أطفالهما الأربعة. وبعد تناول العشاء اجتمعنا من حول التلفاز لمشاهدة مسلسل كورونيشن ستريت ونحن نحتسي الشاي ونقضم الفاكهة. كان الحديث الدائر في الحجرة قليلاً باستثناء بعض الملاحظات العابرة التي توجّه إلى الشخصيّات الظاهرة على الشاشة. وكان الجالسون يتطلّعون إلى ما سيحدث بعد أن أفلحت سوزي في إغواء ستيف وضبطتهم غايل متلبّسين في وضع عاطفي حميم. وكان العمّ طارق يرى أنّ العلاقة لن تدوم طويلاً، ووافقته الرأي العمّة ميرال، لكن لم يأخذ أحد آخر كلامها على محمل الجدّ لأنّها كانت دائمًا لا تفهم ما الموضوع. واضطررت إلى ترجمة المشاهد الأساسيّة لها لأنّ إنكليزيّتها لا تمكّنها من متابعة الحبكة. وكنت أحيانًا أُضيف بعض العبارات من عندي لتعزيز الخطّ الدرامي.

وبعد أن انصرف الضيوف، وأوى كلّ فرد إلى سريره، عدت

من جديد إلى الحمّام، أنظر إلى نفسي في المرآة عندما أيقظني طرْق على باب من أحلام يقظتي.

فقلت من ثقب المفتاح:

ـ مشغول!

لكن طرْقة أخرى تناهت إلى السمع، وكانت خجولة ولكن فيها شيء من الإلحاح. انتابني القلق وأنا أفتح الباب لأجد يونس واقفًا في منامة بيتربان، وهتف:

ـ آه، يا إلٰهي! ماذا فعلت في نفسِك؟

لم أتذكّر إلَّا في هذه اللحظة أنّني وضعت لي لحية صغيرة على وجهي. فقلت وأنا أُدرك أنّ خير وسيلة للدفاع هي الهجوم الجيّد:

ـ وماذا تفعل أنت هنا في هذه الساعة؟

ـ إنّني مضطر إلى التبوّل.

وهنا انتقلت إلى الكلام باللغة التركيّة بعد أن شاهدت الملاءة مطويّة من تحت إبطه.

ـ هل أنت متأكّد أنّك مضطر إلى التبوّل؟ يبدو لي أنّك قد تبوّلت قبل قليل.

أشاح أخي بوجهه عنّي، وساد صمت قصير، انتظر أثناءه أحدنا الآخر ليقول شيئًا ما، أيّ شيء.

قلت موافقة:

ـ لا بأس. ثانية واحدة لا غير. حسنًا؟

أغلقت الباب وأشعلت الأنوار وأطفأت الشمعة وتفحّصت وجهي مرّة أخرى أمام المرآة. ثم مددت رأسي من وراء الباب وقلت:

ـ دعني أقول لك شيئًا ما. لِمَ لا تترك الملاءة هنا؟ وسأهتمّ أنا بها.

وبعد تردّد لم يستمرّ سوى لحظة، ناولني يونس الملاءة وهو يبتسم ابتسامة تنمّ عن خجل. ملأت الحوض بماء فيه صابون ووضعت فيه الملاءة. توقّعت منه أن يذهب إلى غرفته، ولكنّه فضّل أن ينتظره ويبصبص من وراء الباب الموارب.

ـ هل فرغت يا أختاه؟

ـ تقريبًا. ليس سهلاً أن تغسل في حوض الأطباق.

ثم استأنفت مستفسرة في صوت تعوزه الحيويّة:

ـ ما السبب الذي يدفعك إلى التبوّل في فراشك دائمًا؟

لبث يونس صامتًا.

ـ آه، لا تقلق، فأنا لن أخبر أحدًا.

وجدت لدهشتي البالغة أنّه غير مرتاح، بل على العكس: فقد لاحت على وجهه أمارات الوجوم وخيبة الأمل، وارتعشت شفتاه. فتقدّمت منه خطوة واحدة وأنا أبتسم لعينيه الواسعتين البريئتين ولأذنيه البارزتين، للفتى الذي طالما أحببت.

ـ آسفة يا يونس الصغير، فأنا لا أقصد جرح مشاعرك.

ـ إنّ مشاعري لم تجرح، بل إنّ كلّ ما هناك هو أنّ بالي مشغول بأمور كثيرة في هذه الأيّام.

ـ مثلاً؟

فقال:

ـ لا أستطيع أن أخبرك، فذلك سرّ.

ـ الأسرار تتطلّب الحذر. فأنت ترغب في البوح بها، ولكن ما إن تفعل ذلك حتى تخونك العبارة. مثل الملك ميداس[1]. صحيح؟

ـ ومن هذا؟

وهكذا أخبرته بقصّة الملك الذي كانت له أذنان كبيرتان دفعتاه إلى إخفائهما من تحت قبّعته. فوعده الحلّاق أن لا يبوح بهذا لأيّ شخص، وكان الوحيد من بين الناس الذي يعرف الحكاية. لكنّ الذي كان يدفعه إلى البوح بهذا السرّ كان قويًا جدًّا ممّا جعله يبوح به إلى قصبة، وهي أكثر الكائنات المسالمة التي خطرت بباله. ثم جاء شخص وصنع آلة ناي من القصب وعزف عليها في حفل، فذاع السرّ وانتشر. وفي غضون أيّام قليلة عرف الأهالي أنّ للملك أذني حمار.

قال يونس:

ـ أتعنين أنّني يجب ألّا أخبر أحدًا؟

ـ حسنًا، إذا كان ما أقوله ضروريًا، فإنّني أقول احتفظ بالسرّ لنفسك، إذْ لا يمكنك الوثوق بأيّ شخص، ولو حتى بقصبة.

توقّعت منه إلى حدٍّ ما أن يضحك ولكنّه لم يضحك، بل حدّجني بنظرة حزينة قبل أن يستدير على عقبيه ويتوارى عن الأنظار في الممرّ.

(١) الملك ميداس King Midas: هو ملك فيرجيا الأسطوري الذي طلب من الآلهة أن يتحوّل كلّ شيء يلمسه إلى ذهب؛ فلبّت الآلهة طلبه، ولكن عندما تحوّل طعامه إلى ذهب لمّا لمسه بيده، دعا الآلهة إلى التخلّي عن طلبه القديم. ثم صدر له الأمر بأن يغتسل في مياه نهر باكتولوس، فجرى النهر من بعد ذلك من فوق رمال ذهبيّة (المترجم).

فتمتمت وإنْ كنت أعلم أنّه لن يتمكّن من سماعي.

ـ طابت ليلتك يا عزيزي.

شعرت بانقباض في صدري وأنا واقفة في محلّي، تعلو رغوة الصابون يديَّ. ساورني شكّ. فعندما كنت أحلم أنّني صبيّ وأفكّر في كلّ الأسرار الأخرى، فإنّ أشياء كانت تحدث أمامي من دون أنْ أراها. وسوف أتذكّر في وقت لاحق تلك اللحظة، مدركةً أنّ تلك هي اللحظة التي تتفجّر فيها الحياة الاعتياديّة التي أعرفها وأنّنا بدأنا ننسلّ واحدًا تلو الآخر إلى عالم آخر حيث تحدث أشياء كثيرة بسرعة بالغة. ومنذ ذلك الوقت فكّرت إنْ كانت الأشياء لتبدو مختلفة لو أنّني تصرّفت تصرّفًا آخر في تلك الليلة. لو أنّني تركت أخي يشاطرني سرّه الذي كان ينهشه من الداخل فلربّما، نعم ربّما لا أكثر، استيقظت في وقت مبكر وأصبحت قادرة على تحذير أمّي قبل أن تنعطف الأحداث انعطافًا سيّئًا.

* * *

الصفعــة

لندن، حزيران ١٩٧٨

في هذا السبت بالذات، لم يذهب اسكندر للملاكمة. كما أنّه لم يلتق كاتي، إذْ كانت له ولرفاقه خطط أخرى، فقد غادر المنزل بعد الساعة التاسعة صباحًا بوقت قصير، ولفحت وجهه ريح دافئة. وبدا العالم، وقد فتح ذراعيه له، فدبَّ فيه الإحساس بالحيويّة والانتعاش والاستعداد لكلّ شيء. رفع قبّة سترته إلى أعلى وحافظ على وقع خطواته. كان يؤمن بأنّ طريقة سير الإنسان تكشف الكثير عن شخصيّته ـ عيوبه وفطنته وشجاعته تنعكس كلّها في أسلوب سيره. سار اسكندر إلى أمام مسرعًا قليلاً، معتدل القامة، مرفوع الهامة وكأنّه يقدّر مزايا المارّة استعدادًا لخوض القتال.

كان الصبيان في انتظاره في كهف علاء الدين. أربعتهم جالسون في تثاقل من حول طاولة بلاستيكيّة في الجزء الخلفي من الكهف. ولمّا اقترب اسكندر منهم أومأ برأسه في اتّجاههم. فما كان منهم إلّا أن ردّوا الإيماءة بإيماءة، فلاحظ الاحترام الذي يشعّ

من عيونهم ـ وهو نوع من الاحترام الذي لم يسبق لأبيه أن لاحظه في أيّ شخص وخاصّة بين خلّانه المقامرين، ربّما باستثناء الأيّام التي ربح فيها.

قال اسكندر من دون أن يوجّه كلامه إلى أحدٍ تحديدًا:

ـ مرحبًا. أين أرشد؟

فقال فريد وهو مغربي قصير القامة يتكلّم بصوت هادئ ورقيق:

ـ لم يأتِ بعد.

فقال عزيز مبتسمًا ابتسامة كشفت عن أسنانه المنفرجة:

ـ لعلّه شعر بالخوف والجبن. إنّني لا ألومه بعد أحداث هذا الأسبوع.

كان الصيف قاسيًا. ففي كلّ يوم، كان الحديث يدور عن حادثة في مكان ما. الرجال مُروّعون في الشوارع والنساء يُشتمون والأطفال يُبصق عليهم. وفي الليالي، كانت الحجارة تُرمى على بيوت المهاجرين، والثياب المعلّقة على حبال الغسيل تقطّع إربًا إربًا، أو يرمى روث الكلاب داخل صناديق رسائلهم. لكن أسوأ الأمور حدثت قبل ستّة أيّام.

ففي وقت مبكر من صباح الحادي عشر من شهر حزيران، احتشدت مجموعة من الشبّان حليقي الرأس في نهاية زقاق بريك لين. وبحلول منتصف النهار، تضاعف عددهم، وواصلوا توافدهم إلى المكان سيرًا على الأقدام وبواسطة الدرّاجات والسيّارات والحافلات الصغيرة. جاء بعضهم من أماكن نائية مثل بوتني، ثم

بدأت المسيرة وعلت الهتافات: الجبهة الوطنيّة جبهة رجل أبيض. لكن ممّا يبعث على الاستغراب هو غياب الشرطة عن المكان، حتى عندما بدأ المحتجّون الهجوم على دكاكين المهاجرين وهم يهتفون في صوتٍ عالٍ: «اقتلوا الأوغاد السود» ويحطّمون زجاج السيّارات الأمامي والنوافذ، ملحقين أضرارًا بالملكيّة الخاصّة.

وقال فريد:

ـ هل سمعت ما قاله رجال الشرطة بعد ذلك؟ أطلقوا على الحادث: «غضب عفوي».

انقطع الحديث بدخول علاء الدين مالك المحلّ، الذي كان رجلاً يفتقر إلى التوازن، عريض المنكبّين، في منتصف الخمسينيّات من عمره، إحدى ساقيه أقصر من الأخرى. وكان دائمًا لطيف العبارة مع الآخرين. اقترب من الصبيان مبتسمًا ولكنّه لم يصافح أحدًا سوى اسكندر، وسأله عن أحواله في المدرسة وعن أمّه وعن أحوال دكّان عمّه في هذه الأيّام العصيبة. أسئلة أجاب عنها في احترام وفي اقتضاب أيضًا:

وأخيرًا قال علاء الدين:

ـ ماذا ستأكل الآن؟ لقد انتظر أصدقاؤك مجيئك كي تطلب الطعام.

شعر اسكندر بالسرور لمّا سمع ذلك.

ـ لدينا ضيف قادم. وسوف نطلب الطعام لدى وصوله.

شاهد الجالسون علاء الدين يمضي في سبيله وهو يعرج. أمّا اسكندر، فقد التفت إلى عزيز واستأنف حديثه:

ـ وهل من أخبار أخرى؟

ـ آه، نعم. ثمّة صبي تعرّض للضرب من يوم أمس. بنغالي. وقد عثروا عليه ينزف دمًا على مسافة قريبة من بيت أرشد، ممّا يرفع العدد إلى أربعة خلال شهر واحد!

تلوّى وجه اسكندر وهو يحرّك فكّه، وهنا قال سوني:

ـ أنت تعرف ما الذي يدفعني إلى الجنون؟ هؤلاء العنصريّون الملاعين عندما يقولون إنّهم ليسوا عنصريّين. وهم ليسوا مضطرّين إلى أن يكونوا كذّابين فوق كلّ ذلك!

كان اسمه سلڤاتوري على الرّغم من أنّ الكلّ كانوا ينادونه سوني. كانت أسرته قد انتقلت إلى حيّ هاكني قادمة من إحدى قرى صقلية. وهو يتحدّث الإنكليزيّة في سرعة وبلكنة قويّة تجعلان نصف الأشياء التي يتفوّه بها غالبًا ما تضيع وسط بعضها بعضًا.

ـ متى سيأتي هذا الشخص إذًا؟ هذا الثرثار المشهور!

كان شيكو هو الذي طرح هذا السؤال وهو ينقر بأصابعه من فوق قائمة الطعام. كان والده مغربيًّا وأمّه إسبانيّة.

فقال عزيز:

ـ لا تصفه بهذه الصفة. احترم الرجل. صفه بالخطيب.

ـ لا فرق. أتعرف ما يقولون؟ الأحمق يتكلّم والحكيم يستمع؟ وهذا الرجل دائم الحديث. وما عليك إلّا أن تقوم بعمليّة حسابيّة!

اتّكأ اسكندر في جلسته وقطّب جبينه وشبك ذراعيه، فكانت إشارة غيّرت من الجوّ من حول الطاولة فانقلب من الحديث المرح

إلى تبادل الكلام على نحو جادّ ورزين.

ـ سيصل بعد نصف ساعة. ظننت أنّه يستحسن لو كنّا التقينا وتبادلنا الحديث. الأمور لا تسير على ما يرام. ولسوف نكون أغبياء لولا نتنبّه إلى الكتابات على الجدران.

خفض شيكو من بصره في حين أومأ الآخرون برؤوسهم، وهم متوتّرو الأعصاب.

وقال اسكندر:

ـ إنّهم يريدون طردنا من هذا البلد اللعين. أنت وأنا وهو... العرب. والأتراك والإيطاليّون والجامايكيّون واللبنانيّون والباكستانيّون... هل يا ترى سنجلس ونضحك؟ مثل البطّ اللعين في مدينة الألعاب؟

هذا ما يريد أباؤنا أن نفعله: أن نبتسم وننتظر حتى يقتلونا. لكنّنا لسنا مثل البطّ. صحيح؟

قال شيكو:

ـ لا، لسنا.

ـ انظر، لقد سبق لي أن سمعت هذا الشخص يتكلّم. إنّه جيّد. جيّد حقًّا. لندعه يأتي ويخبرنا بما لديه. وإذا كان لا يروقكم، فإنّه لن يروقكم. انتهينا. ولكنّه على الأقلّ ليس بطّة. نحن نعرف هذا كلّنا.

في هذه اللحظة، فُتح الباب ودخل أرشد، واضعًا يديه في جيبيه. ولمّا شاهد اسكندر الفتاة التي تسير من وراء صديقه، تبدّلت ملامح وجهه:

ـ عجبًا ما الذي تفعله هنا؟

فقال أرشد:

ـ مرحبًا. لا تلمني أيّها الرجل. حاولت أن أوقفها...

نظر اسكندر إلى أسماء وقال:

ـ عودي إلى البيت.

فقالت:

ـ لا. أريد أن أسمع أيضًا.

راقب الصبيان المشادّة بابتسامات يشوبها الحذر.

وقال اسكندر:

ـ لقد سئمت عنادكِ ياسيس. لن أجادلكِ.

ـ حسنًا، لا تجادل إذًا.

ـ أنت تثيرين أعصابي. هذا لا يناسب الفتيات.

ـ ولم لا؟ أتعتقد أنّ هؤلاء الأشقياء حليقي الرؤوس يهاجمون الرجال فحسب؟ أنت على خطأ. إنّهم يهاجمون النساء أيضًا. والفتيات. إذا كنتُ أصلح ضحيّةً، فإنّني أصلح أيضًا للقتال.

فقال عزيز:

ـ إنّها على حقّ.

وقالت أسماء بعد أن لقيتْ تشجيعًا:

ـ آه، هيَّا بربّك يا أبي.

هزَّ اسكندر رأسه وإن كان بقوّة أقلّ هذه المرّة، وقال:

ـ لا بأس. لكنّني لا أريد أن أسمع أيّ شيء منك. ولا كلمة.

فقالت محاولةً ألّا تفسد الفرحة الظاهرة على محيّاها:

ـ نعم. سوف أجلس هنا مثل جثّة.

ثم أضافت في بهجة وحبور:

ـ إنّني أتحرّق شوقًا لمعرفة شكل هذا الرجل، وإنّني واثقة أنّني سأستدلّ عليه مباشرة.

لكن ثبت خطأ هذا الافتراض. فعندها دلف الخطيب الآن إلى المقهى التي امتلأت عن نصفها بالروّاد، لم يستطع أحد من أفراد العصابة الاستدلال عليه باستثناء اسكندر. أمّا الآخرون، فقد توقّعوا أن يروا شخصًا مفتول العضل، مثيرًا للإعجاب، لا يمكن تحديد عمره، يرتدي ثيابًا نصفها تقليدي ونصفها الآخر غريب الشكل، شعره يتطاير في كلّ اتّجاه، عيناه تلمعان مثل الزمرّد. وهكذا، فعندما دخل رجل هزيل البنية في أواسط العشرينيّات من عمره، عاديّ الملامح، كالح البنطال، لم ينظروا إليه ولو ثانية واحدة، إلى أن اقترب منهم وحيَّاهم.

قال اسكندر:

ـ آه، أجلس من فضلك.

وعرَّفه بالحاضرين مستثنيًا من ذلك أسماء. ثم طلب الطعام وكان مؤلّفًا من حمّص وبابا غنّوج وكباب وفلافل... وملأ اسكندر طبق الضيف، وهو أمر بلا معنى لأنّ الرجل أكل مثلما يأكل طائر، فكانت شهيّته الضعيفة سببًا في تواني الحاضرين عن الأكل ـ بمن فيهم سوني الذي كان جائعًا على الدوام، فتوقّف عن تناول طعامه.

وبينما كانوا منهمكين في شرب الشاي، بدأ الخطيب يلقي كلمته. كان صوته واطئًا ولكنّه ارتفع بعد ذلك ارتفاع الموج، متوقّفًا كلّ بضع دقائق ليستأنف الكلام من بعد ذلك وكأنّه يقرأ في كرّاس غير مرئي. تحدّث عن مراحل الرأسماليّة وكيف أنّ البشر اقتربوا من يوم الدينونة: إنّنا كلّنا ننظر من أعلى الجرف. وسنرى كلّنا سقوط هذا النظام. لقد أعطي شبابنا المخدّرات كي لا يشكّوا في صلاحيّة النظام. والسياسيّون في كلّ مكان يديرون نصف عمليّات المخدّرات السرِّيّة في العالم. وما الإيديولوجيّات كلّها إلّا من ابتكارهم لتشويش أذهان الشبّان باستمرار. وما المذاهب إلّا مخدّرات جديدة، حبوب منوّمة تعطى للجماهير.

فقال سوني متوتّرًا لأنّه لم يأكل ما يكفيه:

ـ عمّتي من أنصار حرِّيّة المرأة. شعرها أقصر من شعري وهي ترتدي البنطال على الدوام.

فقال الخطيب ملاحظًا:

ـ النسويّة في نظرنا هي مثل رجل ثلجي في الصحراء. لا ضرورة لها. أتعرف لماذا؟

ـ لأنّها تجعل النساء قبيحات. فهنّ لا يحلقن حتى سيقانهنّ. يا له من أمر كريه.

كتم الصبيان ضحكة في حين قلّبت أسماء عينيها بين الحاضرين. لكنّ اسكندر كان الشخص الوحيد الذي حدّج الخطيب بنظراته، فالتقت عيونهما لقاءً ينمّ عن فهم مشترك، وإحساس مشترك بأنّهما تجاوزا ردود الأفعال الصبيانيّة.

وقال الخطيب:

ـ أودّ أن أقول إنّ هذا الصديق على حقّ لأنّ النسويّة تجعل مظهر النساء يبدو غير طبيعي، ولكن هذه نتيجة وليست سببًا. أمّا أنا فإنّني أسأل عن السبب الذي يجعل النسويّة لا تعني شيئًا لنا.

فأجاب اسكندر:

ـ لأنّها مشكلتهم. إنّها اختراع غربي.

تناهى إلى سمع علاء الدين الكلمات الأخيرة وهو يحمل صينيّة مملوءة بأقداح الشاي، فعقد حاجبيه مرتابًا. وخمّن اسكندر تخمينًا عرّفه علاء الدين عن هذا الخطيب ولم يرقه: إنّ أمثال أولئك الأشخاص يزرعون بذورًا سيّئة وسط الجماعة، فما الذي يفعله في هذا المكان وهو يحشو رؤوس الصبيان بهذه القضايا؟ وهنا لزم الخطيب الصمت وكأنّه أدرك امتعاض علاء الدين، ولم ينبس بكلمة إلى أن قُدّمت المشروبات وتُركوا وشأنهم وحيدين من جديد.

واستأنف الخطيب كلامه وقد التمعت عيناه تقديرًا وإعجابًا:

ـ تمامًا. النسويّة هي ردّهم على مشكلاتهم، غير أنّ هذا الحلّ أعرج. فهل في الإمكان أن نجفّف بحيرة بإسفنجة؟ هكذا هو تأثير النسويّة. فإذا لم يمتلك الغربيّون قيمًا أسريّة ولا يكنّون احترامًا للمرأة، فإنّ مجموعة من الناشطات اللواتي يهتفن في الشوارع بأعلى أصواتهنّ لن يغيّر أيّ شيء.

نخرت أسماء، فرمقها اسكندر من زاوية عينه بنظرة باردة، تنذر بخطر وشيك، فما كان منها إلّا أن غمغمت:

ـ آسفة.

فردَّ عليها اسكندر:

ـ تأدّبي.

وإذ تنبَّه الخطيب لتبادل الكلمات السلمي بينهما، فإنّه تظاهر بعدم الانتباه، ومضى يقول:

ـ الناس مشوَّشون في الغرب، فهم يخلطون السعادة بالحرِّيّة والحرِّيّة بتعدّد الزيجات. أمّا نحن فإنّنا نحترم أمّهاتنا وأخواتنا وزوجاتنا، ولا نرغمهنّ على ارتداء ثياب تشبه ثياب الدمية باربي. إنّها صناعة شاملة: مساحيق التجميل والأزياء ومصمّمو الأحذية. هل سمعتم عن أنوريكسيا نيرفوسا؟

فهزّ الصبيان رؤوسهم.

ـ إنّه الهوس بصورة الجسد. النساء اللواتي يعانين ذلك يمارسن الحمية طوال الوقت. فيلجأن إلى التقيّؤ من بعد تناولهنّ الطعام. وفي كلّ عام، تدخل عشرات النساء في أوروبا والولايات المتّحدة المستشفيات بسبب هذا المرض. بعضهنّ يمتن. عجز في القلب. ولكنّهنّ ما زلن يعتقدن أنهنّ بدينات.

ـ أيّها الأخوة لا تنسوا أنّ الأطفال في آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط يموتون جوعًا، لا يتمكّنون من العثور على لقمة خبز، ولم يذوقوا طعم الحلاوة في حياتهم، على حين أنّ النساء في الغرب يأكلن الحلوى بالشوكولا والبراندي في أرقى المطاعم. أمّا السكّان في العالم الثالث فيتضوّرون جوعًا. وليست مصادفة أنّ الصناعتين الرئيستين في الغرب هما آلة الحرب وآلة الجمال. ويستخدمون آلة الحرب للهجوم والسجن والتعذيب والقتل. ولا تقلّ آلة الجمال عن هذه الآلة شرًّا. ملابس برّاقة ومجلّات أزياء ورجال خنثويّون ونساء

مسترجلات. كلّ شيء مشوّش، وآلة الجمال تسيطر على أدمغتكم.

خيَّم على الطاولة إحساس بالخوف. تفحّصت أسماء أظافرها وهي تكتم شهقة. كانت تتمنّى لو أنّ اسكندر تمكّن من تخفيف الجوّ. لو أنّه ربَّت على ظهر الرجل وأخبره أن يأخذ الأمور ببساطة وأن يجعلهم يغرقون في الضحك. في وسعه ذلك لو شاء، فهو يملك القدرة على ذلك. وفكّرت أنّه يملك ذلك النوع من الجرأة وذلك النمط من الخفّة. ولكنّها عندما رفعت رأسها، لم تكن الأمارات التي ارتسمت على وجه شقيقها هي الأمارات التي كانت تتمنّاها. فسألته:

ـ هل يمكننا أن نطلب شايًا إضافيًّا يا أليكس؟ فأنا ظمآنة بسبب كلّ هذا الحديث.

رنا الخطيب إلى ساعته.

ـ حان الوقت لكي أذهب. يسرّني التعرّف إليكم.

ثم نهض واقفًا والتفت إلى اسكندر، وأضاف:

ـ لماذا تدعوك بالاسم أليكس؟

ـ لا تهتمّ لذلك. إنّها أختي... الكلّ يناديني بهذا الاسم. إنّه، كما تعلم، اسم مصغّر لـ...

لكنّ الخطيب حَمَلَ عليه قائلاً:

ـ ليس أليكس اسمًا مصغّرًا لاسكندر. فكّر فيه مرّة أخرى أيّها الأخ. هل ينبغي لنا تغيير أسمائنا كي يتمكّن البريطانيّون من لفظها لفظًا أكثر سهولة؟ لا بدَّ أن يكون الأمر معكوسًا. عليك أن تجعل كلّ شخص يتعلّم اسمك الكامل ويلفظه لفظًا صحيحًا.

ثم انصرف تاركًا صمتًا مريبًا في أثره.

أمّا اسكندر، فقد وثب واقفًا على قدميه متوتّرًا:

ـ سوف أصحب أسماء إلى المنزل وأعود!

ـ هه! لا أريد الانصراف الآن.

لكن اسكندر كان قد وصل الباب.

ـ الآن، من غير إبطاء!

فامتثلت أسماء متذمّرة، ولمَّا أصبحا خارج المقهى، هتفت:

ـ تبًّا! لم يرقني ذلك الرجل، المعتدّ بنفسه، المغرور.

ـ قد لا يروقك ولكنّه مقاتل.

ـ إنّه فظّ.

ـ عندما يكون الواقع فظًّا فإنّكِ مضطرة إلى أن تكوني فظّة أيضًا.

ـ كفى بربّك! إنّه ليس سوى فحل حقير، لم يكلّف نفسه عناء النظر إليَّ.

ـ هذا لأنّه احترمك أيّتها المرأة! أتفضّلين الرجال الذين يسدّدون نظرات غراميّة إلى ساقيك؟ أهذا ما تريدين؟

فقالت أسماء رافعةً ذراعيها إلى أعلى:

ـ آه! ماذا دهاك؟ هوّن عليك! ما هذا الهراء الذي يحتشد به رأسك؟

ـ تنبّهي إلى ما تقولين يا أسماء!

ـ آه، لقد أخفتني!

ـ لقد سمعتني. لن تأتي إلى اجتماعاتنا بعد اليوم، فأنا لا أستطيع مراقبتك طوال الوقت.

قالت في حدّة:

ـ ومن يقول إنّك يجب أن تراقبني؟ في وسعي أن أهتمّ بنفسي. شكرًا جزيلاً لك. الغلطة غلطة أمّي، فهي التي ربّتك هذه التربية: يا ملاذي! يا أسدي! وأنت الآن تظنّ نفسك سلطان حيّ هاكني!

ـ اخرسي!

لم تتنبّه أسماء إلى التبدّل الذي طرأ على نبرته ولا إلى قبضة يديه إلى أن فات الأوان، فقد استرسلت أكثر ممّا ينبغي في الكلام.

ـ كنّا فريقًا، أنا وأنت. كان مزاحًا، وكنّا نضحك. أمّا الآن، فليس الأمر مزاحًا. انظر إلى نفسك ـ انظر إلى مدى الجدّ الذي أوصلت إليه نفسك.

أمسك اسكندر بكتفها ودفعها إلى الحائط.

ـ الناس يُضربون في الشوارع، وفي الأسبوع الماضي تعرّض رجل عجوز إلى الضرب بالحجارة حتى فقد وعيه. أيّ مزاح هذا الذي تتحدّثين عنه!

ـ آه! أنت بطل كبير إذًا. أنقذونا رجاءً.

الصفعة. جاءت على حين بغتة وكأنّها من العدم. فأمسكت أسماء خدّها، عاجزة عن الحركة من هول الصدمة.

قال من دون أن ينظر إليها:

ـ ابتعدي عن هذا المكان. أحذّرك.

راقبته وهو يعود أدراجه إلى المقهى مسرعًا. في يوم ما، كانت تعتقد أنّها تعرف شقيقها الأكبر مثلما تعرف ظهر كفّها، ولكنّها لم تعد تعرفه الآن. سبق له أن حماها من الآخرين. أمّا الآن، فقد شعرت أسماء أوّل مرّة أنّها مضطرة إلى أن تحمي نفسها منه.

* * *

سمكة سلمون بنِّيّة كبيرة

لندن، تمّوز ١٩٧٨

عندما شاهد يونس بعد أسابيع من البحث اليائس توبيكو، غمره إحساس هو مزيج من الارتياح والخوف. الارتياح لأنّه عثر عليها بعد أن كان قد فقد الأمل تقريبًا، والخوف الشديد من فقدانها من جديد. فما كان منه إلّا أن تشبّث بها كتشبّث السمك بصدفه.

كانت توبيكو قد تغيّرت إلى حدٍّ ما، وازداد وزنها. وكان شعرها الفاحم السواد، الملمح مثل حصاة سوداء تحت المطر، ما يزال طويلاً، ولكن أطرافه باتت الآن ذات لون أخضر متوهّج. كما استبدلت الحلقة الفضِّيّة من على شفتها السفلى بزرّ برّاق من أزرار الزينة، ووضعت في كلّ أذن ستّة قلوب قرمزيّة اللون، صغيرة ولمّاعة، وكأنّها قطرات صغيرة من الدم. عدّها يونس وتنبّه مرّة أخرى إلى مدى صغر حجم أذنيها وروعة جمالها.

زمّت توبيكو شفيتها ورفضت أن توضح له أين أنفقت كلّ ذلك الوقت والسبب الذي حال بينها وبين ترك رسالة له عن وجهتها.

هنا وهناك، كنتُ بحاجة إلى تغيير الجوّ يا طفلي. واستاء يونس لمّا عرف المكان الذي كانت تقيم فيه: بيت صغير من ثلاث غرف رفقة الزعيم وأمّه. وكان ثمّة عدد آخر من محتلّي ذلك المنزل بمعيّتهم.

كان والدة الزعيم، السيّدة باول، معلّمة متقاعدة وأرملة. الحقّ أنّها لم تكن متسامحة أو متساهلة مع هذه الجماعة من الصبيان إلّا قليلاً وهم يسكنون تحت سقف بيتها، ولكنّها وافقت على أن تضيفهم برهة من الزمان بأمل تزجية وقت أطول مع ولدها الوحيد. وقد انتقلت إلى غرفة النوم في الدور العلوي ونقلت معها جهاز التلفاز وكيس الماء الساخن لتدفئة الفراش، وتركت بقيّة البيت للشبّان. وكانت نادرًا ما تخرج من غرفتها، إذْ كانت تتناول كلّ وجبات طعامها في الغرفة وتتظاهر أنّها لا تعير بالاً للصخب والضجيج المتواصلين ولا لرائحة السكائر والماريجوانا المنبعثة من الدور الأرضي.

وفي المرّة الأولى التي زار فيها يونس هؤلاء الصبيان في تلك الشقّة، جلس فوق الأريكة بجانب توبيكو، ضئيلاً ومتبسمًا.

قال الزعيم موضحًا:

ـ إنّه حلّ موقّت إلى أن نعود أدراجنا إلى المكان القديم. ولسوف نلمّ شمل الآخرين من جديد.

وقال بوغارت والسيكارة تتدلّى من بين شفتيه وآلة الغيتار ذات الوترين بيده:

ـ سوف نستعيد بيتنا وعندئذٍ لن يتمكّن أحد من طردنا، وسوف نضربهم على مؤخّراتهم في المرّة القادمة.

ثمّة فتى جديد يُرافقهم، أصلع الرأس باستثناء كتلة شعر كثيفة

على قمّة رأسه، عمد إلى صبغها بمختلف تدرّجات اللون البرتقالي. وكان يلقّب بالسيّد فيلتش (السارق) لأنّه لم يكن يؤمن بضرورة دفع ثمن أيّ شيء: الكتب وأجهزة التسجيل والطعام والثياب الداخليّة. وفي يوم ما، سرق زوجًا من حذاء برقبة طويلة من نوع دوك مارتنز، حاملاً كلّ فردة داخل كمّ من أكمام معطفه المصنوع من قماش الغبردين. وبينما كان يجلس في المؤخّرة مبتسمًا، قال:

ـ نعم، أنتم كالهررة تلعقون جراحكم.

أصغى يونس لهذرهم ولغوهم، مسرورًا لأنّهم دخلوا حياته من جديد، وسكن سكونًا غريبًا بأساليبهم غير التقليديّة. ولمّا تنبّه بوغارت إلى حالة السرور البادية على وجه يونس، قال:

ـ هذا الصبيّ يشبه الهرّة أيضًا.

فقال الزعيم مخاطبًا توبيكو وهو يغمز لها:

ـ وأنتِ السلّة الدافئة التي يستريح فيها.

فضحكت توبيكو ضحكة قصيرة كي لا تجرح مشاعر يونس. ثم التفتت إلى بوغارت وسألته في محاولة لتغيّر دفّة الحديث:

ـ ماذا كنت تعزف؟

ـ آه، إنّها معزوفة أغنية ألّفتها. كنت أفكّر في أنّ الحملة على ذلك البيت كانت يوم أحدنا الدامي ـ نوعًا ما. ولهذا ألّفت الأغنية وعنوانها الثلاثاء الدامي!

لم يكن بوغارت بحاجة إلى حافز أفضل، فبدأ يغنّي. وكان اللحن سيئًا، والكلمات أسوأ بكثير:

أنا على الحافّة. أنا عاطل

مثل حجارة مرميّة في هذه الحفرة!

هذه الحفرة، هذه الحفرة، هذه الحفرة، هذه الحفرة..

الجنود القدامى لا يقرعون قبل النقل بالعربات؟

الثلاثاء الدامي هو أسوأ الأيّام.

ثوروا ضدّ النظام.. فهو بلا روح!

بلا روح، بلا روح، بلا روح، بلا روح..

سدَّ إيغي بوب أذنيه بأصابعه، وكان يرتدي صدريّة أفغانيّة وقميصًا برتقاليّ اللون، يكشف عن حلمتيه، وقال:

ـ آه، هلّا أغلقت فمك؟

فصاح بوغارت مندهشًا، متوقّفًا في منتصف الطريق:

ـ ماذا؟

فقال إيغي بوب:

ـ هذا هراء أيّها الرجل!

وقالت توبيكو:

ـ ولم يكن اليوم الذي حدثت فيه الغارة يوم ثلاثاء، بل أربعاء!

فعبس بوغارت وقال:

ـ من يقول هذا؟

أصغى يونس مسرورًا وقلقًا في الوقت نفسه، مدركًا مدى سهولة انتقالهم من المزاح الطفولي إلى حرب شاملة عندما يرمون

الحجارة ويغلقون الأبواب في عنف، ويصيحون ويشتمون بعضهم بعضًا أو يشتمون أنفسهم.

وقال بوغارت هازئًا:

ـ وماذا تعرفون أيّها الجماعة، يا أصحاب الرؤوس الشبيهة بمقابض الأبواب؟

ثم توقّف هنيهة وعبس في وجه توبيكو، وقال:

ـ وأنتِ لا تتذكّرين حتى ماذا تناولتِ في فطورك.

فقالت توبيكو مقترحةً:

ـ لنسأل يونس. إنّه محايد.

فاعترض الزعيم:

ـ تبًّا، إنّه متساهل ويتّفق وإيّاكِ دائمًا. قولي إنّ الثلج أسود وستجدينه يوافقك تمامًا.

تورّد وجه يونس، ولكنّه تظاهر بعدم الاكتراث وأدرك أنّ الوضع يقتضي منه قول شيء ما ـ أن يتفوّه بعبارة تثير اهتمامًا يكفي لإبعاد أنظارهم عنه. ولهذا قال:

ـ أريد وشمًا.

فضحك بوغارت ضحكة صغيرة، وقال:

ـ قف. هذا الفتى رابط الجأش!

قال ايغي بوب:

ـ ليكن ذلك.. ليس من مشكلة، فأنا أفضل فنّان يصنع الوشم في البلدة.

قالت توبيكو متسائلة في طيبة:

ـ ألن تغتاظ أمّك يا عزيزي؟

كان يونس قد فكّر في هذا الأمر.

ـ حسنًا، سوف تغتاظ إذا ما رأته. لكن إذا ما رسمته على ظهري، مثلاً، فلن تعرف بأمره.

قال السيّد فيلتش:

ـ ولد ذكي.

قال إيغي بوب وهو يفرك كلتا يديه:

ـ سأذهب وأحضر أدواتي.

فقال يونس في هدوء:

ـ وأنا مضطرّ إلى الذهاب والتبوّل.

كان الدور العلوي من المنزل يحتوي على بابين، كلّ باب على جهة من جهتي الممرّ. وبعد أن تردّد يونس قليلاً، فتح الباب الأيسر فاستبدّت به الدهشة عندما رأى امرأة تجلس فوق السرير، مرتدية ثوب نوم بنفسجيّ اللون، وتقضم بسكويتة هشّة وتشاهد حلقة جديدة من برنامج ذا ساوث بانك شو. كان شعر رأسها يشبه عشّ العصفور، وفكّر يونس أنّها حتمًا كانت تبكي لأنّه شاهد خطوط مستحضر تجميل الأهداب والجفون وقد انساب من على وجنتيها. ولاح على وجهها ما يشير إلى أنّها مخبولة.

ـ آسف أيّتها السيّدة.

كاد يونس أنِ يغلق الباب عندما تمتمت المرأة من دون أن تحوّل أنظارها عن شاشة التلفاز.

ـ هل جنَّدوك.

توقّف الفتى عن الحركة لا يدري إنْ كانت الكلمات موجّهة إليه.

ـ عفوًا؟

فكرّرت المرأة قولها:

ـ هل جنَّدوك؟ هل أنت أصغر متشرّد في إنكلترا.

فردّ يونس مذعورًا:

ـ لا.

قالت وهي ما تزال تنظر إلى التلفاز:

ـ حسنًا جدًّا. لقد عملت طوال حياتي رفقة الأطفال، ولكنّني لا أتمكّن من مساعدة ولدي.

راح يونس ينظر الآن إلى المرأة في عناية أكبر، فعرف أنّها السيّدة باول، المعلّمة التي جاءت لتحدّث والديه عن مستوى أخته في المدرسة. ولاحظ مدى شبهها بالزعيم ـ واسعة الجبين، طويلة الأنف، مدوّرة الشفتين، وذات عينين رماديّتين جاحظتين إلى حدٍّ ما.

واستأنفت حديثها:

ـ كان ولدي بديعًا جدًّا عندما كان في مثل عمرك. الأطفال رائعون عندما يكونون صغار السنّ. ثم يبدأون بالسير وكسر الأغراض وما إن يكبروا حتى يكرهوك!

التفتت السيّدة باول إلى يونس، تسدّد نظراتها وكأنّها أشعّة ضوء كشّاف. ثمّة جيوب سود من تحت عينيها، وبدت مرهقة، بحاجة إلى النوم.

ـ ماذا تسمّي والدتك يا عزيزي؟

ـ إنّني . . . إنّني أسمّيها ماما .

ـ أخبرها أنّها أمّ محظوظة. فولدي يسمّيني «النظام». يظنّني مهرّجة بورجوازيّة.

ثم تنهّدت وأضافت:

ـ أتظنّه على حقّ؟

فردّ يونس مرتبكًا:

ـ آه، لا.

وتذكّر أنّه وعد توبيكو قبل برهة وجيزة ألّا يدع النظام يقترب منه. ولكنّه على الرّغم من ذلك لم يطلق ساقيه للريح. ومضى يقول:

ـ أظنّك سيّدة رائعة. كلّ ما هو مطلوب منك أيّتها السيّدة باول هو أن تنظري إلى نفسك تحت أشعّة الشمس.

صعقت المرأة أوّل وهلة قبل أن تنفجر ضاحكة في صوت أجشّ، ولكن عندما نظرت إلى يونس ومضت عيناه بوميض جديد:

ـ هذا أجمل ما سمعت مؤخّرًا.

ـ وداعًا أيّتها السيّدة.

عندما قفل يونس راجعًا إلى غرفة المعيشة، وجد توبيكو جالسة على مقربة من النافذة، تنظر إلى عصفور في الحديقة، ريشه متقزّح الألوان من تحت أشعّة شمس الأصيل. وكان لديها كوبان من شراب الشوكولا الحارّ. وبينما هما يحتسيان مشروبهما، قال يونس:

ـ هل لي أن أطرح عليك سؤالاً؟
ـ على وجه التأكيد يا صغيري.
قال متوتّرًا:
ـ تقول أختي بخصوص الأسرار، إنّ السرّ يجب أن يبقى محفوظًا لا يشاطر ثالث فيه. ولا حتى إن كان الثالث قصبة.
رمقته توبيكو بنظرة فاحصة تنمّ عن حبّ استطلاع، وقالت:
ـ لست واثقة عن أيّ شيء تتكلّم.
ـ أعتقد أنّني أريد أن أسألك. . . إن كان ثمّة شخص تحبّين وأنّه يملك سرًّا لا أحد يعرف عنه شيئًا وأنّه يسبّب الحرج. . . ولكنّك تكتشفين ذلك السرّ. فهل تظنّين أنّ الواجب يستدعي إخبارها به أم لا؟
ـ آه، هذا سؤال صعب جدًّا، ولكنّني أعتقد أنّ المستحسن الاحتفاظ به.
بعد أن تفوّهت توبيكو بهذه الكلمات، وضعت رأسها فوق كتف الصبيّ في عناية ورفق، من دون أن تضغط عليه في قوّة. فشعر يونس بقلبه يقفز بين ضلوعه وتمنّى لو أنّ تلك اللحظة استمرّت إلى ما لا نهاية. ولكن سرعان ما عاد الزعيم، وبقيّة الشلّة، حاملاً صندوقًا يحتوي على إبر وتصاميم لوشوم مختلفة.
وقال إيغي بوب:
ـ حسنًا. . لنبدأ العمل. تنبّه! قد يكون العمل مؤذيًا قليلاً. فهل تمانع؟
أومأ يونس برأسه وعضّ شفته.

ـ ما شكل الوشم الذي تريد؟ كلمة؟ رمزًا؟

وسأل يونس:

ـ هل يمكنك أن ترسم لي حوتًا؟ كالذي بلع النبي يونس؟

وعندما أصبح الوشم كاملاً، بدا وكأنّه سمكة سلمون كبيرة وبنِّيّة ـ السمكة التي كانت قد تمنّت الجدة نازي أن تتحوّل إليها في الحياة الآخرة، في عالم منسيّ.

* * *

ربّ الأســرة

لندن، أيلول ١٩٧٨

كان اللقاء الرابع لاسكندر بالخطيب مختلفًا الاختلاف كلّه عن اللقاءات السابقة. كان الرجل يريد لقاءه على انفراد وفي مكان آخر، وليس في كهف علاء الدين. فاتّفقا على اللقاء في حديقة ڤكتوريا بارك.

وعندما دلف اسكندر إلى الحديقة من البوّابة الملكيّة، خطا خطوات واثقة في اتّجاه نافورة ڤكتوريا، ولكنّه أبطأ في سيره عندما أبصر الخطيب يقف موليًا ظهره إلى شجرة كستناء الحصان، وإلى جانبه حقيبة مدرسيّة، وواضعًا يديه في جيبيه. كان وجهه ينمّ عن استغراق في التفكير لا سبيل إلى معرفة كنهه. وكان مظهره يجعل من الصعب معرفة إن كان ينتظر منذ مدّة زمنيّة طويلة أم أنّه جاء قبل قليل. وكان يضع نظّارة سميكة الإطار على أنفه، فأبرزت تقاطيع وجهه المربّع الشكل. وكان يحتذي حذاءً بنّي اللون، مدبّبًا، وسترة كالحة اللون، فضفاضة، وبنطالاً من جينز كالذي تشتريه أمّ لابنها.

هكذا كان اسكندر يفكّر في نفسه.

قال اسكندر رافعًا يده محييًا:

ـ مرحبًا.

ابتسم الخطيب ابتسامة واهنة:

ـ تعال! دعنا نتمشّى قليلاً.

وافق اسكندر وإن لم يكن مزاجه رائقًا للسير:

ـ مؤكّدًا.

كانت الشمس مشرقة والسماء صافية. وكانت البحيرة هادئة بالقرب منهما، أشبه ما تكون بسجّادة خضراء، وعلى الجانب الآخر منها ثمّة طبقة رقيقة من ضباب شاحب. الآباء والبنون يرمون بقطع الخبز إلى البطّ. بعض الأشخاص يمارسون رياضة الجري. شابّ وشابّة مستلقيان على العشب في وضع غرامي ساخن. ولاحظ اسكندر أنّ الخطيب يشيح بأنظاره، وأنّ تغضّنًا رقيقًا يكسو جبينه. وبعد أن تعبا من السير، وجدا مصطبة شاغرة فجلسا فوقها لتجاذب أطراف الحديث.

قال الخطيب:

ـ تبدو لي مثل شخص يتمتّع بصداقات قويّة.

قال اسكندر مبتسمًا:

ـ نعم.

ـ وهل أنت زعيمهم؟

تردّد اسكندر قليلاً، فهو لم يشر إلى نفسه قطّ على أنّه الزعيم.

قال الخطيب وهو يقرأ أفكاره:

ـ لا بأس. لا بأس إن كنت مسؤولاً عنهم، ولكنّك لا تتصرّف على هذا الأساس. شيء نبيل.

قال اسكندر:

ـ شكرًا لك.

لم يسبق لأحد أن وصفه بالنبل، ولهذا لم يستطع إلّا الإحساس بالفخر والاعتزاز.

ـ إنّ رفاقك مهذّبون ولكنّهم ما زالوا فتيانًا. ما يزال أمامهم طريق طويل. أمّا أنت فمختلف عنهم. أنت أكثر نضجًا منهم. كيف حدث هذا؟

سمع اسكندر نفسه يقول:

ـ والدي غائب عنّا. وكان لزامًا عليَّ أن أكبر بسرعة فائقة. أتفهم ما أقول؟

أومأ الخطيب برأسه:

ـ حسنًا! هذا يفسّر الأمور.

انتاب اسكندر إحساس دافئ بالجدارة، وسَرَت في أوصاله دماء جديدة. لم يسبق له أن تنبّه إلى هذا الأمر، وإن كان حاضرًا أمامه طوال الوقت. لقد كبر في سرعة فائقة.

ـ أنا أكبر أخوتي، كما ترى. ولديّ أخ وأخت أصغر منّي سنًّا.

قال الخطيب:

ـ أتذكّر أختك.

كان صوته يشوبه التوتّر.

ـ آه. يؤسفني أنّها كانت مفتقرة إلى اللياقة معك في آخر مرّة.

ـ لا بأس. لا تلمها، فهي صغيرة السنّ. وفكرها مشوّش. فهي تلتقط ما تشاء من غيرها من البنات، ومن المجلّات التي تطالعها. ثم هناك التلفاز. قصف من الدعاية والإعلان.

قضم اسكندر شفته مصغيًا.

ـ المشكلة هي أنّ الأمور أصعب على النساء. فثمّة أشياء كثيرة تجعل أدمغتهنّ تنحرف عن المسار الصحيح، مثلاً، بريق عالم الأزياء والبحث عن أزواج أثرياء والأثاث الجيّد الصنع. قضيّة لا نهاية لها.

قال اسكندر:

ـ هذا صحيح.

ـ إذا لم يكن لديك مانع فسأطرح عليك هذا السؤال: ما سبب غياب والدك؟

التوى فكّ اسكندر قليلاً وكأنّه يبلع أوّل جواب خطر بباله. شعر بالارتباك، بأنّه تحت المراقبة. هل هذا اختبار؟ هل تُراه يريد أن يعرف شيئًا ما عن أبيه؟ هل تُراه يريد التأكّد إن كان اسكندر يثق به؟ فإذا كان اختبارًا، فإنّه لا يروقه. فقال باقتضاب:

ـ لديه حياة أخرى.

ـ أفهم ذلك.

ـ أنت لا تبوح بأصغر الأشياء عن نفسك، ولكنّك تتوقّع من الآخرين أن يكشفوا لك عن مكنونات صدورهم.

ابتسم الخطيب، ولاحت على ابتسامته مظاهر السخرية.

ـ هذا هو الشيء الذي يروقني فيك. لديك عدد كبير من القذائف. وإذا لم يرقك رأي أحدهم، فأنت لا تحتمله. أنت بطبعك تتقبّل المخاطرة. لا أحد يضايقك.

قال اسكندر:

ـ هذا صحيح.

ـ حسنًا. أحترم رأيك. أعتقد أنّني مثلك، لا أحبّ التحدّث عن نفسي. ولكنّني سأتحدّث الآن ما دام أنّك طلبت ذلك.

اكتسبت ملامح وجه اسكندر قليلاً من الارتياح، وشعر بقليل من الحرج بسبب ما أبداه قبل لحظات من نقد.

ـ ولد أبي خالد في مصر وجاء إلى برمنغهام في سنة ١٩٥١. وتعلّم الإنكليزيّة بنفسه أثناء اشتغاله في نوبات العمل الليلي. إنْ لم تعمل في جد، فلن ينتهي بك المطاف إلى تحقيق أيّ شيء. أتدري؟ كان ذلك خوفه الأكبر: ألّا يحقّق أيّ شيء. فما كان منه إلّا أن غيَّر من هندامه وطعامه وعاداته، ولكن لكنته ظلّت كما هي. تزوّج فتاة إنكليزيّة فولدت أنا. شخصان لطيفان. لا تسيء الظنّ بي. المشكلة هي أنّهما انشغلا انشغالاً كبيرًا بهذا العالم ممّا جعلهما ينسيان أشياء كثيرة. لم يدخل الإيمان إلى قلبيهما. وأنا أرثي لحالهما.

مرقت من أمامهما فتاة تحتذي حذاء تزلّج، وترتدي بنطالاً قصيرًا وسترة بيسبول، وكلاهما أرجوانيّ اللون. حدّج اسكندر ساقيها بنظراته الثاقبة قبل أن يعود إلى الحديث عمَّا كان يفكّر فيه:

ـ نعم، ولكنّهما والداك في نهاية المطاف.

ـ وأنا أحبّهما، غير أنّ هذا لا يعني أنّني أحترمهما. الحبّ والاحترام شيئان مختلفان. فإذا ما أخطأ والداك، فإنّ الواجب يقتضي منك أن تقف في وجهيهما.

وقال اسكندر من دون أن يعرف إلى أين سيصل به هذا الكلام.

ـ عندما نشأنا وترعرعنا، لم يكن والدنا حاضرًا. ثم هجر البيت. على هواه. حدث ذلك منذ سنة تقريبًا.

كان اسكندر يحاول أن يخفّف من وطأة الموضوع، ولكنّه لم يتمكّن من إخفاء القشعريرة التي انتابت صوته.

دفع الخطيب نظّارته إلى الوراء ورنا إلى اسكندر.

ـ إذًا أنت ربّ الأسرة الآن. لا بدّ أنّ الأمر صعب. ينبغي لك أن تكون قويًّا، ذا بأس. حسنٌ أنّك تتعلّم الملاكمة، ولكنّك بحاجة أيضًا إلى الجانب المعنوي.

قال اسكندر:

ـ أفهم ما تقول.

ولكن لم يكن اسكندر متأكّدًا من أنّه كان قد فهم.

وهنا فتح الخطيب الحقيبة المدرسيّة وأخرج منها كرّاسين، وقال:

ـ هذان الكتابان لك. وبعد أن تفرغ من قراءتهما، سوف نتحدّث في شأنهما. أرجو أن تخبرني بما يروقك في كلّ واحد منهما. ولا تتردّد في إطلاعي عمّا لا يعجبك فيهما.

ـ تحبّ أسماء الكتب. أمّا أنا فلست بذلك القارئ الذي يعتدّ به.

ـ حسنًا. لا بدّ من تغيير هذه الحالة إذًا.

لم يبدُ عليه أنّه يتكلّم هذا الكلام بصفة الآمر، وإنّما كان مصمّمًا على تحقيقه. وأضاف:

ـ العقل في حاجة إلى أفكار مثلما تحتاج السيّارة إلى وقود لتنطلق على الطريق. وعلى وجه العموم، فإنّ الكتب مصدر الأفكار.

ـ أعتقد أنّك على صواب.

ـ كما أرجو أن تحتفظ بالكتابين لك. هلَّا قبلت بهما؟

فقال اسكندر:

ـ في وسعك أن تثق بي.

وكاد أن يقول ما هو أكثر من ذلك عندما خفض بصره ونظر إلى ساعته، ولكنّه اكتفى بالقول:

ـ آه، لا. ينبغي لي أن أذهب.

فرقع الخطيب لسانه على أسنانه، ولاحت في نظرته ملامح الخديعة:

ـ فتاة.

ـ نعم.

ـ إنكليزيّة؟

ـ نعم.

ـ ولِمَ ليست بنتًا من بناتنا؟

فوجئ اسكندر بالسؤال. فقد فكّر دومًا بأنّ الاختلاف بينه

وبين كاتي على أنّه صراع شخصيّات وليس أكثر من ذلك. يضاف إلى ذلك، كان الخطيب نفسه إنكليزيًّا بكلّ ما في الكلمة من معنًى. صحيح؟ وعندما تكلّم اسكندر من جديد، كانت نبرته يشوبها القلق.

ـ لا أدري. هكذا شاءت المصادفة.

ـ هه! وهل هي فتاة طيّبة؟

قال اسكندر وإن كان لا يدري ما يعني بجوابه:

ـ لا بأس بها.

ـ حسنًا. اذهب الآن. لا تتركها في الانتظار. سأدعو الله أن يرشدك إلى الطريق المستقيم.

تمتم اسكندر متظاهرًا أنّه لم ينزعج بتطفّل الرجل:

ـ شكرًا لك، وسألتقيك في الجوار.

* * *

الـديـن

لندن، ٣٠ أيلول ١٩٧٨

دلف اسكندر إلى دكّان طارق في وقت متأخّر من عصر يوم السبت، وكانت قبّة سترته مرفوعة إلى أعلى. نهض عمّه واقفًا على قدميه ليحيّيه، وافترّ ثغره عن ابتسامة فخر واعتزاز. لقد تغيّر الفتى كثيرًا في تلك السنة، فبات أطول قامة من والده وأكثر لياقة وأشدّ قوّة وبأسًا. وكان شارب خفيف قد لاح من فوق شفته العليا، وعيناه تفيضان حيويّة الشباب.

ـ انظروا إلى من جاء إلى هنا: ابن أخي المفضّل!

ابتسم اسكندر ابتسامة باهتة، وقال:

ـ كيف حالك يا عمّاه؟

قال طارق:

ـ لست أحسن من قبل. لمن أدين بهذا السرور؟

ـ سوف ألتقي بعض الأصدقاء في الحيّ، ففكّرت في زيارتك أوّلاً.

كان الفتى يتكلّم مزيجًا من العاميّة الإنكليزيّة والتركيّة. وعلى الرّغم من أنّ لكنته لم تكن فظيعة، إلّا أنّ مفرداته اللغويّة كانت محدودة جدًّا حتى إنّه غالبًا ما لجأ إلى استخدام الكلمات نفسها ليعني بها أشياء مختلفة. وبينما كان طارق يصغي، فكّر في إرساله للعيش في اسطنبول فترة من الزمان ـ وربّما من غير رجعة. أو من الأفضل أن يكلّم بمبي لتأتي بخطيبة له، فتاة متواضعة من إحدى قرى الأناضول.

ـ وكيف حال المدرسة؟ هل أنت مرتاح في الدراسة؟ وهل يعاملك المعلّمون معاملة حسنة؟

فأجاب اسكندر من غير مبالاة:

ـ المدرسة جيّدة.

ـ وملاكمتك؟

أجاب اسكندر:

ـ لديّ مباراة عن قريب ولكن ماما لا توافق عليها.

ـ حسن.. لا يمكنني أن ألومها، فهي تخشى أن يصيبك مكروه.

لبث اسكندر صامتًا بعض الوقت، مصغيًا إلى صوت خرزات المسبحة.

ـ لي صديق في ورطة يا عمّاه.

ـ وهل جاء هذا الصديق إليك طالبًا النصح والإرشاد؟

ـ نعم. أنا في مقام الأخ الأكبر للصبيان، ولهذا السبب جاء إليّ.

ـ وما مشكلة صديقك تحديدًا؟

ـ إنّه في حاجة إلى المال.

كبت طارق زفرة.

ـ كم هو المبلغ الذي تتحدّث عنه؟

عندما ذكر اسكندر المبلغ، مسَّد طارق لحيته وسأل:

ـ لماذا يحتاج ولد بهذا العمر إلى مثل هذا المبلغ الكبير؟

لاحت أمارات القلق على وجه اسكندر واختلس نظرة إلى عمّه، ولكنَّ صوته كان هادئًا لا يشوبه أيّ ارتباك عندما أجاب:

ـ يبدو أنّ صديقته حبلت، ويحتاج المال للطبيب في العيادة.

صرَّ طارق على أسنانه، وقال:

ـ هذه الفتاة... أهي إنكليزيّة مائة في المائة؟

قال اسكندر:

ـ نعم، لماذا تسأل؟

كان الجواب يبعث على الارتياح إذْ تبيّن أنّ الفتاة ليست من بنات الجيران أو من جالية أخرى من الجاليات المهاجرة إلى لندن. وهذا يعني أنّ القضيّة لا تنطوي على وجود أسر أو آباء أو إخوان يطلبون ثأرًا. وأرسل طارق زفرة عميقة وكأنّه يدرك كلّ الأسئلة التي قرّر ألّا يطرحها. وتنبّه إلى أنّ الفتى يراقبه، فما كان منه إلّا أن وقف على قدميه وسار نحو الخزانة التي كان يحتفظ بها في إحدى زوايا الدكّان.

ولمّا عاد رآه اسكندر يحمل أوراقًا نقديّة بين يديه، ووضعها أمامه، فشعر أنّه مضطرّ إلى أن يختلس نظرات خاطفة هنا وهناك

بعد أن ساوره إحساس بالقلق. وقال طارق:

ـ قل لصديقك إنّك سوف تساعده.

ردّ اسكندر

ـ شكرًا لك يا عمّي.

ـ ولكن دعه يعلم أنّ هذه هي المرّة الأخيرة التي تمدّ له فيها يد العون. على صديقك أن يسيطر على نفسه، وإلّا فسوف يتورّط في مشكلات أكبر! ابعث له بتحيّاتي وتأكّد من أنّه سيفهم ما أقول.

قال اسكندر:

ـ لا تقلق.. سأتأكّد من أنّ الرسالة سوف تصله.

ثم وضع النقود في جيبه واتّجه نحو الباب، ولكنّه توقّف:

ـ عمّي!

ـ نعم.. أهناك شيء آخر؟

غمز طارق بعينه، وانتابه شكّ مفاجئ من أنّ الفتى في ورطة شديدة لا تفلح بضع أوراق نقديّة لحلّها.

ـ لا شيء. كلّ ما أردت أن أقول هو أنّك تقوم مقام أبي.

وهنا انشرحت أسارير طارق، وقال:

ـ على الرحب والسعة في كلّ وقت يا ولدي. إنّني هنا لأساعدك.

أومأ اسكندر إيماءة صغيرة وبدا الجدّ عليه بغتة، وقال:

ـ سترى أنّني سأسدّد هذا الدين يومًا ما.

* * *

رجل من العالم الآخر

لندن، تشرين الأوّل ١٩٧٨

عندما دلفت ميرال إلى المحلّ في وقتها المعتاد من يوم الجمعة، وجدت زوجها منهمكًا في مكالمة هاتفيّة. كان طارق قد دفع ذقنه إلى أمام وراح يجذّب لحيته على النحو الذي يفعله دائمًا وأبدًا عندما يوشك أن يفقد أعصابه. ومهما كانت هويّة المتحدّث على الطرف الآخر من الهاتف، إلّا أنّه بدا وكأنّه هو الذي يتولّى معظم ما يدور من حديث. مرقت ميرال في هدوء من جانبه واتّجهت إلى مؤخّر المحلّ حيث فتحت قِدْرها المعدني وراحت تعدّ طعام الغداء لزوجها. كانت قد أعدَّت في هذا النهار طبق مانتي المؤلّف من قطع من العجينة المحشوّة باللحم المتبّل، ووضعت قطعًا أخرى من الفلفل الحارّ في صلصة اللبن والزبدة، أكثر ممّا اعتادته. وساورها قلق خشية ألّا تعجبه.

وما إن أعدَّت المائدة حتى أمسكت بمنشفة مبلّلة وراحت تنظّف الرفوف من الغبار، بينما أخذت الأساور الذهبيّة ترنّ في

معصمها رنينًا يبعث على السرور. وأنعمت النظر في علب اللحم والفاصوليا المطبوخة وزجاجات الصوص البنّيّة وأنبوبات سلطة الكرنب وسلطة البطاطا وزجاجات البصل المخلّل - أطعمة لم تذقها في حياتها.

وكانت سألت زوجها يومًا ما:

- من يشتري مثل هذا الطعام؟

فكان ردّ طارق عليها:

- زوجات عصريّات لا وقت لديهنّ لطبخ الطعام، إذْ يستغرقن في العمل وقتًا طويلاً. وفي المساء، يحضرن لشراء بعض السمك المعلّب ويخلطونه بكريمة السلطة ويسمّين ذلك عشاءً.

وفكّرت ميرال في نمط أولئك النساء، وتساءلت عن نوع الأسر التي تحدّرت منها. ولم تُثر دهشتها حتى النساء اللواتي تظهر صورهنّ على أغلفة المجلّات الخاصّة بالرجال قدر ما أثارتها هذه الزوجات اللازوجات. فالفتيات اللواتي يظهرن في المجلّات إمّا أن يكنّ مخدوعات أو دُفعت لهنّ مبالغ طائلة كي يقفن أمام العدسات في ثياب عيد ميلادهنّ. هنّ ساقطات. وليساعدهنّ الله حتى يهتدين إلى الطريق المستقيم. أمّا الزوجات العصريّات، فلسن ضحايا بأيّ حال من الأحوال. فهنّ يملكن المال ويقدن السيّارات ويرتدين الثياب الأنيقة، بل للبعض منهنّ أولاد، ومع هذا لا يقمن بحشو الفلفل الأخضر لأزواجهنّ.

وراود ميرال شكّ عميق في أنّ لزوجة أخيها مثل هذه الأفكار، خفية غير معلن عنها. فهذه بمبي تتمتّع بقدر من الاستقلاليّة لا يمكنها أن تفهمه، قدر من التمرّد في بحر هادئ.

لكن زوج بمبي ليس بالرجل الصالح، فهو لم يأت منذ عشرة أشهر، وقبل ذلك، لم يره أحد في الجوار. زوجها ليس كذلك أبدًا.

وصاح طارق وهو ما زال يمسك سمّاعة الهاتف:

ـ أيّتها الزوجة!

ـ ماذا؟

التفت طارق قليلاً وأشار إلى الباب، فقد رأى ثلاثة زبائن يدخلون المحلّ. ولدان وبنت. كانوا صغارًا جدًّا. ربّما في مثل عمر ابنتي الكبرى، كما ظنّت ميرال. كان أحد الولدين يزيّن حاجبيه بزينة فضّيّة، فيما اكتست قمّة رأسه بكتلة من شعر برتقالي اللون، وكأنّها عشّ بناه طائر غريب. أمّا الولد الآخر، فكان طويل القامة، هزيلاً، لا يرتدي أيّ قميص من تحت صدريّته الأفغانيّة، كاشفًا بذلك عن صدره الخالي من الشعر. أمّا البنت، فكانت ذات شعر فاحم بلون الغراب، بشرتها شاحبة بلون الطحين، ترتدي جوارب طويلة ممزّقة، وتعلو كلّ بقعة بارزة من جسدها وشوم من كلّ لون ونوع.

أغمضت ميرال عينيها برهة وجيزة وكأنّها كانت تأمل في أن ينصرف هؤلاء الصغار عندما تفتح عينيها من جديد.

وغمغمت الفتاة:

ـ أراهن أنّها لن تخدمنا.

وسأل الصبي الذي لا يرتدي قميصًا وهو يميل من فوق النضد، متّهمًا ومسرورًا في آن واحد:

ـ آه، لا. هل أثرنا خوفك أيّتها السيّدة؟

تسلّلت رائحة أنفاس الشابّ إلى أنف ميرال، رائحة هي مزيج من الجعة والسكائر، فتراجعت إلى الوراء من غير عمد، ورنت إلى زوجها بنظرة جانبيّة. كان طارق ما يزال منهمكًا في المكالمة الهاتفيّة، ولم يبدُ عليه أنّه سوف يفرغ منها أبدًا.

وسألت ميرال في حذر:

ـ نعم، ماذا تريدون؟

كم مرّة طلبت ميرال من زوجها أن يشدّد من الإجراءات الأمنيّة في المحلّ، ولكنّه رفض مسوّغًا رفضه بارتفاع الكلفة. وكان السلاح الوحيد الذي فكّرت فيه ميرال الآن، إذا ما اقتضت الضرورة، قضيبًا ينتهي طرفه بشبكة ويستعمل لإنزال البضاعة من فوق الرفوف العالية.

سأل الفتى البرتقالي الشعر:

ـ هل لديك شراب الزنجبيل أيّتها السيّدة؟

فردّت ميرال رافعة ذقنها إلى أعلى كأنّها على استعداد لتلقّي ضربة:

ـ ليس لدينا شراب الزنجبيل.

كان صوتها ضعيفًا يفتقر إلى الأمان. ولما كانت لا تملك أيّة فكرة عمّا يتحدّثون به، فقد رأت أنّ الأسلم هو رفض الطلب مباشرة. لكنّ الفتى الذي لم يكن يرتدي قميصًا اكتشف أمر الثلّاجة حيث تحفظ المشروبات الغازيّة.

ـ آه، أيّتها السيّدة. لديكم كمّيّات كبيرة منها هنا، فلِمَ تقولين ليس لديكم؟

قال ذو الشعر البرتقالي، رافعًا أنفه إلى أعلى:

ـ ربّما تخطّط لشربها كلّها!

فقاطعته الفتاة:

ـ لا تكن سخيفًا.

ثم أشارت إلى الرفوف من وراء النضد، وأضافت:

ـ أعطني علبة من هذه الحلوى من فضلك.

نظرت ميرال إلى العلبة في دهشة، وفكّرت: تبًّا! ما الذي تبغيه هذه البنت؟ ثم أمسكت بالحلوى واحدة تلو الأخرى والبنت تصيح: لا ليست هذه.. إلى أن عثرت على الحلوى المطلوبة.

وهنا قطع حديثهم صوت طارق مدوّيًا. واقترب منهم واضعًا يديه من وراء ظهره، يسبّح في مسبحته، وقال:

ـ مرحبًا.

ثم التفت إلى زوجته، وسألها بأدب جمّ:

ـ والآن، ماذا عندنا هنا؟

أوضحت ميرال وهي تضع العلبة فوق النضد بقوّة:

ـ حلوى خطميّة.

فأومأ طارق رأسه:

ـ حسنًا. سأتولّى أنا بقيّة الأمر.

عادت ميرال إلى عملها في التنظيف على مضض، ولكن سرعان ما ألمّت بها الدهشة عند رؤيتها الشابّ البرتقالي الشعر وهو يسرق قطعتين من النوغة. وبعد تردّد قصير، قرّرت أن تتظاهر بأنّها

لم تشاهده ما دام أنّه لم يستمرّ في سرقة ما هو أغلى قيمة وثمنًا. راقبت زوجها منشغلاً في نقاش مرح مع زبائنه. واشترى الفتيان علبة سكائر وعلبة كبريت وكيسًا من تويغليت إضافة إلى شراب الزنجبيل والحلوى الخطميّة. ومضوا في سبيلهم مودّعين ميرال التي لم تجد بدًّا من التلويح لهم.

وما إن اختلت ميرال بزوجها حتى تذمّرت أمامه، وقالت:

ـ انظر إليهم.

فهزّ طارق كتفيه، وقال:

ـ ماذا في وسعكِ أن تفعلي؟ فهم شبّان وسريعو الغضب.

وفكّرت ميرال: بل هم شبّان وإنكليز. فلو أنّ أحد أبنائهما ارتدى مثل تلك الثياب، لأُصيب زوجها بنوبة. كانت هي في الأقلّ متماسكة. في البيت وفي الشارع أو في الدكّان ـ هي الشخص نفسه في كلّ مكان. ولم تفهم كيف يمكن لشخص أن يثقب بشرته أو يسير متسكّعًا، ممزّق الثياب، تمسك أطرافها الدبابيس الآمنة! لم تشأ ميرال أن تتظاهر أنّها توافق هؤلاء الشبّان على نمط حياتهم لأنّهم زبائن لا أكثر.

لم ينتبه طارق إلى الأفكار التي كانت تدور في ذهن ميرال عندما أكبّ على الغداء وهو واقف، وقال:

ـ هذا الطعام يحتوي على الكثير من التوابل.

ـ لم لا تجلس وتأكل على مهل؟

ـ لا وقت لديَّ. إنّني مضطر إلى الخروج.

ـ ماذا تعني؟ أنا لا أستطيع الانتظار هنا. لديّ شوربة من على الموقد.

فقال طارق وهو يمضغ الطعام:

ـ البنات في البيت، وسوف يعتنين بها. القضيّة عاجلة يا زوجتي. لقد اصطدمت بالموزّعين. وإذا لم أحلّ المشكلة اليوم، فلن يكون لدينا ما نبيعه يوم غد، لا حليب ولا زبدة ولا بيض. كما أنّنا لن نتسلّم الخبز أيضًا.

فتنهّدت وسألت:

ـ وإلى أين أنت ذاهب؟

ـ آه، إلى الجانب الآخر من لندن اللعينة!

* * *

استقلّ طارق الحافلة لأنّه كان يمقت ركوب قطار الأنفاق لما تسبّبه له هذه القطارات من انزعاج عند تنقّله بواسطتها تحت سطح الأرض: عندما توافينا المنيّة، فإنّ الأمر سوف ينتهي بنا تحت التراب، فما الفائدة إذًا في الذهاب إلى تحت الأرض ونحن ما زلنا أحياء؟

لم يكن طارق يعرف ذلك الجزء المسمّى ساوث ـ ويست لندن الذي يتّجه إليه. فهو يقع على مسافة بعيدة، والحافلة تسير في بطء، غير أنّ السوّاق ليسوا مضربين على الأقلّ. كان يستشيط غيظًا لأنّه مضطر إلى الذهاب إلى مثل هذا المكان النائي ليحلّ ما يعتقد أنّه سوء تفاهم بسيط. ورتّب الحديث الذي سوف يجريه مع المدير، فقد نهره الرجل على الهاتف بأنّه لم يعد لديه أيّ عقد معهم. غبي! أخرج طارق ورقة مطويّة من جيبه الداخلي وتفحّصها. سوف يشعرون بالخزي إذا ما أظهر العقد أمامهم.

وللتعويض عن ذلك، فإنّهم سوف يلجأون إلى عرض حسم خاصّ عليه. وفي كلّ الأحوال، عليه أن ينهي هذا الاختلاف من فوره. إنّه رجل عصامي ولن يسمح لبيروقراطي جبان أن يحطّم سنوات من العرق والدماء والدموع.

غيَّر من الحافلة مرّتين، وشعر لاحقًا أنّ ساعات طوالاً قد مضت، وأخيرًا ترجّل في منطقة بركستون. على الرّغم من أنّ فترة ما بعد الظهر كانت باردة، فإنّ الشمس كانت ساطعة على نحو غير متوقّع مثل حفل مفاجئ. بعض أهالي الحيّ كانوا مستمتعين بالدفء ما دام موجودًا في زقاق كولد هاربور. ولاحظ طارق أبناء الإنكليز، أنوفهم الصغيرة محمرّة، بشرتهم شاحبة، وثيابهم على الدوام أخفّ ممّا ينبغي! كانت الأمّهات التركيّات يُلبسن أطفالهنّ سترات، واحدة من فوق الأخرى، ويضعن فوقها بطّانيّة من حياكتهنّ قبل أن يخرجن معهم إلى خارج البيت. أمّا الأمّهات الإنكليزيّات فكنّ يكتفين ببنطال قصير وسترة خفيفة؛ وفي بعض الأحيان لم يلبس الأطفال أيّ جوارب! لماذا لا يتجمّدون؟.. ولم يفهم طارق طول حياته أنّ القدرة على التعامل مع البرد يمكن أن تكون ثقافيّة في أصلها.

كان يفضّل التوقّف عند مقهى لتناول الشاي، ولكن هذا ليس من ضمن ميزانيّته. فهو الوحيد من بين أفراد أسرة طبرق الذي يمتلك من الحكمة وقوّة الإرادة ما يمكنه من توفير المال لاستعماله وقت الضرورة. كان خليل منفردًا بنفسه ويحيا حياته الخاصّة في أستراليا، ولم يستفسر منهم إن كانوا في حاجة إلى أيّ شيء. أمّا آدم، فلا أمل يرجى منه؛ فهو يقامر، ويسلّم كلّ ما يربحه من مال

للراقصة الروسيّة التي تتناولها الألسن بالأقاويل، وإن لم يكن طارق قد رآها حتى اليوم.

سار طارق في خطوات ثابتة وعلى مهل من أمام محلّ إسكافي ومكتبة دينيّة ودكّان خيري رثّ المظهر وصفوف من بيوت متماثلة مشيّدة بالآجر الأحمر.

وعلى العكس من الطريق العامّ، لم يشاهد طارق هنا أيّ عابري سبيل. بدت له المنطقة مهجورة، وكانت دار السينما نفسها ذات مظهر غريب وكأنّها أثر من آثار قرن آخر من الزمان. هذه المدينة موغلة في القدم، مملوءة بآثار الماضي. وقد عثر طارق ذات يوم على شظايا عندما حفر تربة حديقته.

وفكّر في حال ميرال في الدكّان في تلك اللحظة. ينبغي لها أن تتعلّم الإنكليزيّة في سرعة إن كانت تريد مساعدته في عمله. وربّما يتعيّن عليها أن تشتري معجم الجيب وتتأكّد من أنّها تحفظ عن ظهر قلب خمس كلمات في الأقلّ يوميًّا. لقد بقيت زوجته تعيش طوال هذه السنين في إنكلترا وهي لا تتكلّم سوى اللغة التركيّة في عالمها الصغير، ولم تكن لديها أيّة مشكلة. ولكنّه أدرك الآن أنّ ميرال يجب أن تحقّق ما هو أفضل من ذلك. فطارق لم يعد شابًّا، وبات الآن يتحمّل مسؤوليّة أسرتين ـ أسرته وأسرة شقيقه.

لكنّ اللغة الإنكليزيّة الضعيفة التي تتكلّم بها ميرال لم تكن السبب الوحيد لعلاقتها المتوتّرة مع الزبائن. لقد كانت جافّة في معاملة الزبائن، تصدر أحكامها عليهم كما تشاء، ولا تعرف كيف تسهر على خدمة الآخرين. وإذا كانت هذه المرأة قد أنفقت حياتها في العناية بزوجها وأطفالها وأقربائها وجيرانها، فإنّها، ويا للغرابة،

لم تتمكّن من الاهتمام بالغرباء، في حين أنّ زوجها، الذي لم يهتمّ بأيّ فرد داخل البيت أو خارجه، كان لطيفًا في معاملته الزبائن.

توارت الشمس من جديد عن الأنظار، من خلف سحب كثيفة رماديّة اللون. ثمّة عاصفة تنذر بالهبوب.. وطارق يحثّ خطاه مسرعًا بعد أن وصل أخيرًا إلى حيث وجهته.

* * *

كان اللقاء عنيفًا، إذْ لم يسمحوا لطارق بمقابلة المدير الذي كان لديه «اجتماع مهمّ». وكشف طارق للمعاون عن عقده وهو خائب الأمل، فأخبره هذا أنّ ثمّة شرطًا مفاده أنّ في وسع الشركة أن تطلب إجراء بعض التعديلات المحدّدة وأن تنهي العقد من دون إخطار سابق. فهدّد طارق بالبحث عن مجهّز آخر، فردَّ عليه: «كما تشاء».

وبعد مرور عشرين دقيقة، خرج من المبنى مهمومًا مغمومًا، ولكنّه ليس مهزومًا. ينبغي له أن يستفسر في الجوار قليلاً وأن يستمع إلى مشورة غيره من أصحاب الدكاكين في حيّ هاكني وأن يتّصل بشركة أخرى. المشكلة الوحيدة هي أنّه كان يجب أن يستمع الآخرون إلى مشورته وليس العكس. لديه سمعة لا بدَّ من الاحتفاظ بها. وعندما اقترب طارق من دار السينما، خفض من سرعة سيره وألقى نظرة متأنّية إلى الملصق المثبّت على الجدار خارج المبنى.

رجل من العالم الآخر

هاري هوديني

على الرّغم من أنّ طارق لم يكن من عشّاق السينما، إلّا أنّه كان يبدي اهتمامًا بحياة الساحر الكبير، لأنّ الرجل الذي يتمكّن من الفرار وهو معلّق رأسًا على عقب في صهريج مملوء بالماء، مقيّد الرسغين والقدمين، يستحقّ قدرًا من الاهتمام. وهكذا دخل البهو، ورنا إلى ما حوله. ثمّة لوحة معلّقة على الجدار تحتوي على عدد من الصور والمراجعات النقديّة. وبعد أن أمعن النظر، خاب أمله عندما علم أنّ الشريط قديم وصامت. أسود وأبيض بلا أدنى ريب. هل ثمّة من يشاهد مثل هذه الأشرطة؟

وفي حركة كأنّها تردّ على تساؤله، فُتحت أبواب مدخل الصالة وخرج منها شابّ وشابّة إنكليزيّان. لقد انتهى الشريط وبدأ الروّاد القلائل يغادرون. وشاهد طارق امرأة من وراء الشابّين كانت تتابع طريقها نحو باب الخروج، وعيناها مسمّرتان على الأرض.

خطا طارق إلى أمام غير متعمّد، كأنّه يريد أن يقبض على

زوجة أخيه. . كاد أن يهتف باسمها، أن يسألها عمّا كانت تفعله في هذا المكان بمفردها، وأن يعرض عليها مرافقته إيّاها إلى البيت عندما شاهد رجلاً في خريف العمر يتقدّم من بمبي. أمسك بها من ذراعها وتمتم بشيء ما في صوت خافت وناولها قصاصة ورق أخذتها منه مبتسمة، ووضعتها من فورها في جيبها.

وقف طارق من خلفهما مشدوهًا، مشوّش العقل، مقلّبًا بصره إلى الأمام وإلى الخلف من تحت ملصق إعلاني يقول:

ما من شيء على وجه الأرض يمكنه وضع هوديني في السجن.

* * *

القــرار

لندن، تشرين الأوّل ١٩٧٨

عندما اقترب اسكندر في صباح يوم السبت من المقهى الذي سيلتقي فيه كاتي، ألمّت به الدهشة وهو يرى طارق يقف خارج المقهى يذرع الأرض جيئة وذهابًا، جاذبًا لحيته في قوّة.

ـ ما الذي تفعله هنا يا عمّاه؟

ـ إنّني أنتظرك. لقد عرَّجت على مقهى كهف علاء الدين فأخبرني أصدقاؤك أنّك ربّما في هذا المكان.

تقلّبت معدة اسكندر وفكّر في نفسه: ترك عمّي طارق دكّانه أثناء ساعات الافتتاح للبحث عنّي؟ ثم قال:

ـ هل كلّ شيء على ما يرام؟

ـ ينبغي أن نتحدّث. حديث رجل لرجل.

ـ هل الموضوع يخصّ النقود التي أعطيتني إيّاها في ذلك اليوم؟

ـ آه، اخرس، واستمع إلى ما سأقول.

ـ لكن يتعيّن عليَّ أن ألتقي شخصًا ما الآن.

فقال طارق في صوت تشوبه حشرجة:

ـ لا تقلق لهذا الأمر.

لم يدرك اسكندر إلّا في تلك اللحظة شدّة توتّر عمّه، وتصبّب العرق من جسده وكأنّ النهار قائظ. وجلس الاثنان على سور حديقة قريبة، يخيّم عليهما صمت ثقيل. أشعل طارق سيكارة، في حين فكّر اسكندر إنْ كان في وسع كاتي أنْ تشاهدهما من حيث تجلس داخل المقهى، وما الذي يتعيّن عليه قوله لها إنْ خرجت وسألته عمَّا يدور بينهما.

وقال طارق:

ـ أيّ بنّي! لديّ خبر مزعج لك.

ـ نعم، أظنّ ذلك.

جذب طارق أنفاسًا مرتبكة من سيكارته، وكان الدخان يخرج من بين منخريه، وأخيرًا قال في صوت بالغ الهدوء:

ـ الأمر يخصّ والدتك.

* * *

دخل اسكندر المقهى مطبق الشفتين، حادّ النظرات، ممتقع الوجه وكأنّه شبح. سار في اتّجاه كاتي التي كانت تنتظره من حول طاولتهما المألوفة، توشك أن تفرغ من تناول كعكة صغيرة مدوّرة، وتحتسي ما تبقّى من ثاني كأس من مزيج الحليب بالموز والفراولة.

قالت كاتي متنهّدة:

ـ تأخّرت من جديد!

ـ آسف.

ـ لقد اعتدت تأخّرك كما تعلم، ولكنّني كنت أتوقّع أن يكون موعدنا اليوم مختلفًا. فكّرت أنّك سوف تهتمّ بشخص آخر.

أمسك اسكندر يدها وقبّل أطراف أصابعها.

ـ لماذا تتذمّرين؟

ـ لماذا؟ وكأنّك لا تعرف السبب.

ثم توقّفت عن الكلام وكأنّها توشك أن تقول شيئًا آخر، بيد أنّها انفجرت باكية.

أخرج اسكندر مبلغًا من المال من جيبه ووضعه في راحة كفّها.

ـ سوف يساعدك هذا المال قليلاً.

ولمّا رآها صامتة، أضاف:

ـ حصلت على المال من عمّي، ولم تسنح لي الفرصة لأعطيه لكِ لأنّك كنت لا تريدين رؤيتي.

ـ حسنًا، قلت لك إنّني أريد أن أفكّر في الموضوع مليًّا، بمفردي.

ـ إذًا؟

ـ إذًا، أعد النقود إلى مكانها.

قالت كاتي ذلك في حدّة وتراجعت إلى الوراء وكأنّها لمست قطعة متّقدة من الجمر.

ـ ماذا تعنين؟

ـ غيَّرت رأيي يا أليكس.

ـ غيَّرتِ ماذا؟

ـ لا تنظر إليَّ مثل هذه النظرة... كلّ ما هناك... أنّني لم ألجأ إلى الإجهاض، لأنّني أريد الطفل.

فهتف اسكندر مندهشًا:

ـ هل أصابك مسّ من الجنون؟

ثم خفض صوته ومضى قائلاً:

ـ أنتِ ما زلتِ في السادسة عشرة من عمرك. وسوف تصاب والدتك بنوبة قلبيّة.

ـ لا بأس. إنّها تعرف بالأمر.

ـ لا بدَّ أنّك تمزحين.

همس اسكندر وقد استبدّ به شكّ جديد:

ـ آه، فهمت. إنّها هي التي غسلت دماغك.

ـ هذا غير صحيح. لماذا تنزعج كلّما ذكرتها.

ـ لأنّنا تحدّثنا عن هذا الموضوع مرارًا وتكرارًا، واتّخذنا قرارًا مشتركًا! وذهبت إلى عمّي وحصلت على النقود. وقد عثرت على العيادة الطبّيّة، وحدّدت لك موعدًا. وقد لبثتِ تؤجّلين الذهاب مرّة، مرّتين.. وأخيرًا قرّرنا أن نذهب. والآن تقول الأميرة إنّها غيَّرت رأيها!

بدأت كاتي تبكي من جديد، لكن بكاءها كان مختلفًا هذه المرّة، خاليًا من الشفقة على الذات. وسقطت دمعة في كأس

العصير تاركة نقطة مالحة من فوق سطح العصير الوردي اللون.

ـ هذا الطفل ثمرة الحبّ، وله الحقّ في أن يولد.

ـ هراء، يا كاتي ايفانز.

فاحتجّت قائلة:

ـ لا، ليس هراءً. إنّني أشعر منذ الآن أنّني مرتبطة به... أو بها، مهما كان. لقد مضت ثلاثة أشهر على هذا الحمل.

ـ ماذا؟ لماذا لم تخبريني؟

قالت في غَلَظة:

ـ أنا شخصيًّا لم أعرف. لكن لا يهمّ. فعندما يولد طفلنا، أريد منك أن تأتي لتعيش وإيّانا، أنا وأمّي.

عقد اسكندر ما بين حاجبيه.

ـ هل تؤمنين بهذه التفاهات؟ لقد جنّ جنونك!

دفعت كاتي كرسيّها إلى الوراء في قوّة محدثة صريرًا، وقالت في صوت حادٍّ وعالٍ ينمّ عن مشاعر جريحة وآلام نفسيّة، صوت لا سبيل الى معرفة صاحبته:

ـ لن أجلس هنا لتكلّمني مثل هذا الكلام. إنّني خارجة.

ـ إلى أين ذاهبة؟

ـ إلى البيت. لأستلقي. أمّي تقول إنّني لا ينبغي أن أرهق نفسي كثيرًا.

ضرب اسكندر على الطاولة ضربة قويّة جعلت بعض الزبائن يختلسون نظرة خاطفة إليهما. لكن كاتي لم ترعوِ:

ـ أقول لك ما يأتي: لِمَ لا تهدأ قليلاً وتفكّر في بعض الأسماء؟ قم بتهيئة اسمين من أسماء البنين والبنات.

لبث اسكندر جالسًا هادئًا يدخّن سيكارته تدخينًا عميقًا، واضعًا رأسه بين يديه، معدته تتقلّب من جديد. لم يرفع بصره إلى أعلى، وكان يشعر أنّ النادل يراقب هذه المشاهد الصغيرة وهي تبدأ، مفكّرًا في الشيء الذي ينبغي له أن يفعله بعد أن اندفعت صديقته ومضت في سبيلها لا تلوي على شيء. في هذه اللحظة، لم تكن لديه الرغبة لرؤية أصدقائه أو الذهاب إلى البيت. أكل ما تبقّى من كعكة كاتي ودفع عنه الفتات التي تساقطت في حضنه. وتمنّى لو أنّه تمكّن من فهم تلميحات العمّ طارق الفظيعة من دون أن يترك أثرًا منها. ولمّا شعر أنّه في كامل وعيه، أخرج أحد الكرّاسين اللذين أعطاهما له الخطيب قبل فترة وجيزة من الزمان، وكان يحملهما معه في داخل جيب سترته ولم يفتحهما. حاول أن يطوف وسط الجملِ الرنّانة، ولكنّ الكلمات كانت تنزلق في مجموعة مشوّشة من الحروف. وسرعان ما تخلّى عن القراءة ونادى على النادل ليطلب طعامًا أكثر ممّا يقدر على تناوله. على أيّة حال، لديه المال.

* * *

أمّ

لندن، تشرين الأوّل ١٩٧٨

قاد يونس درّاجته على امتداد شارع ريتشموند؛ تداعب الريح خصلات شعره الناعم. كان يرتدي قميصًا أبيض، مزرّرًا في إحكام إلى رقبته التي بدت ورديّة اللون تبعث على الخوف. لم يفكّ أيّ زرّ من أزراره لأنّه كان يعتقد أنّ ذلك يجعله وسيمًا أكثر. يضاف إلى ذلك، كانت ثيابه منسجمة تمامًا مع السترة الجلديّة التي وإنْ بدت كبيرة الحجم على جسده، إلّا أنّها كانت أكثر الثياب التي ارتداها خفّة. وجنتاه متّقدتان من العار الذي شعر به.

في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم، نهض يونس من فراشه وأمامه مهمّة ينبغي أن ينفّذها. سار على أطراف أصابع قدميه تحت النور الباهت الذي يضيء الممرّ، واتّجه نحو غرفة شقيقه. كان اسكندر قد عاد متأخّرًا ليلة أمس بعد أن شارك في الملاكمة، وبات منهمكًا. كان يشخر شخيرًا واهنًا، مكوّرًا مثل كرة، رأسه من تحت الوسادة. السترة التي اشترتها له أمّه لمناسبة عيد ميلاده الأخير

مرميّة فوق أحد الكراسي. الجدران مغطّاة بملصقات: حرب النجوم، محمّد علي في الحلبة، طريق التنّين لبروس لي، سوبرمان يطير من فوق مانهاتن، جيمز دين يقود درّاجة بخاريّة، الراية البريطانيّة، كيني بيرنز في مواجهة فرانك ستابلتون في أرسينال ضدّ نوتنغهام فوريست.

وشعر يونس وهو يختلس النظرات من حوله بحسد لم يعرف أنّه يتّصف به. لاسكندر عالمه الخاصّ به في هذا المكان. أدوات رياضيّة، مدرّبون، والأهمّ من هذا كلّه الحرِّيّة. لا أحد يفسد عليه حياته كما يبدو أنّه غير مدين بأيّ تفسير لأيّ إنسان. ليس هذا عدلاً. وعرف يونس أنّه ليس الوحيد الذي تراوده مثل هذه الأفكار.

وضع يونس ذراعيه في السترة الجلديّة بعد أن عثر على شيء جديد يسرقه، مرتبكًا وجذلاً، مرتبكًا لأنّه كان يسرق شيئًا من أخيه، وكانت تلك السرقة سرقة حتى إنْ كان سيعيد ما سيأخذه في ذلك المساء. وشعر أيضًا بالجذل فضلاً عن شعوره بالضخامة إلى حدٍّ ما، بعد أن طمأن نفسه أنّ توبيكو سوف تعجب به إعجابًا أكبر وهو يسلك هذا السلوك. كانت السترة باردة، آخر صيحة. المؤكّد أنّ توبيكو سترى أنّه لم يعد ذلك الصبي الصغير.

في تلك اللحظة، تقلّب اسكندر في سريره، وانحرف رأسه قليلاً من فوق الوسادة. فكتم يونس أنفاسه ووقف من دون حراك. وانتظر حتى تأكّد من أنّ شقيقه يغطّ في نوم عميق. تذكّر الأيّام التي كان فيها بابا يؤنّب اسكندر ويعاقبه لكلّ غلطة يرتكبها. على أيّة حال، تلك أحداث من الماضي البعيد. والآن، يعتقد اسكندر،

كما يبدو، أنّه مسؤول وأنّه غضبان، والوصول إليه بالغ الصعوبة. ليت ماما وقفت في وجهه وجعلته يوافق أنّها هي الزعيم، ولكنّها متحفّظة ومشتّتة الفكر وباردة أكثر ممّا ينبغي.

السرّ. بذل يونس قصارى جهده، ولكنّه لم يستطع أن يكره الرجل الذي شاهده رفقة ماما. من هو؟ كيف يمكنه جعلها تبتسم تلك الابتسامة بعد أن عجز الكلّ عن فعل ذلك؟ هل يحاول إبعادها؟ غير أنّه لا يستطيع أن يطرح السؤال. لا يستطيع الحديث. لا أحد يستطيع.

وبينما كان يونس يقود درّاجته في سرعة وقوّة مرتديًا سترته، قرّر ألّا يتزوّج أبدًا. فوضى تضرب أطنابها في كلّ مكان، موغلة في الإيلام. ما السبب الذي يدفع كثيرًا من الناس إلى الزواج، بينما لا يريد إلّا عدد قليل حقًّا البقاء متزوّجين؟ كان يونس يهوى العيش في بيت جماعي ولكنّ الشيء الوحيد الذي كان لا يعجبه بخصوص مثل هذا البيت هو انتشار القاذورات والغبار فيها. وبخلاف ذلك، فإنّ قناعته كانت كبيرة بأنّ الحياة التي قضاها في ذلك البيت رفقة الصبيان كانت سعيدة جدًّا. وعندما يكبر، سوف يلجأ إلى بيت آخر رفقة توبيكو بدلاً من تأسيس أسرة، وسيكون لديهما عدد كبير من الأصدقاء وكمّيّات كبيرة من الطعام في البرّاد، وإذا ما أضحى لديهما أطفال، فسوف يعملان على تنشئتهما معًا.

ركن يونس درّاجته الهوائيّة إلى سور خشبي وأقفلها، وحثّ خطاه إلى المنزل الذي تملكه أمّ الزعيم. ولدهشته البالغة، وجد الباب مواربًا، ففتّش الحجرات في الدور الأرضي والمطبخ والحمّام، ولكنّه لم يجد أثرًا للصبيان. وفكّر في احتمال أن يكونوا

قد خرجوا لشراء بعض الحاجيّات أو لجمع قطع الأثاث من الجوار. كلّ شيء هادئ سوى أصوات تنبعث من حنفيّة يقطر منها الماء وصرير الأنابيب. قرّر يونس أن ينتظر في غرفة المعيشة يقلّب كومة من المنشورات والكتب الهزليّة والنشرات الإعلانيّة المجّانيّة ـ وكانت إحداها قد نشرت صورة شابّ يحطّم واجهة محلّ زجاجيّة.

وكانت ثمّة عبارة من تحت الصورة تفيد:

الدولة تشنّ حربًا اجتماعيّة على رعاياها.

أتعرفون السبب؟

لأنّ تلك هي وظيفتها. هذا هو معنى الدولة.

قاوموا أجهزة الدولة الإيديولوجيّة.

قاوموا سعادتهم الإجباريّة.

لم يكن يونس يعرف معنى الأجهزة الإيديولوجيّة، ولكنّه كان يملك فكرة عن معنى «الدولة»: امرأة منتفخة الصدر، جذّابة الشخصيّة ومؤثّرة. كلّما كانت ماما ترغب في أن تطري على إحدى النساء لما تملكه من قوّة ومهارات، فإنّها كانت تقول: هذه امرأة، دولة في ذاتها. لكنّ الشيء الذي لم يفهمه إنّما هو السبب الذي يجعل الصبيان منزعجين من مثل هؤلاء النساء وأجهزتهم.

كان الفتى يواصل تقليب النشرات عندما جفل لدى سماعه صوت موسيقى صادحة. وأدرك من فوره شيئين اثنين: إنّ الصوت قادم من الدور العلوي، وإنّه أشبه ما يكون بصوت أغنية جذّابة من أغاني البوب التي كان الصبيان ينفرون منها نفورًا شديدًا. لم يكن من شأن الصبيان أن يستمعوا إلى مثل هذه الموسيقى. وافترض أنّ

السيّدة باول ربّما كانت هي التي تستمع إليها. لكن هذا الاحتمال غريب أيضًا، إذْ تذكّر مدى البؤس الذي كان يلوح على تلك المرأة عندما التقاها، ولم يستطع أن يتصوّر المرأة نفسها مَنْ تستمع إلى مثل هذه الأغنية المرحة!

ارتقى يونس السلالم بدافع حبّ الاستطلاع وتمكّن من سماع صوت امرأة يرافق الموسيقى، فتوقّف أمام الغرفة وطرق الباب، وانتظر. ثم طرق ثانية. ولمّا لم يسمع أيّ ردّ، اختلس نظرة.

رأى توبيكو في وسط الغرفة مغمضة العينين إلى حدٍّ ما، تمسك بيديها فرشاة شعر، بينما راح جسدها يهتزّ ويتموّج وهي تغنّي وترقص. كانت قد دفعت الأثاث جانبًا ليكون ثمّة متّسع في الغرفة، وأسدلت الستائر لتحجب ضوء النهار الذي لم يتسلّل منه داخل الغرفة إلّا شعاع قليل. وفي هذا الجوّ المعتم، بدت طويلة ونحيفة، لا تشبه نفسها تمامًا.

تسمَّر يونس في مكانه، دهشًا من الأميرة التي أحبّها. وبعد برهة بدت له دهرًا، انتهت الأغنية: تيك تشانس أون مي.. غنّت توبيكو مستخدمة مكبّرة صوت، وجثت على ركبتيها تهزّ رأسها، بينما انشغلت يدها في رسم حركات لولبيّة في الهواء، هي مزيج من أغاني البوب السويديّة والرقص الهندي. وما إن انتهت الأغنية حتى فتحت عينيها، متنبّهة إلى أنّ ثمّة من دخل الغرفة. فالتفتت نحو الباب وشهقت.

ـ آه، يونس! لقد أرعبتني!

تمتم يونس:

ـ معذرة. لم أقصد إرعابك.

نهضت توبيكو، دائخة إلى حدٍّ ما، وحاولت أن تبتسم ابتسامة خجول تعوزها الثقة بالنفس. ثم وضعت فرشاة الشعر من فوق منضدة الزينة، وأطفأت جهاز التسجيل وفتحت الستائر فرمشت عيناها من تحت الضوء.

ـ ماذا تفعل هنا؟

أجاب يونس:

ـ جئت لأراكِ، فوجدتُ الباب الأمامي مفتوحًا. ما الذي كنت تصغين إليه؟

فأجابت توبيكو متمهّلة:

ـ آه، كنت أصغي تزجية للوقت. للسيّدة باول عدد كبير من هذه الأغاني التافهة.

ـ وأين هي؟

ـ لديها موعد عند الطبيب، ولن تعود قبل الساعة الثالثة.

ثم خفضت من صوتها حتى أضحى همسًا:

ـ أظنّها ذهبت إلى طبيب نفساني.

قال يونس متأمّلاً:

ـ حقًّا؟ كانت مكتئبة اكتئابًا شديدًا.

ثم استبدّت به فكرة أخرى، فقال:

ـ الموسيقى التي كنت تستمعين إليها هي لفريق آبا. صحيح؟

ـ كيف تعرف ذلك؟

قال يونس مبتسمًا:

ـ ماما تحبّها أيضًا.

ـ حسنًا. أنا لا أحبّها، لأنّها لا تلائم مزاجي وهي تافهة جدًّا. ما رأيك؟

نظر يونس إلى توبيكو نظرة ملؤها الدهشة، فهذه هي المرّة الأولى منذ أن التقيا، يجد فيها فتاة صغيرة. وأدرك أنّه لم يكن هو وحده الذي حاول أن يبدو أكبر سنًّا وأشدّ غلظة ممّا هو عليه.

قالت توبيكو من دون أن تدرك ما يدور في ذهنه:

ـ لديك سترة جميلة.

فقال يونس:

ـ شكرًا لك.

لكنّه لم يترك الموضوع يذهب سدًى.

ـ أتعتقدين أنّ في إمكانك إعادة تلك الأغنية كي تعلّميني ماذا كنت تفعلين؟

فتبسّمت توبيكو ابتسامة ماكرة.

ـ أتريد أن تراقصني أيّها التويج؟

على الرّغم من تورّد وجنتي يونس خجلاً، إلّا أنّه لم يتراجع.

ـ نعم. لِمَ لا؟

وافقت توبيكو.

ـ حسنًا. لكن ما دام أنّك قدّمت هذا العرض، فإنّني أفضّل أن أرتدي ثيابًا جميلة.

فتح الاثنان الخزانة، فاستبدّت بهما الدهشة عندما شاهدا أنّها تحتشد بالملابس والإكسسوارات والأحذية والقبّعات الفخمة.

قالت توبيكو:

ـ لا بدَّ أنّ هذه السيّدة تنفق كلّ مالها على الثياب.

فقال يونس:

ـ ليس لديها ثوب أسود.

لكن توبيكو لم تأبه لقوله وهي المرأة التي لم تلبس سوى ثياب الشابّات غريبات المظهر، ورنت في دهشة إلى وشاح أرجواني وتنّورة بلون الصوف وقميص ليلكي. وثمّة رداء ليلي يتألّق بنثار معدني، وسترة بنّيّة ومعطف طويل من الفرو يصل الكاحلين، ناعم الملمس.

أخرجت توبيكو ثوبًا طويلاً من الساتان والتفتا، ذا لون أرجواني فاتح جدًّا وكأنّه مائل إلى البياض، ضيّق الخصر وبحمّالتي كتف رفيعتين جدًّا. وكانت تزيّنه مئات المجوهرات.

قال يونس:

ـ سوف تظهرين غاية في الجمال إذا ما ارتديت هذا الثوب!

لكنَّ توبيكو هزّت رأسها وكأنّها وجدت الفكرة منافية للعقل؛ ولكنّها قالت بعدئذٍ:

ـ هل يمكنك أن تتركني وشأني بضع دقائق؟ لا تأتِ حتى أناديك.

انتظر يونس في الممرّ وقتًا بدأ له كأنّه الدهر كلّه. ولمّا دعته للدخول، وجد أمامه امرأة مختلفة، امرأة لها وشم توبيكو وعيناها، أمّا غير ذلك فليس له صلة بها. كانت قد أرخت شعرها وتخلّصت من مساحيق التجميل، واستبدلت صبغ الشفاه الأسود بآخر وردي. أمّا ظلال العينين فقد أزيلت تمامًا. وبدلاً من الجوارب الشبكيّة

الممزّقة، ارتدت جوارب ضيّقة بلون البشرة. واحتذت بحذاء ذهبي وأقراط ماسيّة، وافترّ ثغرها عن ابتسامة خجول. أمّا جوّ الغرفة فكان معبقًا بعطر جذّاب وساحر.

أطلق يونس صفيرًا على النحو الذي علّمه إيّاه اسكندر، وقال:

ـ أنت تبدين وكأنّك...

ولكنّه أمسك عن الكلام مدركًا أنّ ما من كلمة تمتلك قوّة كافية لتصف ما تشاهده عيناه، فتجرّأ وأكمل عبارته:

ـ أنت تبدين ـ وكأنّك دولة!

فضحكت توبيكو، وقالت وهي تبسط ذراعيها:

ـ أنا الدولة.

ثم أمسكت فرشاتيْ شعر، واحدة لها وواحدة ليونس. ثم فتحت جهاز التسجيل، فانطلقت الموسيقى وبدأ الاثنان يخطوان خطوات أنيقة على المسرح، يدًا بيد، والابتسامة تعلو وجهيهما. آلاف الناس جاؤوا للاستماع إليهما في هذه الليلة. التذاكر نفدت كلّها منذ أسابيع، الكثيرون ينتظرون خارج قاعة الموسيقى. عزف يونس على البيانو وعلى الغيتار والطبول والساكسوفون، خفيفًا مثل ريشة، باردًا في سترته الجلديّة. أمّا هي، فقد غنّت ورقصت، ورفرفت تنّورتها. وعند كلّ عبارة تتكرّر في الأغنية، يقفان ظهرًا لظهر، ويميل أحدهما نحو الآخر، فيجنّ جنون المشاهدين.

ولمّا انتهت الموسيقى، كانا الاثنان على الأرض يلهثان. وطوّقت توبيكو يونس بذراعيها، وقالت:

ـ سألتني في ذلك اليوم عن الأسرار. حسنًا، سيكون حبّنا

لفريق آبا هو سرّنا. عدني أن تحافظ عليه.

في عصر ذلك اليوم، عرف يونس أشياء عن توبيكو لم يتخيّل قطّ أنّها يمكن أن تكون صحيحة. فقد دخّنت سيكارة وهي ما تزال مرتدية زيّ فريق آبا، واعترفت له أنّها لم تهجر صديقها السابق توبي، بل إنّ الأمر كان معكوسًا، إذْ إنّه هو الذي تخلّى عنها محطّمًا بذلك قلبها. ثم التقت من بعد ذلك الزعيم، ولكنّها لم تحبّه وإن كانت غير قادرة على التخلّي عنه. كانت في السابق أكثر جرأة، ولكن بمرور كلّ يوم، تجد نفسها وقد غدت أكثر اعتمادًا وأكثر تعلّقًا. وقالت إنّ سبب ذلك كلّه يرجع إلى أنّها مصابة بعقدة اليكترا التي لا سبيل إلى علاجها. فهي تضاهي الرجال الذين تحبّهم بوالدها، ولكنّها على الرّغم من ذلك تنافس والدتها. ثم أطلعت يونس على قصيدة قصيرة بعنوان «أمّ». ولكن في اللحظة التي بدأ يونس بقراءتها، صكّت مسامعهما أصوات وقع أقدام في الدور الأرضي. لقد عادت السيّدة باول.

قالت توبيكو مذعورة:

ـ آه، تبًّا.. لا.

وقال يونس:

ـ لا تقلقي. سأهبط إليها وأشغلها ريثما تغيّري ملابسك.

ثم وضع القصيدة في جيب سترته وهرع يهبط السلالم.

* * *

رشق اسكندر وهو جالس إلى مائدة العشاء يونس بنظرة تنمّ عن تهديد ووعيد، ولكنّه رفض أن يسأله عن مكان سترته التي

اختفت طوال النهار. وبعد العشاء، قال إنّه سيخرج للتنزّه قليلاً.

فهو يرغب في زيارة الصبيان ويلعب لعبة سنوكر مدّة وجيزة من الزمان، إلّا أنّه بحاجة إلى أن يستجمع شتات أفكاره. وعلى الرّغم من اعتراض والدته، مضى في سبيله من غير أن يكترث لها. فمنذ أن تحدّث إلى عمّه، كان يعامل أمّه معاملة باردة وإن لم يواجهها.

كان المساء باردًا ومنعشًا، فجذب اسكندر قبّة سترته وحشر يديه في جيبه. شيء ما في جيبه. قصاصة ورق. أخرجها وقرأها تحت عمود النور في الشارع.

حوَّل اسكندر القصاصة من يد إلى أخرى ودعكها قبل أن يرمي بها في سلّة النفايات. شخص ما يمارس اللعب وإيّاه. حاول طوال الليل أن يعرف من هو، ولمّا عجز، عاد إلى السطرين الأخيرين من الرسالة اللذين ظلّا يدوران مرارًا وتكرارًا في ذهنه:

الأمّ تكذب، الأمّ تكذب

وهي ليست المرأة التي تقول إنّها هي.

* * *

سجن شروزبيري، ١٩٩١

يوم بطيء. بطيء على نحو مؤلم. أعمل في مغسلة الثياب حتى الساعة الحادية عشرة والنصف. أرجع لتناول وجبة الغداء. أقرأ كتابًا بعد الظهيرة وأستمع إلى زيشان وهو يهذر في موضوعيْ الحبّ والانسجام. وفي تمام الساعة الرابعة تقفل الأبواب علينا. وبعد انقضاء نصف ساعة يأتي الضابط ماك لوخلين.

يقول:

ـ يبدو أنّك سوف تستقبل زائرًا عمّا قريب.

ـ من هو؟

ـ لماذا لا تنتظر حتى ترى بنفسك.

أنا شخصيًّا لم يزرني أحد باستثناء أسماء، كما أنّها توقّفت عن المجيء في هذا العام. ولكنّني في دهشة من أمري، إذْ أرى الضابط ماك لوخلين يؤكّد الزيارة. ففي ضوء سجلّي الحافل مؤخّرًا، فإنّه يتمكّن من منع حدوثها من دون اعتراض. أقضي بقيّة المساء مفكّرًا وكأنّني عصفور في عشّه. وهنا أدرك أخيرًا أنّ الضابط ماك لوخلين يعلم جيّدًا أنّ كلّ من يأتي لزيارتي سوف يفقدني توازني ويربكني. فهو يعوّل على هذا الشيء. فأنا أحمي نفسي داخل قوقعة لا يدخلها أحد، ولكن ثمّة عددًا قليلاً من الناس الذين في وسعهم تحطيم أعصابي. عدد قليل جدًّا. في وسعهم اختراق درعي مثلما يخترق شبح الجدران.

يقول زيشان:

ـ تبدو قلقًا.

لا أنكر ما قاله سواء أكان سؤالاً أم ملاحظة.

ـ نعم، ممّا يبعث على تحطيم الأعصاب ألّا أعرف من ذا الذي سيحضر لزيارتي يوم غد.

فيقول زيشان:

ـ نحن لا نعرف ماذا سيحدث يوم غد، ولكنّنا نبدأ على الدوام يومًا جديدًا ونحن في أمل.

لست في مزاج رائق كي أستمع إلى هذا الهذيان. لهذا السبب

أستلقي على سريري وأغمض عينيّ عن العالم الخارجي. يبدو أنّه يوم سيّئ آخر. لقد مررت بأيّام كثيرة سيّئة في حياتي. لكن ثمّة يومًا واحدًا هو أسوأ الأيّام قاطبة: الصباح المقبل.

في الصباح الذي يعقب اقترافك جريمة، تستيقظ من ليل لا قرار له. في مكان ما من دماغك، ثمّة علامة، ضوء أحمر يومض. تحاول تجاهله. ثمّة فرصة، مهما كانت ضئيلة، في أنّ كلّ ذلك كان حلمًا، تتشبّث بتلك الفرصة، مثل رجل يسقط، ولكنّه يمسك بأوّل حبل يشاهده. تمرّ دقيقة واحدة. ساعة. وتفقد الإحساس بالوقت حتى تحين اللحظة التي تُفاجأ بها: فالحبل ليس مربوطًا بأيّ شيء، طرفه سائب. فتصطدم بالواقع، رأسك أوّلاً.

ها أنا في ذلك المكان، في لافندر غروف، ممسكًا في يدي سكّينًا. أسمع صوت الصراخ. عويل لا نهاية له. شخص ما يولول. الصوت، يا للغرابة، صوت أمّي. لكن هذا غير معقول، لأنّها مستلقية على الأرض، تنزف دمًا. يزداد الصدى في رأسي. أرنو إلى يدي اليسرى. يدي الأقوى، ولكنّني أجدها مرتخية وكأنّها كانت ملتصقة بجسدي التصاقًا موقّتًا وأضحت الآن يد شخص آخر. أرمي بالسكّين من تحت سيّارة واقفة. لو تمكّنت، لرميت يدي أيضًا.

بدأت أركض. سترتي ملطّخة بالدم. لا أستطيع أن أوضح السبب في عدم محاولة أيّ شخص الإقدام على إيقافي. ولكنّهم لم يوقفوني. اندفعتُ في الأزقّة والحدائق الخلفيّة، من دون أدنى فكرة عن المكان الذي كنت أقصده.

ممّا لا ريب فيه أنّني قطعت عددًا من الطرقات، واصطدمت

بناس وأثرت مخاوف كلاب. لا أتذكّر. نصف الساعة القادمة مربك، ولكنّني أتذكّر أنّني عثرت على هاتف.

اتّصلت بالعمّ طارق، وأخبرته بما فعلت. ران صمت أخرق. ظننت أنّه لم يسمع ما قلت، لهذا السبب أعدت عليه القول، قائلاً له إنّني عاقبت أمّي بسبب علاقتها الغراميّة المحرّمة. ومن الآن فصاعدًا، لن تفعل مثل هذا الشيء ثانية. قلت إنّ جرحها ليس بليغًا، ولكنّه سوف يستغرق مدّة من الزمان كي يتماثل للشفاء. كنت قد طعنتها طعنة واحدة في الجهة اليسرى من صدرها لكي تتبيّن مدى فظاعة الإثم الذي اقترفته. وسوف يمنحها ذلك وقتاً تفكّر في غلطتها وتندم عليها. وسوف ترتعد فرائص ذلك الرجل، فيتركنا وشأننا. لقد غُسل شرف الأسرة.

بدا صوته مختنقًا:

ـ ماذا فعلت يا بنيّ؟ هذا فظيع!

جفلت؟

ـ و... ولكن... تحد... ثنا... ع... ن... هذا.

وقال عمّي:

ـ لم نتكلّم بلا أدنى شكّ.

كان الرجل الذي أخبرني بكلّ شيء، وألحَّ عليَّ مرّات ومرّات بأنّني يجب أن أتصرّف ومن فوري، تبخّر في الهواء. صُعقت.

ـ عليك أن تخبر الشرطة يا ولدي اسكندر. وسوف أخبرها أنّ هذا هو ما قلته لك تمامًا عندما اتّصلت بي هاتفيًّا، فأنت لا يمكنك أن تهرب من القانون!

وعلى حين بغتة راودني شكّ غريب وهو أنّ عمّي طارق قد تدرّب على هذه اللحظة. هل كان ينتظر كلّ هذا؟ يهيّئ خطاباته، وما سيقوله لي هاتفيًّا، وماذا سيشاطر أولد بيل، وماذا سيعلن في المحكمة. لقد هيّأ نفسه لكلّ شيء.

ـ هل تسمعني يا بني؟ أخبرني عن مكانك!

تريّثت وخلعت سترتي ورميتها في سلّة نفايات، وبعدها توجّهت إلى منزل كاتي في البيون درايف. كنت قد أوصلتها إلى بيتها سيرًا على الأقدام مرّات كثيرة، ولكنّني لم أدخله. قرعت الجرس، فارتحت كثيرًا عندما فتحت هي نفسها الباب لي.

قالت وقد أشرق وجهها عن ابتسامة:

ـ أليكس! يا لها من مفاجأة! كنت أعرف يا عزيزي أنّك سوف تأتي.

قادتني كاتي داخل المنزل وقالت إنّ أمّها سوف تكون مسرورة عندما تعلم أنّني قرّرت أن أحضر وأن أعيش وإيّاهم. طوّقتني بذراعيها وكانت بطنها المنتفخة والصلبة تفصل بيننا. لم يبدُ عليها أنّها حامل في شهرها الرابع، كما أظنّ، بل لاحت وكأنّها قد بلعت كرة.

طلبت من كاتي أن ترشدني إلى الحمّام، حيث غسلت يديَّ. الشخص الظاهر في المرآة لم يكن مختلفًا عن الشخص الذي رأيته في الأيّام الماضية. توقّعت إلى حدٍّ ما أن يكون هناك شيء غريب على وجهي، عينيّ، ولكن لم يكن هناك أيّ شيء. غسلت يديَّ من جديد، وفركتهما فعثرت على قاصر، فسكبته في راحتي كفّيَّ، ثمّة جروح في كفّيَّ، فشعرت بألم رهيب. ولكنّني

استمررت في الفرك. ثمّة شيء ما تحت أظافري: قذارة؟ صبغ؟ دم؟ لا يريد أن يزول.

جاءت كاتي لتسألني إن كان كلّ شيء على ما يرام، ثم عانقتني. أنعمت النظر في المرآة. أنا وهي وطفلنا. وشعرت بالفخر والاعتزاز. ولاحظت أنّها كانت تبتسم الابتسامة نفسها التي تلوح على وجه «سيّدة القصر». يا له من إحساس بالنجاح!

أغلقت صنبور الماء، وقالت:

ـ نظافتك كافية لي يا حبيبي.

ذهبنا إلى غرفة المعيشة، وكانت والدة كاتي جالسة تنتظرنا فوق كرسيّ بالقرب من النافذة، تتدثّر بدثار حريري يشبه ما نراه على شاشة التلفاز. أزرق ملكي. يمكنك أن تشاهد نهديها، والنمش الذي يغزو جميع أجزاء صدرها، وكأنّه جوز الطيب. كانت قد مشَّطت شعرها مؤخّرًا، وطلت شفتيها بأحمر الشفاه. من ينظر إلى رأسها، يعتقد أنّها تناولت عشاءها في أحد المطاعم الراقية، ولكن كلّ شيء آخر يجعلها تبدو جالسة في المنزل. حاولت أن أركّز انتباهي في وجهها، كما حاولت ألّا أختلس النظر إلى ما دون رأسها.

قدّمت لي السيّدة إيفانز شايًا في أكواب مصنوعة من الخزف العظمي وحلوى فاكهة ساخنة. أكلنا في صمت. ثمّة صور بإطارات معلّقة على الجدران. بالعشرات. يبدو والد كاتي في بعض تلك الصور. لم يدهشني شكله على أنّه نمط الرجل الذي يضلّ ويتشدّد.

كانت السيّدة إيفانز تراقب كلّ حركة من حركاتي. وساورني الإحساس أنّها تنظر مليًّا تحت أظافري. فأخفيت يديَّ.

ـ أخبرتني ابنتي يا أليكس أنّك تريد أن تسمّي الطفلة الصغيرة ماغي إن كانت بنتاً، وتوم إن كان المولود ذكرًا.

التفتُّ إلى كاتي، ولكنّها أشاحت بوجهها عنّي.

ـ نعم، أظنّ ذلك.

ثم سألتني السيّدة إيفانز بعد ذلك إن كنت أعتقد أنّني أصلح أباً مسؤولاً عن أبنائه. فقلت إنّني لا أعرف ولكنّني سأبذل قصارى جهدي.

وقالت:

ـ أحياناً يكون قصارى الجهد عن امرئ ما مُضرًّا.

بدت عبارتها وكأنّها واحدة من العبارات التي سمعتها من التلفاز، أو شخصًا ما أسمعها إيّاها قديمًا. وقالت إنّها سوف تمدّ لنا يد العون ـ مشروع موقّت ـ إلى أن نقف على أرجلنا. سوف تفعل هذا الشيء مع حفيدها الأوّل. وابتسمت. كانت أسنانها بيضاء لؤلؤيّة ورائعة.

أخبرتني كاتي في الليل أنّنا يجب أن ننام في غرفتين منفصلتين، وأنّني يجب أن آخذ الوسادة من غرفة الجلوس. وقالت إنّ هذا الأمر موقّت، وإنّنا سرعان ما سوف نتزوّج وعندئذٍ سوف ننام على سرير واحد. إلى الأبد.

أحضرت لي ملاءة نظيفة، وكيس وسادة. وخلعت بلوزتها في رفق. كان نهداها منتفخين، وحلمتاها حلقتين سوداوين. بإمكاني أن أشاهد الأوردة ـ زرقاء وكبيرة وباردة. وطلبت منّي أن أضع أذني على بطنها. في البدء، لم أسمع أيّ شيء، ولكنّني شعرت

بحركة بعد قليل تشبه حركة شخص يتمطّى بعد استيقاظه من نوم عميق. كرة، مرّتان، أربع مرّات. شيء يشبه السحر. وفكّرت إن كانت ماما قد سمحت لبابا أن يصغي لبطنها عندما كانت حاملة بي.

قلت وأنا أدفع كاتي بعيدًا:

ـ آسف. إنّني مضطرّ إلى النوم.

ـ مؤكّدًا يا حبيبي.

وعندما تركتني وحدي، استلقيت ونظرت من حولي. ستائر شبكيّة ووسائد مزخرفة بالزهور، وورق جدران مثير، وزهريّة مزخرفة فوق رفّ الموقد، وساعة كبيرة. وراودني الإحساس في أنّني لن أنام أبدًا، ولكن ما إن لمس رأسي الوسادة حتى رحت في نوم عميق وغبت عن الوجود. استيقظت فجرًا، لأجد كاتي تقف بجانبي، ممتقعة الوجه، واسعة العينين.

وقالت:

ـ ثمّة شرطيّان بالباب يا أليكس.

نهضت من مكاني وأمسكت برأسها بين راحتي كفّيَّ وقبّلتها. كان لفمها مذاق الملح، مذاق الخوف!

ـ إنّهما يسألان عنك.

سرنا إلى الممرّ، وشاهدنا والدة كاتي واقفة بجانب الباب بثياب النوم. ثمّة آثار كريمة على وجهها، وكانت شفتها السفلى ترتعش. جذبت ابنتها إلى جانبها وكأنّني مصاب بمرض معدٍ. وشاهدت أضواء سيّارة الشرطة في الخارج. ضابطان. أحدهما

يشبه جيمز كالاهان ولكنّه لم يكن يضع نظّارات. لم يشاهداني بعد. فطلبت من كاتي أن تخبرهما أنّني أرتدي ثيابي.

لم يكن قرار الفرار قرارًا واعيًا، ولكنّني اتّخذته. فذهبت إلى المطبخ وفتحت الباب وتسلّلت إلى الحديقة وقفزت من فوق السياج. . فالسياج الثاني. وفي حين كانت كاتي تكلّم الشرطيين، كنت قد خرجت من شارعها ودلفت إلى شارع آخر.

* * *

آخر يوم من أيّام شهر تشرين الثاني ١٩٧٨، كنت أوشك أن أغيّر من رأيي عندما شاهدتها تنعطف من وراء ناصية الشارع. كانت خارجة للتسوّق: الأكياس في يديها، وتسير على مهل، من غير عجالة. فار الدم في عروقي، لأنّني كنت قد منعتها من ترك المنزل.

خفّضت من سرعة مشيها، ترمق عازفًا من عازفي الشارع بنظراتها، مولية ظهرها إليَّ. نظرت نظرة فاحصة إلى هيئتها الجانبيّة. كانت مشرقة الوجه بابتسامة، فتلاحقت أمواج الامتعاض والاستيلاء في أعماقي. ألم أخبرها بألّا تغادر المنزل، ألّا ترتدي ثيابًا تكشف عن سيقانها؟ وها هي الآن تتحدّى قوانيني، وتسخر منّي!

لحقت بها. رنت إلى واجهة أحد المحلّات، ولم يبدُ عليها أنّها كانت تتعجّل العودة إلى البيت. ظننت أنّها تنتظر لقاء عشيقها، ولكن لم يحدث أيّ شيء من هذا القبيل. وعندما اقتربنا من شارعنا، تعثّرت فسقطت محفظة نقودها، محفظة بلون الخاكي لم أرها من قبل. وبينما هي تلتقطها من

فوق الأرض، لاحظتني من ورائها.

وهمست كأنّ اسمي سرّ من الأسرار:

ـ اسكندر...

اسكندر طبرق

* * *

العصـا والحزمـة

لندن، تشرين الأوّل ١٩٧٨

كان العثور على الخطيب أصعب ممّا كان اسكندر يتصوّر. فقد ذهب إلى عدد من المقاهي وأجرى بعض المكالمات الهاتفيّة، ولكن من دون جدوى. ولم يدرك إلّا في هذه اللحظة أنّه لم يعرف عن الرجل إلّا النزر اليسير. فعلى امتداد تلك الشهور، كان الخطيب هو الذي أرسل رسالة يطلب فيها لقاءه وليس العكس. ولم تكن لديه أيّة فكرة عن محلّ سكنى الخطيب وكيفيّة قضاء وقت فراغه. وتذكّره وهو يقول له إنّه طالب يدرس في معهد من معاهد البوليتكنيك. أمّا موضوع الدراسة فكان لغزًا من الألغاز شأنه شأن أيّ شيء آخر.

لكنّ اسكندر تمكّن من العثور عليه بوساطة صديق أحد أصدقائه، في محترف فنون قتاليّة نتن الرائحة في شارع بريك لين، يحيط به نصف دزّينة من الشبّان يرتدون بنطالات قصيرة، ويجلسون متقاربين على حصران مفروشة فوق الأرض، وكأنّهم طيور حمام

اجتمعت من تحت جملونات. وكان بعض هؤلاء الشبّان يتصبّب عرقًا واضحًا على صدره، والمناشف من حول الرقبة. بدوا وكأنّهم فرغوا قبل قليل من تمرين شاقّ، وتجمّعوا الآن لمناقشة أمر على درجة بالغة من الأهمِّيّة قبل أن يذهبوا للاستحمام. وعندما شاهدوا اسكندر يقترب منهم، التزموا الصمت، يرمقونه بنظرات تنمّ عن عدم ثقة جعلتهم لا يرون ضرورة في إخفائها.

قال الخطيب وهو يغمز للآخرين:

ـ حسنًا، أعرفه.

لم تعجب اسكندر غمزة العين ولا نبرة الصوت، ولكنّه حيَّاهم على الرّغم من ذلك بهزّة صغيرة من رأسه وحركة خفيفة من شفته وكلمة واحدة. مرحبًا!

وثب الخطيب وثبة رشيقة وسريعة ووقف على قدميه، ووضع يده اليمنى جهة قلبه، وقال:

ـ السلام عليكم أيّها الأخ. هل ترغب في الانضمام إلينا؟

ـ لا، شكرًا لك. إنّني مضطرّ إلى الذهاب إلى مكان آخر. جئت لأسلّم وأُعيد الأشرطة التي أعطيتني إيّاها آخر مرّة.

همهم الخطيب ببضع كلمات غير مسموعة لأصدقائه، وتقدّم إلى أمام. ولاحظ اسكندر مدى ضآلة الرجل بعد أن كان قد تجرّد من معطفه الشتوي وكنزاته الصوفيّة: كتفان ضيّقان ومعصمان نحيلان وساقان معوجّان اعوجاجًا قليلاً.

ـ لم تكن مضطرًّا إلى السير كلّ هذه المسافة لهذا السبب!

قال اسكندر وهو ما زال غير واثق من السبب الذي دفعه إلى

المجيء إلى هذا المكان:

ـ لا بأس.

ـ حسنًا. دقيقتان لا أكثر.

سار الاثنان إلى ركن هادئ وجلسا، وكان قبالتهما عدد من أدوات رفع الأثقال. وشاهدا رجلاً قصيرًا متين البنيان، منتفخ الأوداج وهو ينوء من تحت أثقال لا يستطيع حملها. وكان يتصبّب عرقًا باديًا على محيّاه، واكتسى وجهه ببقع حمر، ولم تعد لديه، كما يتّضح، أيّة قوّة في ذراعيه.

اختلس اسكندر نظرة شزر إلى الخطيب، وتمتم:

ـ لم أعرف أنّك تعمل في هذا المكان. ماذا تشتغل؟

ـ إنّني أمارس رياضة التايكوندو. لست مقاتلاً على الرّغم من ذلك، بل لست شيئًا في الحقّ، وإنّما أنا رجل أفكار.

ـ لماذا تأتي إلى هذا المكان إذًا؟

ـ لأنّ أمثالنا من الرجال يتعيّن عليهم أن يعرفوا كيف يدافعون عن أنفسهم. هل صكّ سمعك ما حدث يوم أمس في حيّ نورث إند؟ هاجم أربعة من أصحاب الرؤوس الحليقة صاحب دكّان بنغالي. أربعة ضدّ واحد. متعادلون، هه؟

ـ لم أسمع بذلك الحادث.

ـ ألقوه أرضًا وحلقوا رأسه بالشفرة؛ ورسموا رموزهم التافهة على جمجمته. وبلغ الخوف والذعر بالمسكين حدًّا دفعه إلى الغثيان والتقيّؤ. وكانت زوجته تبكي طوال الوقت.

توقّف الخطيب عن الكلام برهة ليستردّ أنفاسه.

ـ حسنًا. على الأقلّ ينبغي أن تعرف كيف تدافع عن نفسك.

أومأ اسكندر برأسه، وإن لم يكن متأكّدًا إن كان ذلك هو السبب الذي دفعه إلى ممارسة رياضة الملاكمة. فهو لا يمارس الملاكمة من أجل محاربة الأعداء، متخيَّلين كانوا أم حقيقيّين، وإنّما لجأ إليها لأنّها كانت حقيقيّة وصادقة. الملاكمة تأمّل رجل مقابل رجل في الحياة. فأنت وحيد في الحلبة، وليس ثمّة لعب جماعي، وما من بديل ينتظر ليؤدّي مهامّك وهو جالس في الخطوط الجانبيّة. كلّ رجل لنفسه.

الطيّبون والأشرار، الشرفاء والسفلة، الجشعون والكرماء. كلّهم هناك. وإذا ما أردت أن تعرف شخصيّة إنسان ما على حقيقته، فإنّ كلّ ما يتعيّن عليك أن تفعله هو مشاهدته وهو يلاكم.

وقال الخطيب:

ـ أنت ملاكم رهيب. طبيعي.

ـ وكيف عرفت؟ إنّك لم تشاهدني قطّ.

ـ بل شاهدتك. شاهدتك مرّتين خفية. أنت لا تراوغ القتال الذي ينطوي على مخاطرة. كما أنّ دفاعك متين جدًّا وكأنّك تعلم من أين ستأتي الضربة المقبلة. تلك موهبة نادرة، ينبغي أن تكون فطريّة.

لم يعرف اسكندر إن كان يتعيّن عليه الشعور بالانزعاج أم الفخر، ولهذا لبث صامتًا.

أمّا الخطيب، فقد أمسك عن الكلام برهة وجيزة، عيناه لا تفارقان اسكندر، وقال:

ـ ثمّة أمر أودّ أن أسألك عنه يا أليكس. هل لديك استعداد لتدريبنا على القتال؟ فالأخوة يمكنهم الاستفادة من خبرتك.

أرسل اسكندر زفرة مفكّرًا:

ـ لا أدري أيّها الرجل. أحبّ أن أقاتل بمفردي.

وعلى حين بغتة، عبس الخطيب وقال:

ـ انظر! سأكون صريحًا وإيّاك. أنت سيّد نفسك، وفي وسعي أن ألاحظ ذلك. من دون قيد أو شرط. هكذا تريد. ولكن لا تنسَ أنّ كبار المقاتلين هم كبار من الداخل ومن الخارج. وإذا كنت تتمتّع بقيم أشدّ متانة وقوّة فلن يقهرك أحد.

ـ لا أريد أن أكون قويًّا لا أُقهر.

فسأل الخطيب وهو يرمق اسكندر بنظرة تنمّ عن تسلّط ونبرة تدلّ على التحدّي:

ـ ماذا تريد إذًا؟

لم يسبق أن طرح اسكندر على نفسه هذا السؤال، لذلك لم يجد جوابًا جاهزًا.

فألحَّ عليه الخطيب:

ـ لماذا جئت إلى هنا تبحث عنّي؟ لأنّ جانبًا منك يعرف الحقيقة. أنت بحاجة إلى الانتماء إلى مكان ما. أنت بحاجة إلى هدف في الحياة، إلى اتّجاه جديد. انضمّ إلينا.

بذل اسكندر قصارى جهده كي يفكّر في شيء ما يقوله، فينقذه من المأزق، لكنّه فشل. ففتح سترته وأخرج منها الأشرطة التي كان قد استعارها.

ـ هل استمعت لها؟

ـ نعم.

لكنّ الخطيب تذمّر وقال:

ـ أنت لم تكمل الكراريس التي أعطيتها لك. ولا واحدًا منها. والآن الأشرطة. هل كان الطلب أكبر من قدرتك؟

ـ انظر. أخي وشقيقتي يستعملان جهاز التسجيل طوال الوقت. ولكنّني استمعت إلى شذرات منها. ثمّة شيئان استمتعت بهما، مثل الجزء الخاصّ بالأخوّة. عصا واحدة تنكسر في سهولة، أمّا الحزمة فلا تنكسر.

ـ ولكن؟

ـ ولكنّني... لا أعرف أيّها الرجل. أشياء كثيرة تشغلني الآن. فصديقتي في ورطة.. وأنا مضطرّ إلى الاهتمام ببعض الشؤون الأسريّة.

لم يقل الخطيب شيئًا، إذْ كان يعلم أنّ اسكندر ينتمي إلى ذلك النوع من الفتيان، كلّما طرحت عليه مسألة أقلّ، أخبرك بما هو أكثر.

قال اسكندر:

ـ كلامك في البداية ضَرَب على الوتر الحسّاس فيَّ. أعني، إنْ كان والداك على خطأ، فما عليك إلّا الوقوف في وجههما. صحيح؟

ـ نعم، ولكن لا ترتبك، فما عليك إلّا أن تلجأ إلى الله. لأنّ الله أكبر من أبويك. ولكن احترس. إن كنت أنت لا تعرف الله

وتعصى والديك، فسوف تضيع، ولن تكون ثمّة مبادئ تتمسّك بها أيّها الرجل.

ـ دعني أقول لك... شخص ما قريب منّي...

وهنا زرّر اسكندر سترته حتى ذقنه، واسترسل:

ـ أعني، هذا افتراض، شخص ما في أسرتي ارتكب إثمًا، وأنا أحاول أن أعرف واجبي.

تصلّب الخطيب وهو يشعر بجسامة الطلب. رمق اسكندر بنظرة تشي باهتمام متزايد، ولم يتنبه إلّا في هذه اللحظة إلى تلك الرعشة التي تلوح على طرف فمه وأطراف أصابعه. وسأل:

ـ من، على سبيل المثال؟

ـ لنقل أمّي.

ران صمت قلق قبل أن يقول الخطيب:

ـ حسنًا، كلِّم والدك، فهذا واجبه أكثر ممّا هو واجبك، لكن إن لم يكن حاضرًا... فإنّ المسؤوليّة ملقاة على عاتقك. فأنا لن أسمح لأمّي أو أختي أو زوجتي أن تُلحق العار بي.

فسأل اسكندر:

ـ لكن ماذا في وسعي أنْ أفعل؟

ـ لن أخبرك بما ينبغي لك أنْ تفعله ما لم تثق بي ثقة كاملة. أتفهم ما أقول؟ تعال وانضمّ إلينا، كن جزءًا من شيء أكبر حجمًا أيّها الرجل، فذلك هو الطريق الصحيح، وفيه الإجابة عن كلّ تساؤلاتك.

ـ حسنًا، سأفكّر في الأمر.

ـ نعم، اذهب وفكّر في الأمر مليًّا، ولكن لا تضيع الوقت طويلاً، فقد يحدث حادث ما وأنت منشغل في التفكير.

* * *

وقف اسكندر في ذلك المساء عند أبواب ناد لم يسبق له أن دخله. وكان قد توقّع هذا المشهد في ذهنه مرّات ومرّات حتى بات مألوفًا له على نحو لافت للنظر. ولم يكد يتقدّم خطوة واحدة إلى الأمام، حتى أوقفه حارس ضخم يفوق حجمه بمرّتين. بدلة زرقاء ونظّارات شمسيّة عاكسة على الرّغم من أنّ الشمس كانت قد غربت منذ زمن طويل، وصلعة تشبه بيضة ورقبة قصيرة وسمينة تبدو للناظر إليها وكأنّ رأسه يتربّع من فوق كتفيه مباشرة.

ـ كم عمرك أيّها الفتى؟

قال اسكندر عاقدًا العزم على ألّا يرهبه الحارس:

ـ عمري يفي بالغرض المطلوب.

ـ هذه الإجابة غير واردة في كتابي.

ـ لا أعرف ما هو كتابك، ولكنّني مضطر إلى الدخول.

جذب الحارس نظّارته الشمسيّة من فوق أنفه دهشًا أكثر ممّا هو منزعج، فبانت عيناه الصغيرتان والقريبة إحداهما من الأخرى على نحو لا يناسب وجهه. تستحيل عليه القراءة.

ـ هل أراك تختبر صبري أيّها الصبي؟ لقد نفد صبري وأنا قد حذّرتك.

شعر اسكندر بالحرارة تمتدّ إلى وجنتيه. كان في وسع الحارس أن يطرحه أرضًا إن شاء، ولكنّه على الرّغم من ذلك شعر

أنّ الرجل لا يمثّل أيّ تهديد بخلاف مظهره. جعجعة بلا طحين. لا أكثر من إحساس، وإنّ أحاسيسه صادقة إذا ما تعلّق الأمر بالشجار في الشارع.

ـ حسنًا، إنّني أبحث عن أبي. فهل هذه جريمة؟

لاح على وجه الحارس ظلّ من ظلال حبّ الاستطلاع.

ـ وهل يشتغل والدك هنا؟

ـ لا، ولكنّه يتعقّب امرأة تعمل هنا.

أخذ الحارس نفسًا عميقًا وطويلاً، وقال:

ـ آه، وأنت، كما أظنّ، تأمل في أن يُعَرّفك إلى هذه السيّدة.

ـ لا، أيّها الرجل. لماذا أتعرّف إليها؟

ـ سؤال لا أكثر. والآن، لنعد إلى أبيك. هل لديك أمر يدعو إلى معاتبته أو محاسبته؟

ـ أنا لا أفتّش عن المتاعب، كلّ ما أريد هو أن أكلّم الرجل العجوز.

أعاد الحارس نظّارته الشمسيّة إلى وجهه، وقال:

ـ ثلاث دقائق، ولن تزيد عنها ثانية واحدة. أدخل، وبحث عن أبيك واحضره إلى هنا، وإن لم تعد في الموعد المحدّد، فسوف أدخل وأكسر ساقيك. هل فهمت؟

ـ هذه هي التذكرة أيّها الرجل. شكرًا لك.

دخل اسكندر النادي، وحشر يده في جيبه، وتحسّس الترموس الزجاجي فيه. إنّها أعجوبة، لأنّ الحارس لم يفتّشه. سائل حمضي. عملي وفعّال. كلّ ما هو مطلوب منه أن يسدّده إلى

وجهها، وعندئذٍ لن يرغب والده في رؤيتها من جديد. ولن يرغبها أيّ رجل.

كم مرّة تخيّل اسكندر هذه اللحظة؟ سوف يدخل النادي الذي سيكون مفعمًا بالصخب والضجيج معبقًا بالسكائر ومحتشدًا وخانقًا، ويتوجّه مباشرة إلى المشرب للحصول على شراب. ربّما سوف يشرب الويسكي، بمكعّبات الثلج ومن دون ماء أو أيّ مزيج آخر. اختيار صحيح كما يظنّ. وسيفرغ من شربه في جرعتين، وعندئذٍ يتسلّل إلى الجانب الخلفي من النادي، وحنجرته ما تزال تؤلمه. سوف يسير على امتداد الممرّات الضيّقة التي تفوح منها رائحة العرق والعطور. ولن يستغرق وقتًا طويلاً حتى يعثر على حجرتها. وسوف يقرع الباب الذي كتبت عليه الاسم: روكسانا. ولكنّه لن ينتظر الجواب قبل الدخول.

سوف تقول له: من أنت؟ في صوت يشوبه الهلع والذعر، وسيكون وجهها مملوءًا بالأصباغ، شفتاها حمراوين مثل الدم، ونهداها واضحين من وراء الثياب.

أنا ابن الرجل الذي سرقته من أسرته.

تغيّرت تلك الجملة في كلّ مرّة تخيّل فيها اسكندر المشهد. وكان يستبدلها أحيانًا بعبارة: أنتِ لا تعرفينني، ولكنّني أعرفك أكثر من اللازم. وفي أحيان أخرى كان يُغيّرها إلى: أنا الذي ينبغي أن أطرح عليكِ هذا السؤال: من تظنّين نفسك كي تحطّمي أسرتنا؟

وسوف يكون ردّ فعل المرأة مختلفًا أيضًا. وستكون في الأعمّ الأغلب مرتبكة، وتعتذر. ولكنّها قد تغضب أحيانًا، وتنهار أعصابها. وتخيّل اسكندر خنجرًا رفيعًا قُذف نحو الجدار، وكأس

شمبانيا تحطّم. فكّر في كلّ خيار. فإذا ما تحوّلت إلى امرأة اعتدائيّة، مهلوسة، فإنّه سوف يُخرج الزجاجة من جيبه. أمّا إذا كانت نادمة، فسوف يأخذ الأمور ببساطة ويمنحها فرصة ثانية.

وفكّر أيضًا أنّها قد ترمي نفسها فوق الأرض / الأريكة/ الكنبة/ السجّادة، وتنهمر الدموع على وجنتيها، وهذا هو السيناريو المفضّل لدى اسكندر، وقد تقول وهي تجهش بالبكاء:

ـ آه، لم أكن أعرف أنّه متزوّج، ولم أكن أعرف أنّ لديه أسرة، فهو لم يخبرني قطّ.

في هذه الحالة، لن يُخرج اسكندر الزجاجة، بل سوف يهدّئ من روعها، وسوف تعده ألّا تلتقي آدم من جديد، وسوف تحافظ على وعدها حتى عندما تكون قد باتت امرأة عجوزًا شمطاء.

كان عقل اسكندر يقلّب كلّ هذه الأفكار وهو يتفحّص النادي، واستبدّت به الدهشة لما رأى أنّ المكان لا يحتوي إلّا على بضعة أشخاص، معظمهم من العاملين في النادي. الوقت ما زال مبكرًا على مجيء المقامرين. سار إلى المشرب الذي كانت تفوح منه رائحة عذبة منبعثة أصلاً من مئات المشروبات على مرّ مئات السنين. ثمّة مرآة بيضويّة مزدانة بالأضواء إلى الخلف، ولوح خشبي لمّاع من فوق نضد المشرب. وهنا مسح اسكندر بيده النضد ومرّرها على امتداد الكتابات والرموز المحفورة على سطحه الصلب.

كان عامل المشرب ـ وهو رجل يتحدّر من جذور أفرو ـ كاريبيّة صفّف شعره في ضفائر مشدودة ـ يجفّف قدحًا، فنظر إلى الزبون وقد التمعت عيناه استياءً.

ـ كم عمرك؟

ـ عمري يفي بالغرض المطلوب.

ـ هل لي أن أرى بطاقتك أيّها السيّد الذي يفي عمره بالغرض المطلوب؟

ـ هه! إذا كنت في هذا المكان، فإنّه يعني أنّ عمري يسمح لي بالحضور إلى هنا، وإلّا لما سمح لي بالدخول ذلك الرجل الضخم الجثّة الواقف عند المدخل. صحيح؟

قال عامل المشرب:

ـ محاولة جيّدة. سأقدّم لك كأسًا من الماء متلألئًا وفوّارًا، من غير ثلج. وهذا هو أكثر ما يمكنك الحصول عليه منّي.

رشف اسكندر الماء، ووقف أمام خشبة المسرح يرنو إلى الستائر على كلا الجانبين. هل عادت يا ترى؟ هل يذهب ويبحث عنها الآن؟ لمس الزجاجة مرّة أخرى وشعر أنّها باردة ودافئة في الوقت نفسه. ما زال يفكّر في خطوته القادمة، ويلمّ أطراف شجاعته للمواجهة التي تنتظره عندما شاهد الحارس يبحث عنه. نقر الرجل على ساعته، عابسًا وعنيدًا. فرغ اسكندر من شرب الماء وشكر عامل المشرب وخرج. لم تسر الأمور كما خطّط لها.

انتظر من فوق الرصيف منشغل الفكر. ولاحظ بعد مدّة قصيرة بدت له دهرًا، شخصًا قادمًا في اتّجاهه، أشعث الشعر، مطأطأ الرأس، واجسًا في خطوته وكأنّه يخاف أن تخونه ساقاه ويسقط، فلم ينتبه إلى الفتى عندما مرَّ من أمامه.

ـ أبي...

توقّف آدم والتفت، فأشرق وجهه عن ابتسامة حقيقيّة وبسيطة، ولكن سرعان ما تغيّرت سحنته وعبس وهو يقول:

ـ هل حدث شيء لأخيك أو لأختك يا اسكندر؟

ـ لا، إنّهما على ما يرام.

بدا آدم مرتاحًا برهة وجيزة، ولكن سرعان ما حلَّ الشكّ محلّ هذا الارتياح، وأعقبه انزعاج.

ـ ما كان ينبغي لك الحضور إلى هذا المكان.

لم يتوقّع اسكندر مثل هذا الكلام، فقد توقّع أن ينزعج والده عند رؤيته أو يضطرب، أمّا أن يغضب منه، فهو ما لم يكن في حسبانه. فقال في حدّة من دون أن يبدو على ملامحه أيّ إحساس:

ـ ولا أنت.

بوّز آدم واتّقدت عيناه.

ـ تنبّه لما تقول أيّها الصبي. لا يمكنك أن تكلّمني بهذه اللهجة.

فقال اسكندر:

ـ أريدك أن ترجع إلى البيت أيّها الأب.

لم تفت هذه الملاحظة على آدم، فقال:

ـ عد إلى أمّك قبل أن أدقّ عظامك.

ـ ماذا دهى عظامي اليوم؟ كلّ واحد يريد أن يدقّها!

وقفا صامتين مدّة قصيرة، واستغرق الأب والابن في التفكير، كلّ واحد منهما يحدّق إلى الآخر، ويتحدّاه كي يتكلّم أوّلاً. في تلك اللحظة طغى على آدم إحساس غريب وكأنّه يحدّج مرآة

بأنظاره، متأمّلاً في شخصه أيّام صغره. ابنه يشبهه ولكنّه يتمتّع بامتيازات أكثر، ولكن من دون القلق والاستسلام اللذين كلّفاه باهظًا.

أخيرًا قال آدم:

ـ سأعود عندما يحين الوقت.

ـ ومتى سيحين الوقت؟ عندما تتخلّص من العاهرة...

وانهالت الصفعة على الفور. وبدا اسكندر مصعوقًا بما تفوّه به أكثر ممّا صعق بردّ فعل والده، إذْ لم يصدّق أنّه تفوّه بمثل هذه اللهجة، فذلك مناقض لتربيته.

سعى الحارس إليهما لمَّا شاهد الصفعة.

ـ أنتما الاثنان! هوّنا عليكما وإلّا سوف أستدعي الشرطة.

همهم اسكندر وكأنّه يكلّم نفسه:

ـ لا بأس.

ثمّة نظرة غريبة تنبعث من عينيه، وميض مفاجئ. والتفت إلى أبيه في هدوء تامّ، وقال:

ـ إذا ضربتني مرّة أخرى فسوف أضربك، وإن لكمتي أقوى وأشدّ.

امتقع وجه آدم، وشعر بألم حادّ في صدره جعله لا يقدر على التنفّس برهة وجيزة. ولم يكن سبب ذلك الصدمةَ والأسى والإحساس بالخزي لأنّ ابنه أهانه أمام غرباء فحسب، بل ثمّة شيء أعمق وأشدّ ألمًا. إدراك متأخّر. فقد فهم الآن أنّ هذا هو ما كان ينبغي له أن يفعله قبل سنوات، عندما ضربه والده، وواصل ضربه

حتى بعد أن أضحى آدم أطول منه. هذا الشيء الذي كان يتعيّن عليه أن يفعله. يا له من ندم يبعث على الألم!

تقدّم آدم من اسكندر خطوة أخرى وصفعه من جديد صفعة أقوى. وهنا حدث أمر مهول. فقد جأر اسكندر مثل حيوان جريح ودقَّ رأسه بجدار النادي. ضرب جبهته مرّة، مرّتين، ثلاث مرّات. بوم، بوم، بوم.

حاول آدم أن يسيطر عليه من غير جدوى بينما زعق اسكندر:

ـ لا تلمسني.

بيد أنّ الحارس تمكّن من إبعاده عن الجدار، وإن كانت حاجة اسكندر لإيذاء نفسه قد بلغت به مبلغًا عظيمًا لا سبيل إلى وقفه، فغرز أسنانه في كتف الحارس حتى جرحه، ووطأ على قدم الرجل، وضربه برأسه ضربة هائلة على ذقنه وهو ما لم يتوقّعه الحارس، ففقد توازنه واتّقد وجهه وهجم.

حاول آدم أن يتدخّل.

ـ لا، لا . . أرجوك. لا تضربه، إنّه ولدي.

تجمّع أناس آخرون من حولهم: زبائن ونادلون وعدد من الراقصات ومن بينهم روكسانا تراقب المشهد، مندهشة حزينة.

وبعد أن تمّ الفصل بينهما، كان الحارس يرتجف.

ـ لا أريد أن أراك ثانية في هذا المكان. أتسمعني؟ وإذا ما شاهدتك في هذه المنطقة، فإنّني أقسم بالله على أن أضربك ضربًا مبرحًا حتى تفقد ذاكرتك.

جذب آدم ابنه من ذراعه في رفق وثبات.

ـ هيّا . . لنذهب .

سارا صامتين بضع دقائق، وما إن تواريا عن الأنظار حتى جلسا على الرصيف تحت نور مصباح الشارع. كانت أنفاس اسكندر زفرات وتنهّدات، وشعر بطعم الدم في فمه. وقال منهكًا :

ـ إنّ أمّي تلتقي بشخص ما .

ـ ماذا؟

قال اسكندر :

ـ لقد سمعتني. عليك أن تعود إلى البيت لترتيب الأوضاع فيه .

أخرج آدم سيكارة وأشعلها وقدّمها لولده. ولمّا رأى الدهشة تكسو وجهه، قال :

ـ هيّا . . أعرف أنّك تدخن منذ زمن!

ثم أشعل سيكارة أخرى له، وراحا يدخّنان جنبًا لجنب. كان برد الليل قارصًا، رتيبًا، ولكنّه مفعم بالاحتمالات .

ـ وهل تحبّه؟

لم يستطع اسكندر أن يصدّق أذنيه .

ـ ماذا تقول يا أبي؟

وضع آدم يده على ركبة ابنه!

ـ انظر إليَّ. أعرف أنّك لا تفهم. لو حدث هذا الأمر قبل عشر سنوات لكنتُ أصبتُ بالجنون، ولفعلت كلّ ما في وسعي لوضع حدّ لذلك. أمّا الآن، فقد بلغتِ من الكبر ما يكفي لكي أعرف أنّني لا أستطيعُ أن أرغم أمّك على أن تحبّني. فقد طلبت

منّي الطلاق مرارًا وتكرارًا، غير أنّني تجاهلت طلبها، ولكنّه كان طلبًا صحيحًا.

عندما سمع اسكندر كلمة «حبّ» من شفتي أبيه تولّته الدهشة. صحيح أنّ ثمّة أوقاتًا مرَّت سابقًا ارتاب في السبب والوسيلة اللذين جمعا بين أبويه، لكنّ الأمر لم يعد يخصّ الحبّ الآن. فآدم والده، ربّ الأسرة وليس عاشقًا رومانسيًّا.

ـ لكن يا أبتاه. . .

ـ استمع إليَّ. ثمّة رجل قال لي في يوم ما إنّ حبّ الرجل انعكاس لشخصيّته، ولكنّني لم أفهم معنى كلامه يومئذٍ. أمّا الآن فقد فهمته.

ثم ترك دخان السيكارة يندفع من بين منخريه.

ـ تظنّني لست غاضبًا من والدتك. أنا غاضب. ولكنّني أشدّ غضبًا من نفسي أنا، إذْ لم يحبّ أحدنا الآخر. كان زواجنا غلطة فادحة. ولكنّني لست نادمًا عليه لأنّكم أبنائي: أنت وأسماء ويونس.

ثم حدث شيء لم يأخذه آدم على محمل الجدّ في بداية الأمر، ولكنّه سوف يتذكّره بعد مرور سنوات بكلّ تفاصيله وبندم عميق. فقد نقر اسكندر بإصبعه على سيكارته وراقب ضوءها الباهت وسط الظلمة المحيطة بها، وقال:

ـ إن لم تتولَّ هذه القضيّة، فسوف أتولّاها بنفسي.

* * *

الحــبل

لندن، تشرين الأوّل ١٩٧٨

حثّت بمبي خطاها وهي تقترب من السينما التي أضحت تعرفها الآن معرفة جيّدة. وكان وقع كعبي حذائها الواطئ من فوق الرصيف ثابتًا، مهدّئًا. لم ترفع بصرها إلى أعلى أو إلى ما حولها، بل ظلّت أنظارها مركّزة في الأرض وكأنّها عادت طفلة صغيرة وكأنّ ما تفعله ليس سوى لعبة تمارسها. فإذا لم تشاهد العالم، فإنّ العالم ربّما لن يراها.

كانت تتعمّد الوصول متأخّرة في كلّ مرّة، فتصل السينما بعد مرور خمس أو عشر دقائق على بدء الشريط السينمائي، لأنّ ذلك يقلّل من فرص من يريد أن يراهما معًا. ولكنّها على الرّغم من هذا، فقد باتت مؤخّرًا أقلّ حذرًا واحتراسًا، بل وصل الأمر بها في مرّتين اثنتين أن سارت وإيّاه في الشارع، مرّة لشراء بعض الزهور، ومرّة أخرى للاستماع إلى عازف من عازفي الشوارع. كانت ما تزال مشغولة البال، مهمومة، كعهدها دائمًا، ولكن كان ثمّة حافز

يحفّزها الآن، حافز داخلي، صوت يتطلّع إلى الخروج، إلى أن يكون مسموعًا. ولمّا لم تكن لديها أيّ تجربة مماثلة سابقًا، فإنّها لم تعرف ماذا تفعل بهذه الجسارة التي كانت، ولم تكن أيضًا، جزءًا منها!

تنصّلت بعض خيوط معطف بمبي الرمادي اللون بالباب وهي تدفعه دفعًا قويًّا وتفتحه. دخلت المبنى، تتنشّق الرائحة النتنة المنبعثة من منافض السكائر والروائح المألوفة القادمة من محلّ بيع المرطّبات والذرة المشويّة بالزبدة ورقائق البطاطا والحلوى. وإذا ما أطالت النظر إلى السجّاد المبقّع أكثر ممّا ينبغي، تراها تُصاب بالدوار. وشعرت براحة وطمأنينة غريبتين. وما إن وطأت الردهة، حتى غمرها إحساس بالخفّة إذْ باتت هادئة، مستترة. وتوقّفت الأرض عن الدوران بها، فغاب إحساسها بالدوار أيضًا. ومن دون أن ينشغل بالها بالمستقبل، سمحت للّحظة الزمنيّة أن تحيط بها.

فحص المرشد الشابّ عند مدخل الصالة تذكرتها وفتح لها الباب وأشار إليها أن تتبعه. كان الشريط السينمائي قد بدأ، وكان الجوّ معتمًا إلى حدٍّ ما، يغمره ضوء فضّي ينبعث من الشاشة كلّما ظهر مشهد مضيء. وبينما كانت تتبع ضوء المصباح اليدوي الذي كان يحمله المرشد الشابّ، ألقت بمبي نظرة سريعة من حولها، فشاهدت عشرة أو خمسة عشر شخصًا وهو عدد أكبر من المعتاد. فشعرت في لحظة عابرة بشيء من التوتّر لم تألفه قبل قليل.

كان إلياس يجلس في المكان نفسه دائمًا. الصفّ الأوسط والمقعد الأوسط. وفي إحدى المرّات، كان شخص آخر قد جلس في ذلك المقعد، فكان جلوسه إشارة خاطئة جعلت بمبي تتوجّه

نحوه وتجلس بجانبه. فما كان من الرجل إلّا أن ابتسم وقال: مرحبًا حبيبتي!

فانتاب الهلع والذعر بمبي وقفزت من مكانها واتّجهت نحو الصفّ الأمامي حيث كان إلياس ينتظرها مبتهجًا، غير متنبّه لوصولها.

سارت بمبي على مهل، حذرة كي لا تتعثّر بأحد، وتجاوزت الصفوف الفارغة، واحدًا تلو الآخر. لاحظت رجلاً وامرأة كبيرين في السنّ مستغرقين في تأمّل الشريط السينمائي وهما متشابكا الأيدي. حاولت أن تتخيّل نفسها وإلياس في هذا الوضع، وفي هذه الحالة؛ شاخا وتقدّم بهما العمر ولكنّهما ما زالا مغرمين أحدهما بالآخر. لكن هذا الحلم نفسه لم يبدُ لها واقعيًّا.

وبينما هي تواصل تقدّمها إلى أمام، مشتّتة الفكر، لم تنتبه إلى الرجل الجالس في الصفّ الخلفي الذي كان قد أخفى نفسه بأن جلس منزلقًا في كرسيّه، ومال برأسه قليلاً إلى الجانب حتى بات ظلًّا لا أكثر. كان يجلس في العتمة، يراقب وينتظر.

توقّف ضوء المصباح اليدوي عند الصفّ ـ ج. كان إلياس جالسًا بمفرده في الوسط، يظلّل عينَيْهِ انتظارٌ لم يشأ أن يسمح لنفسه بالاستغراق فيه. شكرت بمبي المرشد وانزلقت من فوق كرسيّها، متسارعة الأنفاس. التفت إليها إلياس وابتسم، ثم مدَّ يده إلى يدها، سبّابته تنساب من فوق أناملها مثل رجل ضرير يستدلّ على حبيبته باللمس. ضغط على يدها في رفق، فضغطت بدورها على يده. على امتداد هذه الشهور المنصرمة، أتقن الاثنان لغة مفعمة بالإشارات وشحيحة بالكلمات، ومال في بطء إلى أمام وطبع قبلة

على باطن معصمها متنشّقًا رائحة جسدها. خفق قلب بمبي خفقانًا شديدًا ولكنّها لم تنظر إليه حتى هذه اللحظة. وبدا هذا الوضع وكأنّه لعبة من لعب أيّام الطفولة. فإذا كانت لم تره حتى الآن، فلن يكون مرئيًّا، وإن لم يكن مرئيًّا، فربّما لن يختفي.

شاهد الاثنان شريط الشرّير والطيّب والقبيح، وهو شريط لم يسبق لها أن شاهدته. أمّا هو، فكان قد شاهده. وهو أوّل شريط غير صامت. قبل أسبوع، فرغت دار السينما من عرض مجموعة من الأشرطة الصامتة وبدأت تعرض سلسلة جديدة من أفلام الغرب الكلاسيكيّة. ولمّا كان الاثنان قد اتّفقا على اللقاء في هذا المكان الذي أراحهما كثيرًا، فإنّهما لم يريا سببًا يدعوهما إلى تغيير خططهما. يضاف إلى ذلك، افتراض إلياس أنّ الشريط بما فيه من شخصيّات قليلة وحوار مقتضب سيسهل عليها متابعته.

وبعد مرور ثوانٍ قليلة، وجدت بمبي نفسها مستغرقة في الشريط، لا سيّما أنّ بلوندي وتوكو وإنجيل آيز راحوا في نزعات لا تنتهي، يتسبّبون في أخطار شتّى، ويتخلّصون منها. ولمّا رأت الأحداث تسير قُدُمًا، بدأت تنحاز. فعندما سأل الشرّير: إذا كنت تريد العمل من أجل أن تعيش، فما السبب الذي يجعلك تقتل نفسك في العمل؟ خفضت من بصرها، وفكّرت في السؤال إلى أن أدركت فحواه. وعندما هزأ الشرّير بالصالح، وقال له إنّهما ليسا مختلفين كثيرًا، لم تستطع بمبي أن تداري فزعها، فجفلت. وفي وقت لاحق، بدأت تفكّر في مغزى ما هو صالح وسيّئ على نحو لم يسبق لها أن فكّرت فيه من قبل. كانت رسائل أختها هي التي أرغمتها على ذلك. فقد كانت أختها التوأم أختًا محترمة، فاضلة

وطاهرة، لا يرمش لها جفن. أمّا هي فقد ظلّت سيّئة، غير طاهرة وغير عفيفة. لكنّ الأمر لم يكن دومًا على هذا الشكل. كم تغيّرت الأحوال في سرعة! ما من شيء دائم، وكلّ شيء يتطوّر ويتدفّق على الدوام.

وعندما امتطى توكو ظهر حمار والأنشوطة تحيط برقبته وهو يوشك أن يُشنق، بانت على محيّا بمبي أمارات الفزع، وأشاحت بوجهها جانبًا. وفي لحظة عابرة، خُيّل لها أنّها شاهدت شخصًا ما في الصفّ الخلفي يراقبها. ولكن عندما نظرت من جديد لكي تتأكّد، كان الظلام حالكًا يحول بينها وبين التأكّد. وهنا سمعت القبيح يقول: الذين تحيط الحبال برقابهم لا يُشنقون دائمًا.

أغمضت بمبي عينيها. ومرّت بها لحظة عصيبة شعرت أنّها في زمان آخر ومكان آخر.

وقال إلياس هامسًا في أذنها:

ـ هل أنتِ على ما يرام يا حبيبتي؟ يبدو لي أنّك قد شردتِ بعيدًا.

ثم أضاف هامسًا في مزاح:

ـ إنّه شريط سينمائي لا أكثر.

أومأت برأسها. كانت تعرف جيّدًا أنّه شريط سينمائي لا أكثر. لأنّ الذين تحيط الحبال برقابهم في الحياة الحقيقيّة يُشنقون دائمًا.

* * *

كانوا ثماني أخوات، تتراوح أعمارهنّ بين التاسعة والعشرين. أكبرهنّ هديّة، وهكذا كانت حقًّا، هديّة من الخالق، البكر،

وموضع الاعتزاز الكبير، وإن كانت بنتًا. وجهها يشبه القلب، حادّة الأنف، عيناها لوزيّتا الشكل واسعتان، رماديّتان مثل غيوم مثقلة بالعواطف. ولمّا كانت هديّة هي البنت البكر في أسرة كبيرة ودخل ضئيل، فقد أنفقت طفولتها تلعب مع أطفال حقيقيين بدلاً من اللعب بالدمى. وكانت على الدوام تنجز مهامّ التنظيف والطبخ والمسح والغسيل، وإطعام الصغار وأرجحتهم في المهد. كانت تحنّي راحتي كفّيها، وتزيّن معصمها بالأساور المصنوعة من الذهب المزيّف، ولكن لم يكن يبدو مزيّفًا أيّ شيء تتزيّن به. ولم تتذكّر بمبي أنّها سمعت هديّة تتذمّر ولو مرّة واحدة وإن كان الآخرون أوّاهين طول الوقت. وتقبّلت هديّة دورها على نحو ما، كما تقبّلت تحمّل مسؤوليّاتها التي لا أوّل لها ولا آخر. فتقدّم بها العمر قبل أوانها، وأصبحت البنت ـ المرأة. ولمّا وافت المنيّة نازي، حلّت هي محلّها، تهتمّ بأخواتها، ولا سيّما التوأمين اللتين كانتا صغيرتين. ولمّا تزوّج بيرزو ثانية، رأت البنات في المرأة الجديدة زوجة بابا ولا غير ذلك، لأنّ أمّهنّ لم تكن سوى هديّة.

وكان يروقها القول: لن أتزوّج أبدًا، وسوف أرعى أخواتي إلى أن يرتبطن كلّهنّ برباط الزوجيّة. أمّا أنا، فسوف أموت عانسًا.

على الرّغم من أنّ هذه الكلمات كانت تبعث على التفاؤل عندما تسمعها الأختان التوأمان، إلّا أنّها لم تكن صائبة كما اتّضح بعدئذٍ. ففي شتاء العام ١٩٥٧، بدأت هديّة تلتقي شخصًا يمتهن الطبابة ويلقّح المرضى، عيّنته الحكومة لتوفير اللقاحات المضادّة لمرض السلّ. وكان معظم القرويين لا يثقون به، وكلّ الأطفال يكرهونه. كيف بدأ كلّ شيء؟ وكيف التقيا؟ هذا ما لن تعرفه بمبي

البالغة اثني عشر عامًا يومئذٍ، ولن تتمكّن من فهمه وهي المرأة الراشدة اليوم!

كان الحبّ مرضًا، منشّطًا ومنعشًا، ولكنّه مرض على الرّغم من ذلك. وعلى حين بغتة بدت هديّة أكثر جسارة من أيّ وقت مضى، لا تعرف معنى الخضوع والاستسلام. وكانت زوجة أبيها تخشاها بدورها، ولا تستطيع أن تتأمّر عليها، ولا تشعر بالاطمئنان والراحة في حضورها. كانت هديّة امرأة حازمة، ثابتة الجنان. فالفتاة التي لم تكن تهتمّ بنفسها لحظة واحدة، أمست الآن توّاقة للتعويض عمّا فاتها من زمن ضائع. وفي ليلة صافية كان القمر فيها هلالاً يشبه منجلاً ذهبيًا، هربت رفقة ذلك الرجل الذي قلّما عرفته.

وفي صباح اليوم التالي، لم يكن ثمّة أحد ليتولّى مهمّة التلقيح. فابتهج أطفال القرية وفرحوا، ورموا بكلّ ما تبقّى من لقاحات في نهر الفرات، وأزالوا كلّ أثر من آثار الرجل الغريب الذي تطفّل على حياتهم، وحقنهم على طريقته الخاصّة، وبالتالي سرق بنتًا من بناتهم.

تذكّرت بمبي الحزن الذي خيّم على الدار الذي أصبح خاويًا، مثقلاً بالهموم بغتة. وبدا مصابهم مصاب من مات له أحد. لكن حال هديّة كان أسوأ من الموت، إذْ لم يسأل عنها أحد، على الأقلّ لم يسأل أحد في صوت عالٍ، وكان اسمها مرادفًا لما هو دنس.

كانت زوجة الأب، امرأة حقود، تسبّ وتلعن: «ليحرقك الله في نار جهنّم!». متخيّلة هديّة في كلّ مكان. وعلى حين بغتة تفجّر كلّ ما كان يثور في داخلها إلى هياج حادّ ومرير، لا سيّما الخزي

والعار من إخفاقها في إنجاب ولد لرجل تزوّجها لهدف واحد وهو أن يكون له ولد، ومحنتها لأنّها ناضبة وقاحلة مثل صحراء، واستيائها لأنّها مضطرة للعناية بثماني بنات أنجبتهنّ امرأة أخرى.

بيد أنّ بيرزو لبث صامتًا غريبًا، غائر العينين، مطأطأ الرأس، مستغرقًا في التأمّل والتفكير. وكان نادرًا ما يخرج إلى المقهى، فيبقى في الدار طول النهار، متحفّظًا في الكلام، واجمًا، يدخّن السكائر التي يبقى رمادها معلّقًا بطرفها مسافة بوصة.

كان شتاءً قاسيًا. ومرّت أربعة أشهر.. وفي أصيل يوم من أيّام بواكير فصل الربيع، رجعت هديّة إلى البيت. كان ينبغي لها أن ترسل رسالة كي تتأكّد إنْ كانت أسرتها مستعدّة لإيوائها، ولكنّها بدلاً من ذلك استقلّت حافلة وعادت أدراجها إلى البيت وكأنّ شيئًا لم يكن. تبيّن لها أنّ المضمّد كان رجلاً جبانًا، فهو، وإن كان قد وعدها بالزواج، غيَّر من رأيه عند أوّل اعتراض أبدته أسرته فتخلّى عنها في المدينة الكبيرة وتركها وشأنها.

ندمت هديّة على ما حدث، وخافت. ولكن هذا البيت هو الوحيد الذي تعرفه، ولم يكن أمامها مكان آخر تلجأ إليه. ولدى وصولها، وجدت الباب مفتوحًا، فجرجرت خطاها ودخلت. ولم يكن بيرزو ولا زوجته في الدار. لكنّ الأختين التوأمين كانتا في الدار، وفي اللحظة التي شاهدتا فيها هديّة، صاحتا بأعلى صوتهما من فرط فرحهما وبهجتهما، وصفّقتا بأيديهنّ محتفلتين بعودة أختهما ـ الأمّ. وطافتا من حولها في حلقات مثلما تطوف الكواكب في مدار الشمس.

غير أنّ هديّة كانت قد تغيّرت وباتت مفتقرة إلى الأمن

والأمان، متحفّظة وصامتة. جلست فوق الديوان وهي تضمّ ركبتيها إلى بعضهما، تسدّد نظراتها إلى الأرض. كانت وهي جالسة في دارها مثل ضيف غير متأكّد إن كان مرغوبًا فيه أم لا.

وبعد برهة من الزمان، دخلت زوجة الأب في بطء وتثاقل، حاملة كومة هائلة من الصوف على ظهرها. وكانت متورّدة الخدّين من تحت الثقل الذي تنوء بحمله، ومحدودبة الظهر. لم تنتبه إلى وجود هديّة في بادئ الأمر، ولكنّها سرعان ما لاحظت الصمت الثقيل في الحجرة وقلق الأختين التوأمين.

ـ ماذا يجري هنا؟ هل دخلت هرة وأكلت لسانيكما؟

لم تكد تفرغ من إكمال جملتها، حتى شاهدت الفتاة الجالسة في ركن الحجرة. الهاربة. التي جلبت العار. فأنزلت حملها من على ظهرها ووضعته على الأرض ووقفت قبالة الفتاة، جامدة إلى أبعد الحدود. ثم خطت خطوة واحدة باتّجاهها، وأبدت حركة من شفتيها وكأنّها تبصق على الأرض.

امتقع وجه هديّة.

وفي المساء، وعندما كانت جميع الأخوات مجتمعات في الدار، لم تتجرّأ إحداهنّ على أن تكلّم هديّة خشية إثارة حفيظة زوجة أبيهنّ، ولم يقدّمن لها الشاي أو الطعام. كما أنّ الأخوات أنفسهنّ لم يأكلن شيئًا يذكر. مرّت بضع ساعات على هذه الحال إلى أن ظهر للعيان بيرزو أمام الباب. وما إن دخل الدار حتى شعرن أنّه قد علم بعودة هديّة. الحقّ أنّه سمع بخبر عودتها، ولكنّه آثر التريّث واستمع إلى ما قاله رجال آخرون. ولهذا لم يكن مسرعًا في العودة إلى البيت.

وَثَبت هديّة على قدميها وركضت كي تقبّل يده، ولكنّه تراجع.

وقال في صوت عالٍ يسمعه الكلّ:

ـ ليس لديّ أولاد، ولم يرزقني الله بولد ولم أفهم سبب حرماني من الولد إلّا في هذا اليوم.

كتمت البنات أنفاسهنّ وأصغين، في حين تهدّل كتفا هديّة.

واسترسل بيرزو في كلامه:

ـ الآن أعرف السبب. فلو كان لديّ ولد، لطلبت منه أن يقتلك ويغسل العار الذي لحق باسم أسرتنا الشريفة، وعندئذٍ سوف يزجّ بأخيك في السجن بسببك، ويقضي حياته حتى يتعفّن بين أربعة حيطان.

لم تبكِ هديّة ولم تولول أو تطلب العفو والمغفرة، بل ظلّت عيناها مسمّرتين على عنكبوت فوق حافّة النافذة، وظلّت ساكنة بلا حراك، لا تنبس بكلمة.

ومضى بيرزو في كلامه وسط الصمت المطبق:

ـ لم أظنّ يومًا أنّني سأتفوّه بهذا الكلام، ولكنّني سعيد لأنّني بلا ولد.

وفي المساء، وفي حين استعدّت البنات للنوم على حصران مفروشة على الأرض، بات في وسعهنّ سماع والدهنّ وزوجته يتحدّثان في حجرة أخرى، ولكنّهنّ لم يفهمن ما دار من حديث. ورنت الفتيات إلى هديّة التي كانت ما تزال متربّعة على الديوان، في حين كانت ضفائرهنّ غير مجدولة ويرتدين ثياب النوم القطنيّة السميكة. ونهضت بمبي في هدوء.

فهمست جميلة:

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟

ـ لا بدَّ أنّها جائعة.

ـ هل أصابك مسّ من الجنون؟ بابا وزوجته لم يستسلما للنوم بعد، وسوف يكتشفان أمرك.

هزَّت بمبي كتفيها وسارت على أطراف أصابع قدميها إلى المطبخ وعادت تحمل بعض الخبز ومقدارًا من الجبنة والماء. وحملت الطعام تحت أنظار شقيقاتها إلى هديّة التي تناولت الماء فحسب.

وفي صباح اليوم التالي تناول بيرزو فطوره في وقت متأخّر على غير عادته. وبينما راح يرشف شايه من دون حليب ويقضم رغيف خبزه، انتظرت البنات.

وقال من دون أن ينظر إلى عينيْ أيّ واحدة منهنّ:

ـ سوف أذهب إلى المقهى.

لمّا سمعت بمبي هذا الكلام، انتابها الهلع لأنّ والدهنّ لم يذهب إلى المقهى منذ اليوم الذي هربت فيه هديّة. فما الذي تبدّل الآن كي يذهب إلى هناك؟

وقالت زوجة والدهنّ في تذمّر:

ـ ماذا أفعل بها تحت سقف بيتي؟

قال باقتضاب:

ـ أنت تعرفين ماذا تفعلين.

وعلى إثر ذلك، طلبت زوجة الأب الواجمة، المكفهرّة

الوجه، منهنّ أن يغادرن المكان، فثمّة عمل طويل في الانتظار، وسجاجيد بحاجة إلى حياكة.

وفي حين بدأت الأخوات ينتعلْن أحذيتهنّ ويرتدين معاطفهنّ، تلكّأت بمبي قليلاً وقد استبدّ بها رعب هائل. ثمّة شيء ما سوف يحدث ولكنّها لا تدري ما هو. وقبل أن يغادرن المنزل، شاهدت زوجة أبيها تحمل الصينيّة النحاسيّة الكبيرة والمدوّرة التي تستخدم لتناول وجبات الطعام، وتفرش قطعة القماش على الأرض وتضعها من فوقها وتثبّت القاعدة الخشبيّة وتوازن الصينيّة عليها. في البدء ظنّت بمبي أنّ المرأة سوف تقدّم الطعام لهديّة، ولكنّه طعام غريب، بلا أطباق، بلا ماء، بلا خبز.

في هذه الأثناء لم تتحرّك هديّة، وبقيت مثل تمثال من الملح.

وكان آخر شيء تراه بمبي هو قِدْر كبير، فتاقت إلى معرفة ما يحتويه، وقالت منتهزة الفرصة:

ـ أشعر أنّني لست على ما يرام. ثمّة ألم في بلعومي. ربّما سأمكث في البيت.

فهزّت المرأة رأسها:

ـ إنّها أوامر والدك. ولا واحدة تبقى في الدار.

ذهبت البنات إلى أحد الجيران واشتغلن طول النهار في حياكة السجّاد. كنّ يعرفن النقوش عن ظهر قلب: أزرق ضارب إلى الرمادي وورديّ فارسي وأخضر وبنّي بلون القرفة. كانت بمبي تهوى صنع الألوان: أحمر من الحنّة وأصفر من الكركم وبنّي من قشور الجوز المطحونة. وبينما هي تنقع الغزل في طاس من المنّ، أفضت إلى أختها بدخيلة نفسها.

فسألت جميلة وقد اتّسعت عيناها:

ـ ماذا تعنين أنّها قدّمت لهديّة قِدْرًا كبيرًا فارغًا؟

فهمست بمبي:

ـ أقسم أنّها فعلت ذلك. لعلّه لم يكن فارغًا ولكنّه غريب، إذْ لو كان يحتوي على طعام لرأيت البخار. صحيح؟ أو لشممت رائحة شيء ما. ولكن لا شيء!

قالت جميلة لأنّها لا تدري ما تقول أكثر من هذا:

ـ عودي إلى عملك.

وتبادلت الأختان التوأمان العمل وقت العصر، إذ تركت بمبي أختها جميلة كي تعدّ الصبغة في حين انهمكت هي في الحياكة. العمل شاقّ. عضلات عينيها تؤلمها، وأناملها متقرّحة. وبدأت تؤلمها تلك الأجزاء من جسدها التي لم تكن تحسب لها أيّ حساب.

وأدخلت بمبي سرًّا في نقوش السجّادة نقشًا لم يكن جزءًا منها. ولو تنبّه له أحد ما، وكانت واثقة أنّ أحدًا ما سوف يتنبّه له، فسوف ينتابهنّ القلق، ولكنّها لم تستطع منع نفسها من ذلك. وكان النقش علامة صغيرة، متمثّلة بالحرف هاء الذي سيكون تذكّره باسم شقيقتها. وعندما ينتهي العمل، فإنّ السجّادة سوف تباع إلى تاجر من أهالي المنطقة، الذي سيبيعه بدوره إلى تاجر أكبر شأنًا. وسوف تنتقل السجّادة من ذلك التاجر إلى دكّان أنيق من دكاكين السوق الكبير في اسطنبول. وسيراها رجل وامرأة من السيّاح الذين وفدوا لقضاء بضعة أيّام في المدينة وسيشاهدانها معروضة في الواجهة الزجاجيّة ويشتريانها حتى إن كلّفتهما ثمنًا باهظًا. وسوف تنتقل

السجّادة بعد ذلك إلى مدينة باريس أو أمستردام أو نيويورك، أو إلى أيّ مكان يقطن فيه المشتريان وسيكون حرف الهاء متواريًا عن الأنظار، ولكنّه باقٍ إلى ما لا نهاية في كلّ الأحوال.

عادت الأسرة إلى البيت وقت الغروب ـ الأخوات السبع وزوجة والدهنّ. وما إن يقتربن من أسوار الحديقة حتى تتلبّس بمبي موجة من الذعر تسري في أرجاء جسدها. فتركض كالمجنونة، وينتابها شعور ينذر بالشؤم، شعور بالغضب أكثر ممّا هو شعور بالخوف، غضب عارم لا يتأجّج ضدّ أحد قدر ما يتأجّج ضدّ نفسها لأنّها لم تتصرّف قبل الآن. تتصرّف إزاء أيّ شيء؟ لا تدري.

كانت هي التي عثرت على هديّة، جسدها يتأرجح مثل دمية من خرق، مكسورة الرقبة، متدلّية من كلّاب نحاسي مثبّت في السقف وكان يستعمل مرّات ومرّات في الماضي لصنع أرجوحة يُؤرجح فيها الأطفال حتى يستسلموا للنوم.

لقد شنقت نفسها بالحبل الذي قُدّم لها داخل القِدْر.

* * *

حاول راعي بقر المسمّى الشرّير أن يبتسم في وقت جُذبت الأنشوطة جذبًا قويًا من حول رقبته. وقال مازحًا في صوت متلعثم:

ـ أنت تمزح يا بلوندي... لا أظنّك تمزح معي مثل هذا المزاح!

حَوَلَ بلوندي عينه وأجاب بهزّة من رأسه:

ـ لست أمزح، إنّه حبل يا توكو.

أطبقت بمبي شفتيها في قوّة وأدركت أنّها لا تستطيع رؤية هذه المشاهد. ونهضت قليلاً وقالت:

ـ إنّني ذاهبة الآن.

فسأل إلياس:

ـ ماذا؟ لماذا يا حبيبتي؟ لماذا تذهبين مبكرة اليوم؟

ـ نعم، لا . . . سوف أذهب الآن.

ـ بسبب الشريط؟ ألم يعجبك؟

ـ لا، نعم . . . آسفة.

ـ هل أصحبك؟

ـ إبقَ أنت، أرجوك.

ثم نهضت بمبي على قدميها تاركة إيّاه من دون أيّ تفسير. وبينما كانت تحثّ خطاها نحو باب الخروج وتمرّ من بين الصفوف الخلفيّة، فرك الرجل الجالس في ذلك المكان صدغيه كي يخفي وجهه بيديه.

ولمّا انتهى الشريط، أُضيئت الأنوار، فنهض إلياس من محلّه مثلما نهض الآخرون. لم يعرف كيف يجد تفسيرًا لانصراف بمبي المفاجئ. فمشى في جهد نحو الردهة، معذّب القلب. وهنا نقر شخص ما على كتفه.

ـ معذرة. هل لديك عود ثقاب؟

شابّ. مراهق. أصغر من أن يكون مدخّنًا. ولكن ليس الشأن شأنه كي يخبره بذلك، وحتى لو أخبره، فإنّه عرف أنّ الفتى لن يستمع له.

فقال الياس:

ـ آسف. لست مدخّنًا.

ـ حقًّا؟

ثمّة شيء في نظرة الشابّ المراهق، واضطراب في كلامه أثارا وجل إلياس، فجفل. ولكن قبل أن يتمكّن من التفوّه بكلمة أخرى، أومأ الفتى إيماءة صغيرة، وقال بنبرة قويّة وسهلة:

ـ حسنًا، استمتع بواحدة.

ـ شكرًا، وأنت أيضًا.

خرج إلياس من الباب المزدوج، تاركًا الصبيّ واقفًا في مكانه وما يزال يرقبه، فلمست سترته الخيوط الرماديّة التي خلّفتها بمبي هناك قبل ساعة واحدة لا أكثر.

* * *

حجارة رمليّة

أبو ظبي، تشرين الثاني ١٩٧٨

بعد مرور أسبوع واحد على الشجار الذي نشب أمام النادي، تخلّت روكسانا عن آدم من أجل شخص آخر ـ وكان هذا رجل أعمال أستراليًّا له مصالح تجاريّة في منطقة الخليج العربي.

وما إن ضاعت روكسانا من آدم حتى شعر بغمامة من خدر تجلّله وكأنّها ليل بهيم يخيّم على وادي الأشباح. وبقي مشتّت البال والفكر، متحفّظًا في الكلام، لا يعرف أين هو، شاردًا، فاقدًا ثقته في نفسه. ولم يعد يعرف ما الحقيقة، بل لا يعرف إن كان قد فهمها أصلاً. حياته متاهة من المرايا، في كلّ مرآة يشاهد انعكاسًا مختلفًا عن نفسه، ولكنّه لا يدري أيّ هذه الانعكاسات يمثّل آدم الحقيقي. ولكن على الرّغم من كلّ شيء، لم يرجع إلى البيت، ولم يعد بقادر على البقاء في الشقّة التي كان يعيش فيها رفقة روكسانا التي كان قد استأجرها باسمها. ولم يكن الذهاب إلى منزل طارق خيارًا جيّدًا إلّا إذا كان آدم على استعداد كي يسمعه وهو يُلقي عليه مواعظه. لهذا

لجأ إلى صديقه بلال الذي وإن لم يكن متعاطفًا مع المحن التي ألمّت به، إلّا أنّه لم يصرف النظر عنها.

مرّت الأيّام مرورًا بطيئًا يورث الألم والقهر. ثمّة وجع في معدته وكأنّه بلع ثقلاً من حديد بدا يضغط على بدنه. ولمّا كان قليل الشهيّة، فقد تخلّى عن وجبات الطعام. وكان يدخّن ثلاث علب، وفي أغلب الأحيان أربع علب من السكائر يوميًّا. وظهر عليه مرض طفولته، الربو. ولمّا أضحى واضحًا لكلّ من حوله أنّه لا يمكنه الاستمرار على هذه الحال، حاول بلال أن يقنعه بالعودة إلى أسرته.

قال آدم:

ـ لا يمكنني ذلك، فلو ذهبت الآن، فسوف أتركهم غدًا من جديد.

ـ ولكن ما سبب هروبك من أهلك؟

ـ السبب؟

كان هذا السؤال من الأسئلة التي لم يتعوّد آدم أن يطرحها على نفسه، أو على الآخرين في هذا الخصوص. كان يعرف كيف يتصرّف في الأسئلة ذات الصلة بكيف: كيف يضع البسكويت في علبة، كيف يشغّل آلة، وبماذا: ماذا يفعل أمام طاولة الروليت، وماذا يراهن؟ أمّا الأسئلة الخاصّة بالسبب، فهي أسئلة موغلة في جانبها التجريدي ولا يمكن سبر غورها.

وعلى مقربة منهما، دوّت صافرة سيّارة شرطة، فتشتّت انتباههما لحظة، وعندما بدأ آدم يتكلّم من جديد، كان صوته رزينًا، وكتفاه متهدّلين.

ـ انظر إليَّ. كنت أفكّر في هذا الأمر وأقلّب فيه النظر. فالصينيّون لن يرحموني، وديوني كبيرة جدًّا. إنّني أريد الخروج من هنا، فهذه المدينة تقتلني.

فسأل بلال في دهشة:

ـ إلى أين تريد الذهاب؟

ـ الحقّ أنّني فكّرت في الذهاب إلى أبو ظبي.

كانت أبو ظبي هي المدينة التي سافرت إليها روكسانا، ولكن آدم لم يشأ أن يخبر صديقه بهذه المعلومة. وعوضًا عن ذلك قال:

ـ تناهى إلى مسامعي أنّ ثمّة مدينة جديدة قيد الإنشاء هناك. مكاتب وعمارات سكنيّة وأسواق تجاريّة... وسوف يكونون في حاجة إلى العمّال، آلاف العمّال. ليس لمدّة سنة أو سنتين، بل لوقت طويل.

ـ أليس المكان هناك صحراء كلّه؟ كيف يشيدون ناطحات سحاب من فوق الرمال؟

ـ آه، قد لا تصمد الرمال، ولكنّ المال يصمد هناك.

ناقشا كلّ التفاصيل: كم من المال سيحصل عليه آدم شهريًّا، وكم يحتاج من الوقت للعمل كي يشتري سيّارة مرسيدس ـ بنز عسليّة اللون وملمّعة تلميعًا جيّدًا يمكّنك من رؤية انعكاس السحب وهي تمرق عاليًا، من فوقها، وكم هو رائع أن يعود إلى إنكلترا رجلاً ناجحًا محمّلاً بالهدايا لأطفاله. ورسم الإثنان حلمًا بالغ الحيويّة جعل بلال يندب حظّه بعد مرور أيّام قليلة ويقول:

ـ آه، لو كنت بلا أسرة وبلا هذا العمل اللعين في لندن لرافقتك إلى هناك!

ـ يمكنك أن تلتحق بي بعدئذٍ. سوف أراسلك، وأعطيك عنواني.

قال بلال:

ـ سوف يعاملك العرب معاملة مختلفة. فهم لن ينظروا إليك على أنّك مواطن من الدرجة الثانية، بل أنت ضيفهم!

ضيف يستدفئ بالشمس. هذه الفكرة نفسها بعثت الدفء في قلب آدم. لقد مرّت ثمانية أعوام على مجيء آدم إلى لندن للعمل ولكنّه ما زال غريبًا، متطفّلاً. أمّا بقيّة المهاجرين الذين عرفهم فكانوا أفضل حالاً، وأكثر سعادة على العكس منه. ولكن حتى إن كان ثمّة مستقبل أكثر إشراقًا هنا، خاصّة للجيل الجديد، فإنّه ليس جزءًا منه.

المؤكّد أنّ العرب لن يروقهم البريطانيّون، كما أنّ أبو ظبي لن تكون مثل لندن، فليس في أبو ظبي أمطار تنهمر مدرارًا، أو نقانق مصنوعة من لحم الخنزير وملفوفة بشرائح من لحم الخنزير وكأنّهم يتعمّدون مضاعفة الإثم، وليس فيها مطابخ صغيرة في بيوت عفنة، أو طماطم بلا طعم، ولا مراهقون يصبغون شعرهم باللون البنفسجي ويثيرون الرعب والهلع في الشوارع بجنونهم وثمالتهم. البريطانيّون مؤدّبون كثيرًا: فهم يبصقون في وجهك بأدب يجعلك تتوقّع منهم أن يناولوك منديلاً بعد ذلك. ولا يمكنك أن تضرب إنكليزيًّا لأنّه سوف يردّ لك الضربة. لقد استغرق الإنكليز سنوات طويلة كي يثنوا عليك من جهة وكي يقولوا لك إنّهم طردوك من العمل. أمّا مع العرب، فإنّ الأمور أكثر صراحة، وأكثر شفافيّة. فعندما يقول لك أحدهم: مرحبًا بك، فإنّه يعنيها حقًّا. ربّما

سيتمكّن من إحضار أطفاله بعد مدّة من الزمان، وسيكون ذلك شيئًا لطيفًا.

ولكن على الرّغم من أنّ آدم كان يحلم بحياته في أبو ظبي التي تغمرها الشمس الساطعة، إلّا أنّه كان يعلم أنّ قضيّة التحاق أطفاله به ليست سوى حلم من أحلام اليقظة، إذْ كانت أسماء لندنيّة بكلّ ما في الكلمة من معنًى، وتحبّ هذا البلد، «هذه المدينة». أمّا بخصوص ابنه الأصغر، فقد كان ابنًا فريدًا متميّزًا، رأس عجوز من فوق كتفين شابّين، هذا ما كانت تردّده بمبي دائمًا. فقد كان يونس أكثر أفراد أسرة طبرق حكمة وإنْ كان ضعيفًا أمام الحبّ ـ وهو المرض الذي كان يسري في جسد أفراد الأسرة أجمعين. أمّا اسكندر... فإنّ آدم شعر بالحرج وهو يتذكّر المشاجرة، لكنّ الأهمّ من هذا، هو أنّه مضطر إلى الاعتراف بأنّه أخفق في أن يكون في مستوى ظنّ ابنه.

عندما تصبح أبًا أوّل مرّة، فإنّك تفترض أنّ ولدك امتداد لك. فهو يمنحك الفخر والاعتزاز، والإحساس بالنجاح والأصالة إلى أن تدرك شيئًا فشيئًا، أنّ الطفل مخلوق يصنع نفسه بنفسه، ولا يمكنه أن يحيد عن قدره مهما تمنّيت له من أماني، ومهما بذلت من محاولات لإرغامه على أن يحذو حذوك. وفي اللحظة التي فهم فيها آدم هذه الحقيقة لم يستطع الحيلولة بينه وبين الإحساس أنّه مخدوع ومهزوم. عندما كان في أيّام مراهقته، لم يسلك هذا السلوك. لقد استمع إلى أبيه، وكان يحترمه على الدوام، ويطيعه. لو علم أنّه يملك جناحين، وأنّه من جنس مختلف، لتمكّن من الطيران. لكن فات الأوان الآن. فالحرّيّة التي أخفق في الحصول

عليها من أبيه، فإنّ ولده الآن يطلبها منه.

لقد انتهت حياة آدم في لندن. وعلى الرّغم من صعوبة ترك أطفاله من ورائه، إلّا أنّه تمنّى أن يذهب، وإن لمدّة ليست طويلة، وأن يصبح حرًّا مثل ريشة، يطفو من جديد من فوق تيّار أقوى منه. سوف تكون أبو ظبي بلدًا جديدًا. وسوف ترفع أبو ظبي من معنويّاته. وعندما يصبح في أبو ظبي سوف يعثر على روكسانا ـ كلّ شيء في أوانه. وسوف تعود إليه وسوف يرحّب بعودتها. المشكلة الوحيدة التي تواجهه هي أنّه لا يملك المال الكافي للرحلة. لقد واجهته هذه المعضلة القديمة مرّة أخرى: إذا أردت أن تحصل على المال، فعليك أن تملك المال أوّلاً.

وبحسب نصيحة بلال، ذهب آدم لزيارة رجل يُدعى محمود بابا. كان محمود بابا رجلاً ذا لحية صغيرة وعينين مائلتين سوداوين تشعّان من فوق وجنتين بارزتين، وفم مستقيم. وكان واحدًا من أولئك الناس تحسّ بقوّتهم من دون أن يبدو ذلك على أجسادهم. ولد نشأ في مدينة بخارى، وهرب من السوڤيات وأنفق سنوات وسنوات في مختلف البقاع الأوروبيّة إلى أن حلَّ بمدينة لندن في نهاية المطاف. وكان يتكلّم عديد اللغات وساعد الأوزبك والإيرانيين. والأتراك والعرب والصينيين والمكسيكيين والبرتغاليين... وإذا ما أُعجب بك، فسوف يساعدك. كانوا كلّهم يلجأون إلى محمود بابا: الشبّان الذين لا يستطيعون العثور على عمل والآباء الذين هربت بناتهم والأسر التي تسودها الشحناء والبغضاء وأصحاب الدكاكين الذين لا طاقة لهم بدفع إيجاراتهم.

كانت الحجرة تحتشد برجال من كلّ الأعمار، يجلسون فوق

أرضيّة مفروشة بالسجّاد، يتجاذبون أطراف الحديث في أصوات واطئة. وفي منتصف الحلقة، كان محمود بابا قد اتّخذ مجلسه موليًا ظهره الجدار وعلى كتفيه رداء خارجي بلا أكمام، أنيق الشكل، ومن جلد الظبي. وكان ابنه البالغ تسعة أعوام، نحيل البنية، أسود الحاجبين يجلس إلى جانبه، يحملق في لعبة إلكترونيّة أميركيّة يحملها بين يديه، ويعبث بها بإبهاميه من دون توقّف. وبين حين وآخر، كان الحماس يكسو وجه الصبي سواء ربح اللعبة أم خسرها، يكاد في أغلب الأحيان أن يهتف بصوت عالٍ، ولكنَّ شفتيه تظلّان مطبّقتين من حول شبح صرخة.

قال محمود بابا في بهجة:

ـ انظروا إليه! إنّه أفضل منّي باستخدام التكنولوجيا وهو في هذه السنّ. وعندما تصاب آلة بعطل في المنزل، فإنّ والدته تطلب منه، وليس منّي، أن يصلحها.

أصغى الرجال الجالسون وأومأوا برؤوسهم مبتسمين عند الضرورة.

ـ هذا هو المطلوب، إذْ ينبغي لكلّ جيل أن يواكب التكنولوجيا المعاصرة، ولا يتعيّن علينا أن نتخلّف عن الزمان.

سمع آدم نفسه وهو يتمتم بكلمة «ولكن» بيد أنّه سرعان ما لزم الصمت، فقد خرجت الكلمة من فمه من دون تفكير، مثل زفرة.

ورأى رجلاً نحيف البنية، ملتحيًا، يعبس في وجهه، منزعجًا لأنّه لفظ كلمة أثناء كلام المعلّم. ارتبك آدم من تحت أنظار الرجل وخفض من رأسه من دون أن يعلم أنّه سدّد بصره على الخطيب، أحد أصدقاء ابنه وأحد الأشخاص البارزين في هذه الحلقة.

وفي هذا الوقت، كان محمود بابا يختلس النظر يمينًا ويسارًا، محاولاً أن يعرف من الذي تكلّم.

ـ ما هذا؟ لم أسمع جيّدًا.

تنحنح آدم بعدما أدرك أنّه مضطر إلى التقدّم إلى أمام.

ـ آسف. لم يكن في ذهني مقاطعتك على هذا النحو.

فقال محمود بابا في دماثة:

ـ لا بأس أيّها الرجل الطيّب. أخبرنا بماذا كنت تفكّر.

ـ حسنًا. كنت أشتغل في معمل البسكويت المتّحد. البسكويت يسير على امتداد حزام ناقل إلى ما لا نهاية.

قال ذلك آدم وهو ينظر، رغمًا عنه، إلى الخطيب، باحثًا عن إشارة مشجّعة، من دون جدوى، وأضاف:

ـ أنت تفعل الشيء نفسه مرارًا وتكرارًا، آلاف المرّات، حتى يُصاب دماغك بالخَدَر. كنت أفكّر في هذه الألعاب التي يلعبها أولادنا، وهل يفيدهم كلّ ذلك التكرار المتواصل في اللعب؟

بانت ملامح جديدة على وجه محمود بابا وهو يلقي نظرة ثاقبة إلى آدم، ملامح هي مزيج من الصبر والتسامح، وبعدها راح يلقي خطبة طويلة عن العلم والتكنولوجيا، لكن آدم رأى فيها تجريدًا مبالغًا فيه، فلم يستطع متابعتها. وبعد مرور ساعة، وبينما كان يتهيّأ للمضي في سبيله أسوةً ببقيّة الجالسين، طلب محمود بابا منه ومن عدد قليل جدًّا من الحاضرين وبضمنهم الخطيب، البقاء لتناول طعام العشاء.

جلس خمستهم على السجّادة وتحلّقوا حول طاولة مستديرة

وواطئة وانتظروا قدوم الطعام. وفي هذا الوقت استطاع آدم إثارة الموضوع من جديد.

وقال:

ـ إنّني في حاجة ماسّة إلى قرض كي أسافر إلى أبو ظبي. وعندما أجمع مبلغًا كافيًا من المال، سوف أعود وأسدّد الدين.

فسأل محمود بابا وهو يأخذ قطعة من الخبز:

ـ وماذا ستفعل بأسرتك؟

ـ سوف يهتمّ ابني اسكندر بشؤون البيت، فهو ولد كبير.

وما إن ذكر آدم اسم اسكندر حتى نظر إليه الخطيب نظرة تنمّ عن اهتمام، وفكّر: هذا هو الأب الغائب إذًا الذي تحدّث عنه الفتى. وفي تلك اللحظة، فُتح الباب، ودخلت امرأة حاملة صينيّة كبيرة تحتشد بالأطباق، وكانت تغطّي جسدها كلّيًا ببرقع بلون القرفة، ولم يكن يظهر منه غير الذراعين والعينين السوداوين من وراء الفتحتين في الخمار، وقدّمت شوربة الحمّص في طاسات زجاجيّة، ووضعت الرزّ ولحم الحَمَل في الوسط، ووزّعت أرغفة الخبز، وملأت الأقداح بالماء، وتوارت عن الأنظار.

وسأل محمود بابا:

ـ هل تلبس زوجتك الحجاب؟

شعر آدم بالتوتّر، وتقلّبت معدته، إذْ منذ أن أخبره ولده اسكندر أنّ بمبي تعاشر رجلاً آخر، لم يرغب في سماع كلمة واحدة عن زوجته، وكان يرتاب في أيّ شخص يشير إليها إشارة عابرة.

وقال:

ـ حسنًا، لقد شاهدت نساءً محجّبات في هذه المنطقة أكثر ممّا شاهدت في اسطنبول. أمّا في أسرتنا، فلا أحد يتّبع هذه العادة.

اعتدل محمود بابا في جلسته وقال:

ـ ولكن إذا ما منحك الله يومًا ما زوجة أخرى، ففكّر في الحجاب. عيونهنّ لا ترى سوى بيوتهنّ.

تنفّس آدم تنفّسًا عميقًا وشعر بالمرارة. حاول أن يبتلع ريقه، ولكنّه فشل. هل هذه تلميحات رهيبة على حديث بلا معنى فحسب؟ هل يمكن للناس أن يكونوا قد بدأوا بالطعن في شرف بمبي؟ واستقرّ صمت عميق وخيّم على المكان كلّه.

قال آدم وهو ينهض واقفًا على قدميه:

ـ ينبغي لي الذهاب. شكرًا لكم على الشوربة.

وقبل أن تسنح الفرصة لأيّ واحد منهم بإيقافه، ومن دون أن يودّعهم آدم وداعًا لائقًا، خرج من الحجرة ومضى في سبيله. وأثناء خروجه، مرَّ بالمطبخ حيث كانت زوجة محمود بابا وولده يتناولان طعام العشاء من حول طاولة صغيرة، الولد سعيد بطعامه وهو يمسك باللعبة اليدويّة محطّمًا رقمه القياسي بنفسه.

* * *

بعد أن وصل آدم مدينة أبو ظبي في تشرين الثاني ١٩٧٨ بدأ يشتغل في البناء. وبمرور الزمان سوف يشهد ظهور مبانٍ شاهقة أعلى من أيّ مبنى آخر سبق له أن رآه، وسوف يعجب بها أيضًا،

ولكنّه سوف يصاب سرًّا بالهلع منها. ففي مدينة تدفعها رغبة جامحة من أجل التحوّلات وتغيير المظاهر الخارجيّة، يجد آدم نفسه أمام أناس يعيشون في ماضيه ولا أمل له في إحداث أيّ تغيير.

كانت الأسابيع الأولى هي الأكثر مشقّة، ولا يرجع السبب إلى أنّ العمل كان شاقًّا فحسب، بل لأنّه كان مضطرًّا إلى التخلّي عن معظم توقّعاته وآماله إن لم يكن كلّها. فمن بين كلّ الخيالات التي داعبت خياله وخيال بلال، كان الشيء الحقيقي الوحيد هو الشمس الحارّة والقاسية على بشرته. وكان يعود مساءً مرهقًا تعلوه الأتربة إلى محلّ إقامته الذي يشاركه فيه سبعة من زملائه العمّال: رجال من أصول متباينة ولكنّهم يفتقرون إلى المزايا نفسها. وفي المناسبات الغريبة التي كان يتمتّع بساعة فراغ، كان يبحث عن روكسانا في كلّ مكان محتمل يمكنه أن يفكّر فيه ـ فيذرع المراكز التجاريّة جيئة وذهابًا، ويطوف في المطاعم والدكاكين.

وفي ليلة ما، راودته بمبي في حلم، وكان شعرها منسدلاً ومتموّجًا. ودخلا ممرًّا ضيّقًا وهما يسيران يدًا بيد. ولمّا وصلا نهاية الممرّ، أدرك آدم في رعب شديد أنّ بمبي كانت ترتدي ثوب روكسانا وتكاد أن تذهب إلى المسرح لترقص في أحد نوادي التعرّي. فصرخ بكلّ ما يملك من قوّة ليمنعها، ولمّا لم يفلح في مسعاه، جذبها إلى أسفل المسرح، لكنّ المرأة التي أمسك بذراعها لم تكن زوجته بل روكسانا ـ وكسا وجهها غضب جامح. واستيقظ مدركًا أنّ صرخته قد أيقظت بقيّة الرجال.

وبعد مرور بضعة أسابيع على حياته الجديدة ومن دون العثور على أيّ أثر يدلّ على روكسانا، اكتشف مكانًا رأى أنّه أشبه

بالواحة التي يعثر عليها تائه في الصحراء: وكر متنقّل للمقامرة أقامه عدد من العمّال سعيًا وراء ربح سريع وقتلاً للرتابة. ففي شقّة نتنة تفتقر إلى الهواء الصحّي، اجتمع ما بين أربعين إلى خمسين رجلاً، يشتمون ويصرخون ويدخّنون ويدعون بلغات مختلفة لمشاهدة صراع الديكة. وكان هؤلاء الرجال ينظّمون بين وقت وآخر صراع عناكب، وهما صراعان لم يسبق لآدم أن شهد أيّ واحد منهما. لكن وراء الحواجز الخشبيّة كانت الرهانات الحقيقيّة تجري، وهي التي كانت ينطلق إليها آدم.

كلّ ما كان يملكه هو ما تبقّى له من مال أرسله له محمود بابا بواسطة رسول بعد مرور يومين على خروجه من بيته. وكان في وسعه أن يعيد النقود، ولكنّه لم يعدها، إذْ لم يعد يملك قدرًا كافيًا من الكبرياء، وكانت الحاجة إلى مغادرة لندن أشدّ من أيّ حاجة أخرى. والآن، وضع جانبًا مصروفات أولاده وقذف الزهر بمال محمود بابا. ولعب في كلّ ليلة. وفي حين كان الآخرون يلعبون في بطء وينظرون إلى اللعب بنظرة بسيطة، فإنّ آدم اندفع في اللعب. وكان معظمهم من الهواة في اللعب، وهو ما لاحظه. لهذا كان الجوّ مؤاتيًا مع القلق والخوف من اعتقال السلطات ـ وبالتالي الترحيل من البلد. وشعر عدد كبير من العمّال بهذا التوتّر، ولكن ممّا يبعث على الغرابة أنّ آدم لم يشعر به. فكان يراهن ويراهن، في جسارة لا تحدّها جسارة، ومدفوعًا بدافع رهيب. ولمّا نفدت نقود محمود بابا في نهاية المطاف، لجأ إلى أجره ـ وقبل أن يمضي وقت طويل، كان يراهن بأجر أسبوع بكامله في ليلة واحدة.

اشترى لنفسه ساعة روليكس مزيّفة وكان يضعها في معصمه

طوال الوقت. وتحوّلت خطواته إلى خطوات بلا هدف، مترهّلة. وبدأ يتناول المسكّنات في كلّ يوم لتخفيف الخفقان الذي كان يحسّ به في صدره، والذي كان على الدوام يزداد سوءًا في أوقات المساء. لعلّه كان، مثل الديكة والعناكب، في حالة صراع دمويّ وإن كان صراعًا مع نفسه.

خلبت لبّه المناظر الطبيعيّة، وذهل عندما اكتشف أنّ الصحراء ليست منطقة قاحلة وإنّما تنطوي على جمال خفيّ. ففي بعض الأحيان، كان يسير ويتنزّه فوق الرمال ويبتهج بالحرارة التي تسري في قدميه بفعل الرمل المائع، ويحمل الحجارة الرمليّة في جيوبه. وفكّر كيف تتحوّل هذه الحجارة إلى رمال وكأنّها تفتقر إلى لبّ. ورويدًا رويدًا بدأ يشبّه نفسه بحجارة رمليّة.

أخبره أحد الأشخاص أنّ هذه الصحارى كلّها كانت يومًا ما بحارًا. وإذا كان في الإمكان تحويل الماء إلى تربة صلدة، ولا يعود هناك شيء اسمه مدّ وجزر، فما الذي يمنع الإنسان نفسه من التحوّل؟ لأنّ آدم، وعلى الرّغم من كلّ ما قيل في الأشرطة السينمائيّة والكتب والمجلّات، توصّل إلى استنتاج مفاده أنّك حيثما وجّهت وجهتك في هذا العالم، فإنّ قاعدة أساسيّة واحدة لا تتغيّر: الرابحون يربحون دومًا والخاسرون يخسرون دائمًا.

* * *

أســـماء

لندن، تشرين الثاني ١٩٧٨

في مساء رائق، قبل الجريمة بأسابيع، أعدَّت أمّي المائدة: ثلاثة أطباق وثلاث شوكات وثلاثة أقداح. تضاءل مؤخّرًا عدد متناولي طعام العشاء وازدادوا هدوءًا. وعلى الرّغم من أنّها اعتادت غياب زوجها، إلّا أنّ غياب اسكندر المتواصل صعب عليها. كانت مرهقة أكثر ممّا هي متوتّرة. وسمعتها أوّل مرّة تشكو من صعوبة تدبير أمور المعيشة، وربّتنا بمفردها، ولكنّ الشكّ راودني لاحقًا في أنّها كانت تتمنّى أن يكون ثمّة شخص يستطيع أن يهتمّ بها.

وسألتني وهي تحمل سلّة خبز من المطبخ:

ـ أين شقيقك؟

قلت متذمّرة:

ـ أيّ أخ؟ إن كان الأخ الأكبر، فالله وحده يعلم أين هو، أمّا يونس، فأظنّه ينزل في غرفتي.

ـ وهي غرفته أيضًا.

ـ كلّ صديقاتي لديهنّ غرف خاصّة بهنّ، وأسرهنّ تحترم حاجتهنّ إلى الخصوصيّة.

عقدت حاجبيها.

ـ أنت لست فتاة إنكليزيّة!

ـ آه، بربّك! بنات جيراننا لديهنّ غرفهنّ الخاصّة بهنّ.

ـ نحن لسنا جيراننا!

ـ هذا ليس بإنصاف يا أمّي. اسكندر له غرفته وهو لا يكبرني إلّا بسنة واحدة. فما السبب الذي يدفعك إلى منحه مثل هذه الامتيازات.. لسبب واحد وهو أنّه ولد؟ أنت تفعلين هذا الشيء على الدوام.

اتّجهتْ إلى حجرتي عمدًا تحت أنظاري الموجعة، وكانت ثمّة أصوات تنبعث منها. سرتُ من ورائها على امتداد الممرّ وأنا أشعر أنّني مثل بطّة صغيرة من خلف أمّها.

عندما فتحت أمّي الباب، وجدت طفلها الأصغر يصغي لأشدّ الأصوات الموسيقيّة دويًّا. وسألت أمّي:

ـ ماذا تفعل؟

لم يرفع يونس بصره إليها، أو إليَّ، بل ظلّ يحدّج السجّادة بنظره كأنّه يخشى أن يكشف وجهه عن شيء ما.

حملت أمّي الألبوم من فوق الأرض بدافع حبّ الاستطلاع وتفحّصته. ثمّة رجل على جواد، غريب الشكل، ورجل آخر مستلقٍ على الأرض، تنهش فيه النسور. ثمّة إطار من فوقه وعليه عبارة مكتوبة بحروف كبيرة: الصدام. ومن تحتها عبارة أخرى: مُدَّ لهم الحبل.

ـ ما هذا؟

قال يونس:

ـ إنّه فرقة يا أمّي. فرقة موسيقيّة.

قالت أمّي:

ـ أعرف ما الموسيقى، وهي ليست هذه الأصوات المدوّية.

نظر يونس إليَّ نظرة خاطفة، فبادلته إيّاها بنظرة تضامن أخت لأخيها. وأشارت أمّي الآن إلى عنوان الألبوم:

ـ ما معنى هذا؟

ـ يعني إن كان الناس مهمومين أكثر ممّا ينبغي وليس ثمّة أمل، ومنحتهم أنتِ حبلاً ما، فسوف يشنقون أنفسهم.

امتقع وجه أمّي.

ـ أهكذا تنفق وقتك؟ إنّك تدمّر عقلك بهذه السموم!

تأوّه يونس وقال:

ـ إنّه ليس سوى...

ـ لا، هذا فظيع. ما من أحد يتعيّن عليه أن يعطي أيّ شخص حبلاً! كيف يعلّمونكم هذه الأشياء؟

ـ من فضلك يا أمّاه! لقد أسأتِ الفهم. إنّهم لا يعلّمون...

فأوضحت:

ـ لا أريد أن يستمع أطفالي إلى مثل هذه الأشياء الفظيعة.

لم نشاهدها بهذه الصورة من قبل: غاية في الهيجان وغاية في الشقاء.

ـ إنّها فرقة موسيقيّة أعضاؤها من شبّان البانك يا أمّاه. هذا هو أسلوبهم. لا يوجد شيء سيّئ، صدّقيني.

سارت من تحت عيوننا المتوسّلة إليها إلى الجدار وجذبت السلك الكهربائي الموصل إلى جهاز التسجيل، فتوقّف الجهاز عن العمل.

فتأوّه يونس.

أمسكت بحنكه وأرغمته على أن يرفع بصره إليها.

ـ لا تصغي إلى الأشياء المظلمة. لماذا تهرب منّي؟ وأنت أيضًا، لا تتغيّر، أرجوك.

لوى يونس قسمات وجهه.

ـ إنّني لا أتغيّر.

عانقت أمّي يونس بعد أن انفرجت أساريرها، ووقفا متعانقين عناقًا حارًّا وقويًّا. وقبّلت قمّة رأسه وتنشّقت رائحة خدّي الطفل. ثم مالت عيناها إلى أسفل، إلى الفجوة بين رقبة شقيقي وقميصه وصولاً إلى ما دون أذنيه.

ـ ما هذه البقعة؟

فما كان من يونس إلّا أنْ اعتدل من فوره، وكست وجهه آثار رعب وهلع وهو يحاول أن يفكّر بما ينبغي له أن يقول: فات الأوان. يضاف إلى ذلك، لا يمكن ليونس أن يكذب أبدًا.

ـ إنّه وشم يا أمّي.

ـ ماذا؟

مضى على معرفتي بأمر وشم أخي مدّة وجيزة، فتدخّلت لنجدته:

ـ لا تقلقي يا أمّاه. إنّه...

لكن أمّي تجاهلتني تجاهلاً كلِّيًّا، وجذبته إلى الحمّام، على الرّغم من احتجاجه. ثم خلعت له سترته الصوفيّة وقميصه وبنطاله وتركته بملابسه الداخليّة ودفعت رأسه تحت الماء، وغسلت مؤخّر عنقه بيديها وبإسفنجة أيضًا، وفركته.

ولول يونس:

ـ توقّفي يا أمّي، هذا يؤلمني.

ـ كان ينبغي لك أن تفكّر في الأمر من قبل.

حاولت من ورائها أن أتدخّل:

ـ إنّه وشم يا أمّي، ولا يزول بالغسل.

فدفعت يدي بعيدًا عنها وقد تلبّسها حافز جنوني وظلّت تواصل الغسل والفرك. وسألتْه:

ـ كم مضى على هذا الوشم؟

فأجبت عوضًا عنه في مرارة لم أكن أتصوّر أنّني أملكها:

ـ شهورًا. كان في إمكانكِ أن تشاهديها لو أنّك اهتممت بنا اهتمامًا أكبر.

ـ ما هذا الذي تقول؟

فهتفت:

ـ أنتِ مشتّتة الفكر على الدوام، وذهنك مشغول بأشياء كثيرة ولا مكان فيه لنا. فأنا لا أستطيع أن أكلّمك كلامًا مناسبًا بعد الآن. وأنتِ دائمًا تقولين لي: لا تفعلي هذا! لا تفعلي هذا! ولا شيء غير ذلك.

فقالت في عناد:

ـ هذا غير صحيح يا أسماء.

ثم عادت إلى فرك ظهر شقيقي. وبعد مرور بضع دقائق، تقبّلت الهزيمة، فرمت الإسفنجة على الأرض، متّقدة العينين، وهي تصرخ في وجه الصبيّ:

ـ لكن لماذا؟ لماذا ذهبت ولوّثت نفسك؟

فصاح يونس باكيًا، والدموع تنهمر من عينيه والماء يقطر منه وكأنّه فأر صغير مبلّل:

ـ لم ألوّث نفسي. أنتِ لوّثتني! لقد شاهدتكِ رفقة رجل في الشارع. أنت الملوّثة!

ما إن تفوّه يونس بهذه الكلمات حتى غطّى فمه بيده. رنوت إلى أخي مذعورة، ولم أدرك إلّا الآن أنّ هذا هو السرّ الذي كان يحمله. فبادلني النظرات، وبدا ندمه واضحًا. التفتُّ إلى أمّي في خجل، فوجدت على محيّاها ما لم أره في حياتي قطّ. عيناها كامدتان، كالرخام، وكانت تبكي.

ران الصمت علينا نحن الثلاثة. وفي خضمّ ذلك الهدوء الثقيل والمرتبك، لم يتجرّأ سوى الماء على الحركة، يقطر في لطف.

بعد أن أخبرني يونس بالقصّة كاملة في تلك الليلة في حجرتنا، تقلّبت في فراشي، والطنين يهزّ رأسي. كانت الظلمة سائدة ما خلا بصيص فضّي من نور القمر يتسلّل من النافذة. وتناهى إلى سمعي همس:

ـ أختاه! هل أنت نائمة؟

ـ لا.

ـ لقد هجرنا أبي، فهل تعتقدين أنّ أمّي ستهجرنا أيضًا؟

ـ لا، أيّها الساذج. إنّها لن تهجرنا، فلا تقلق.

وممّا هو غريب أنّني لم أغضب بسبب أمّي، بل كنت قلقة لأسباب أخرى، كبيرة وصغيرة، وكلّفني بعد أن أدركت الآن أنّ لديها عالمها الآخر الخاصّ بها، أو أنّها تحاول بناءه، أحسست على الرّغم من كلّ شيء، أنّني أرغب في حمايتها، فعلى حين بغتة، أضحت في نظري، وقلت:

ـ علينا أن نتأكّد أنّ اسكندر لا يعرف شيئًا عن هذا الموضوع.

* * *

حبر على حرير

لندن، تشرين الثاني ١٩٧٨

الوقت هو السابعة والنصف مساءً، نهاية يوم طويل. شعرها مشدود بإحكام في عقدة من غير اهتمام، ظهرها يؤلمها قليلاً. كانت بمبي واقفة على قدميها منذ بواكير الصباح. ولكنّها لم تحسّ بالتعب. وكانت قد أخبرت ريتا أنّها سوف تتأخّر في صالون الحلاقة لإنجاز أعمال التنظيف، وإن لم يكن التنظيف هو عملها الحقيقي.

وقالت ريتا وهي تقبّلها على وجنتيها:

ـ أنتِ ملاك. ماذا سأفعل لولاكِ.

لم تخبرها بعد. ولم تستطع حَمْلَ نفسها على إخبار ربّة عملها أنّها سوف تترك العمل، وأنّها لن تأتي إلى صالون المقصّ البلّوري يوم غد: ولا حتى بعد غد. سوف تكتب ملاحظة على قصاصة ورق لريتا، فهذه هي أسهل وسيلة. وسوف تتذرّع بأنّها ليست على ما يرام وأنّها محتاجة إلى بضعة أيّام بعيدًا عن العمل. إلّا أنّها

فكّرت من جديد وقرّرت أن تخبرها بالحقيقة ـ أو في الأقلّ أكبر قدرٍ ممكن منها. فهي مُدينة لصديقتها بالشيء الكثير. وسوف تخبر ريتا أنّ ابنها الأكبر لا يريدها أن تعمل في أيّ عمل بعد اليوم.

كان اسكندر ولدها المحبوب، يغضب قليلاً أحيانًا، ويبالغ في إظهار عواطفه أحيانًا أخرى، ولكنّه كان فتًى طيّبًا، ولديه أسبابه الخاصّة بذلك. فعلى حين بغتة سرت شائعات كثيرة في المنطقة، من وراء ظهرها ومن وراء أبواب موصدة وفي زوايا المتاجر وفي المقاهي ومطاعم الكباب ومحلّات غسيل الثياب وبيع الأسماك. ونما إلى الأهالي أنّ الأمور ليست على ما يرام في أسرة طبرق. وانتشرت الإشاعات بأسرع من انتشار الحبر على قطعة الحرير. لقد أنفقت بمبي طوال حياتها وهي تزيل البقع من على الثياب والسجّاد، ولكنّها لم تكن تعرف كيف تعالج هذا النوع من البقع! وفكّرت: سوف أكتب إلى ريتا رسالة وسوف تفهم، ولا تفهم.

الشعور بالخطيئة إحساس رهيب. فهو يبدأ من بوادر شكّ بسيطة، وتستقرّ في رأسك وتمتصّ دمك وتضع بيضها في كلّ مكان. شعرتْ بالإثم طوال الوقت في هذه الأيّام. في العمل وفي البيت وأثناء الطبخ والتسوّق أو الصلاة، بل حتى أثناء نومها، كانت الخطيئة تغزو روحها.

كانت أثناء طفولتها قد أصيبت أكثر من بضع مرّات بالقمل، ولكنّ الإصابة الأسوأ كانت في المرّة الأولى. وظنّت على الدوام أنّ العدوى انتقلت إليها من أختها التوأم، وإن كانت جميلة قد زعمت خلاف ذلك. وعمدت الأمّ إلى وضعهما في حوض ماء حارّ مدّة ساعات، تفرك رأسيهما بمحلول سائل ذي رائحة كريهة

اشترته من أحد المعالجين. وتمكّنت في نهاية المطاف من التخلّص من كلّ بيوض القمل، لكنّها كادت أن تودي بحياة البنتين أثناء ذلك.

مضت أكثر من نصف ساعة على مغادرة الموجودين في صالون الحلاقة ـ الزبونات وعاملة الاستقبال والتي تهتمّ بالأظافر التي تأتي مرّتين في الأسبوع. وكانت ريتا قد قرّرت إحضار مصفّف شعر ـ وهذه عبارة راقية. الناس في إنكلترا يحبّون العبارات الفخمة والراقية حبًّا جمًّا. وكانت الأسماء التي يطلقونها على طعامهم قد صعقت بمبي: دجاج ذو نكهة مميّزة بالكوسكوس الحادّ. وكانت قد شاهدت هذا النوع من الطعام على قائمة الأطعمة في مطعم أنيق اصطحبها إلياس إليه. وكانت تلك المرّة الأولى والوحيدة التي خرجا معًا، ولم تشعر في حياتها أنّها غير مرتاحة كما شعرت في تلك المرّة. كانت تعلم أنّه يحاول أن يعثر على مكان يستطيعان أن يتجاذبا أطراف الحديث فيه من دون أن يراهما أحد، لكنّ ذلك مستحيل. صحيح؟ ليس لأنّ الناس منتشرون في كلّ مكان فحسب، بل بسبب القانون القديم الخاصّ بالكون وهو: أيًّا بذلت من جهود كي تتجنّب شيئًا ما أيًّا كان الثمن، فإنّك سوف تصادفه لا محالة.

ذكرت لإلياس من حول مائدة الغداء أنّ الناس في مسقط رأسها كانوا يضحكون إذا ما قدّمت لضيف مميّز طبقًا من الكوسكوس لأنّه طعام الفلّاحين. صحيح أنّ أسرتها لم تكن ثريّة ولكنّ أفرادها كانوا يعرفون الفرق بين الطبق الفقير والطبق المترف.

أمّا في إنكلترا، فإنّ الأمور معكوسة تمامًا. فكلمة كوسكوس كانت تحظى بالاحترام وإن كانت كلمة اعتياديّة. أمّا كلمة عار فكانت لا تؤخذ على محمل الجدّ وإن كانت كلمة بالغة الأهمّيّة.

وإذا ما خاب ظنّ الإنكليز من شيء ما، فإنّهم يهتفون قائلين: آه، يا له من عار، حتى وإن كان الأمر تافهًا ويفتقر إلى الصلة بالعبارة المذكورة.

أخبرتْ بمبي إلياس بكلّ هذه الأشياء كي تجعله يضحك، ولكنّه حملق فيها مكتئبًا إلى حدٍّ ما، كدأبه من حين إلى حين، وكأنّها تذكّره بأشياء أخرى أشدّ عمقًا وأكثر حزنًا.

وسأل إلياس في خبث:

ـ إذًا لو طلبتِ منّي تناول وجبة عشاء، فإنّك لن تقدّمي لي طبق الكوسكوس؟

ـ لا، بطبيعة الحال.

وشرحت له أصناف الطعام التي تودّ أن تقدّمها له. أوّلاً، الشوربة لأنّ كلّ الأطعمة تصبح ذات مذاق لذيذ عندما تكون المعدة حارّة. اللبن بالطرخون والنعنع والبرغل والسلطة بدبس الرمّان والحمّص المحمّص والمتبّل بالفلفل الأحمر وفطيرة العدس وطبق اللحم بمرق الباذنجان، وأخيرًا البقلاوة المصنوعة في البيوت.

وقال:

ـ أودّ أن أطهو الطعام وإيّاكِ في المطبخ نفسه، في مطبخنا.

كانت تلك واحدة من اللحظات القليلة النادرة التي تكلّما فيها عن مستقبلهما المشترك، واهمين بالاعتقاد أنّ مستقبلهما واحد.

* * *

صالون الحلاقة هو المكان الذي يقصّ فيه المرء شعر رأسه أو يصفّفه، ولكنّ الأكثر من هذا كلّه هو مكان تبادل الكلام. إنّ

السبب الذي يدفع بعض النساء إلى الذهاب إلى هذا المكان في غالب الأحيان ليس لأنّهنّ يرغبن في تغيير تسريحة الشعر بين أسبوع وآخر، بل لأنّ الكثيرات من النساء يرغبن في تجاذب أطراف الحديث رغبة قويّة ـ أن يتكلّمن بكلمات تشبه جدول ماء متعرّج، راضٍ بسريانه فحسب. وكانت الزبونات في حاجة أحيانًا إلى من تصغي لهنّ وتدلّلهنّ ـ بل تعاملهنّ معاملة الأميرات اللواتي قرأن عنهنّ يومًا ما في القصص والروايات.

لم تكن بمبي متحدّثة بارعة، بل كانت مستمعة مدهشة. فقد تعلّمت بسبب نشأتها في أسرة كبيرة أن تضع في الاعتبار غيرها من الناس أوّلاً، ولهذا وجدت في الإصغاء أمرًا سهلاً.

وكانت زبوناتها يهذرن في أمور تخصّ آمالهنّ وخيباتهنّ، وكانت تعرف أسماء أزواجهنّ وأطفالهنّ وكلابهنّ وحتى جيرانهنّ المزعجين. وعندما كنّ يحكين النكات، كانت تضحك في الوقت المناسب. وعندما كنَّ يهاجمن السياسيين، كانت تبادلهنّ الضحكات. وإذا ما تحدّثن عن تجارب تقطّع نياط القلوب، كانت عيناها تترقرقان بالدموع. كانت تفعل هذا كلّه بمفردات محدودة. كانت بعض الكلمات تفوتها أحيانًا، ولكن جوهر الموضوع لا يفوتها أبدًا.

كانت شمس الأصيل قد غابت منذ زمن بعيد، والشارع بدأ يتغيّر. فالمتاجر أقفلت أبوابها من على جانبي الطريق، وأصوات أبوابها المعدنيّة تصمّ الآذان: المتاجر التي تبيع الساري الهندي والمقهى اللبناني ودكّان الجزّار الذي يبيع اللحم الحلال ومركز التسوّق المحلّي الذي بدأ مؤخّرًا يبيع الدجاج المشوي.. الناس

الذين كانوا يشتغلون أو يتسوّقون في هذه المحلّات باتوا الآن في طريقهم إلى بيوتهم.

فرغت بمبي في الساعة الثامنة والنصف من كنس الأرض وغسل الفرش والقناني البلاستيكيّة التي كانت تمزج فيها أصباغ الشعر. كانت يداها قد اعتادتا الفرك والحكّ والمسح والتلميع على نحو جعلها تعتقد أنّهما تطيعانها إنْ أمرتهما ألّا تشتغلا. ولمّا لم يعد لديها ما تعمله، جذبت معطفها وحقيبة يدها، ورنت إلى محلّ آخر مرّة. وتمتمت:

ـ الوداع يا مجفّفات الشعر. الوداع أيّها المقصّ، أيّها القاصر، أيّتها اللفائف..

كانت قد قطعت عهدًا على نفسها ألّا تبكي. عضّت لسانها وهي تفتح الباب وتخطو إلى الشارع، فشاهدت رجلاً وامرأة كبيران في السنّ وهما يتبادلان قبلة ويتمايلان ويترنّحان. حاولت ألّا تنظر إليهما، ولكنّها لم تستطع. لقد مرّت ثمانية أعوام منذ أن وطأت أرض هذا البلد، ولكنّها على الرّغم من ذلك لم تألف رؤية الناس يتبادلون القبلات أمام الملأ. تنبّهت لها المرأة، فتراجعت عن حبيبها وهي تضحك ضحكة قصيرة وكأنّها فرحت بخجل بمبي.

أوصدت بمبي الباب، ووضعت المفتاح في صندوق رسائل ريتا في عجالة، ولكنّها أدركت أنّها نسيت أن تكتب رسالتها القصيرة وفكّرت أنّ الأفضل ترك الأمور على هذه الحال. لا ضرورة لشرح أيّ شيء، وحتى لو حاولت أن تشرح، فإنّها لم تعتقد أنّها سوف تنجح. الآن ينبغي لها العثور على إلياس وإخباره أنّ لقاءها به سيغدو صعبًا لها في الأيّام المقبلة.

* * *

لقاء غير متوقّع

لندن، ١٤ تشرين الثاني ١٩٧٨

بدا اسكندر، كعادته، في أحسن حالة عقليّة أثناء استراحة الغداء في المدرسة في يوم الثلاثاء: يناكد ويشاكس ويمازح. أكل فطيرته مصغيًا إلى اللغو والهذر الدائر من حوله. كان الصبيان يتكلّمون على لعبة اليوم المقبل: تشيلسي وموسكو دينامو.

وعلى حين بغتة، التفت أرشد إلى اسكندر وقال:

ـ هه! هلّا أعطيتني هذه الفطيرة؟

هزّ اسكندر رأسه نافيًا.

ـ لا . . . ليس لك. . . اذ. . . س. . . هـ. . . ذا.

أمسك المتحدّثون عن الكلام وحدّجوه بنظراتهم، إذْ لم يسبق لهم أن سمعوه يتلعثم على هذا النحو، أو يخجل. جاءت اللحظة ومرّت، فاستأنفوا لغوهم، ولكن قلق اسكندر بقي كما هو.

أبقى عينيه في الصفّ على ياقة التلميذ الجالس أمامه من دون

أن يتحرّك. ولبث على هذه الحال إلى أن حطّت ورقة مجعّدة على طاولته، فأمسك بها وفضّها، فوجدها مرسلة من كاتي:

ماغي وكريستي وهيلاري. إن كان ولدًا، فتوم.

ثم حطّت ورقة أخرى تستفسر إن كان على ما يرام. فكتب بخطّ رديء رسالة قصيرة لإشباع حبّ فضولها، وقذف بها إلى الوراء. ولكنّه على الرّغم من ذلك، أخذ حقيبته وخرج في اللحظة التي انتهى فيها الدرس حتى وإن كان يعلم جيّدًا أنّه سيكون في ورطة كبيرة بسبب خروجه من دون إذن. وبعد أن هام على وجهه من دون هدف فترة وجيزة، هرع إلى موقف الحافلات وهو يشعر أنّه صغير السنّ ورائع في زيّه أثناء ساعات الدراسة.

ولمّا وصلت الحافلة، سار في الممرّ من دون أن يلتفت كثيرًا إلى ما يحيط به. واخترقه الهواء الثقيل الكريه الرائحة إلى حدٍّ ما وكأنّه شظيّة حزن. كان الناس يقفون جماعات وإن كان ثمّة مقاعد كثيرة شاغرة في الوسط. وسرعان ما أدرك السبب، إذْ شاهد متشرّدًا مخبولاً يجلس وحيدًا ويكلّم نفسه، قذر الوجه، طويل اللحية، محتقن العينين. وكان قد خلع حذاءه الطويل الرقبة وبدأ يدلّك أخمص قدميه القذرتين المتقرّحتين وكأنّهما أثمن شيء في العالم. وكانت تنبعث منهما رائحة نتنة تشبه رائحة النفايات الدافئة، فتملأ الجوّ بها.

سار اسكندر متمايلاً نحو الرجل، بدافع من نزوة، وجلس بجانبه. حدّق المتشرّد إليه في بلاهة ومتعة وكأنّه يفكّر في ما دهاه. لاحظ اسكندر أنّ الناس كانوا يحدّجونه بنظراتهم أيضًا، ولكنّه لم يأبه بهم. فبعد أن بدأ يتلعثم في الكلام، انتابه إحساس أنّه مخبول إلى حدٍّ ما.

وعندما انعطفت الحافلة في تثاقل، لمح اسكندر انعكاسًا لصورته على النافذة المقابلة، ممتقع الوجه، غائر الخدّين. وعلى الرّغم من أنّه بلغ السادسة عشرة مؤخّرًا، إلّا أنّه بدا أكبر سنًّا.

وتذكّر كتابًا من الكتب الهزليّة سبق له أن طالعه، وكان شرطي التحرّي يصادف على الدوام نفسه المستقبليّة. لعلّ هذا ما يراه الآن - اسكندر الذي ما زال في طور الصيرورة.

عاد بأفكاره إلى تلعثمه، وفكّر إن كان قد أُصيب بجرثومة من الجراثيم، وفي هذه الحالة فإنّ أمّه تعرف ماذا ينبغي لها أن تفعل. سوف تحضر شاي الأعشاب لتهدئة حلقه وتفكّ عقدة لسانه. وإذا عصى عليها أمره، فسوف تكتب رسالة إلى خالته جميلة. ألم تعبّر دومًا عن فخرها واعتزازها بأنّ التوأمين تعرفان لغة الأعشاب السرّيّة! اتّكأ اسكندر في جلسته، والثقة تملأ نفسه من أنّه سوف يتماثل للشفاء. كان حبّه لأمّه يتّقد في فؤاده. لا يملك العمّ طارق سوى التفاهات. كم تمنّى لو كان في وسعه أن يعثر على آلة زمان ويسافر بها إلى الماضي، إلى أيّام صباه. قبل يونس. قبل أسماء. إلى الأيّام التي لم يكن فيها أحد سواه وسوى أمّه يحيط بهما حبّ طاهر غير مدنّس.

هكذا كانت حالته عندما وصلت الحافلة إلى لندن فيلدز.

وقال المخبول بنبرة رقيقة مخاطبًا كلّ من في الحافلة وكأنّهم أصدقاؤه:

- يبدو أنّ كلّ فرد في عجالة من أمره.

شعر اسكندر أنّه مضطر إلى أن يقول شيئًا ما، ولمّا لم يكن قادرًا على الكلام، أومأ في اتّجاه الرجل.

ـ تووووت. . . لا تدع الأمّ في الانتظار.

سرت في جسد اسكندر قشعريرة لمّا سمع هذا الكلام. ولمّا خطا إلى الخارج نحو ضوء النهار، ظلّت ضحكة الرجل تتردّد في ذهنه. كانت الساعة الثالثة والنصف عندما وصل البيت في شارع لافندر غروف وقرع الجرس.

* * *

كان إلياس جالسًا بمفرده في حجرة المعيشة، متواريًا إلى حدٍّ ما عن الأنظار بسبب الستائر المغلقة عندما سمع صوت وقع خطوات من وراء الباب.

وكان قد قال قبل أسبوع وهو يدرك أنّه يجتاز خطًّا غير مرئي:

ـ أريد أن أعرف أين تسكنين؟

ـ لماذا؟

ـ يا عزيزتي، أنت تعرفين أين أقطن، وتعرفين منزلي وعملي ولكنّك سرّ في نظري. فعندما تكونين في المنزل، بعيدة عنّي، أريد أن أقدر على تخيّل ما تفعلين. أحتاج إلى صورة في خيالي. هذا كلّ شيء.

فسألت بنبرة يشوبها الحزن:

ـ صورة؟

ـ نعم، حسنًا. صورة ليست شخصيّة، بل أعني لو في وسعي أن أحضر وأراك ـ بضع دقائق تكفي. لا شيء أكثر من هذا. سوف أحضر مثل هرّة وأنصرف مثل هرّة أيضًا، ولن يعرف أحد. مرّة واحدة لا أكثر. هل هذا ممكن؟

عضّت لسانها وهمهمت:

ـ خمس دقائق لا غير، وبعدها تمضي في سبيلك.

في عصر ذلك اليوم، كان الأطفال في المدرسة عندما دخل إلياس البيت في شارع لافندر غروف. وما إن اجتاز عتبة الدار حتى ندم على الفكرة من أساسها. فقد كان يدرك أنّ بمبي لم ترغب في قيامه بهذه الزيارة. والسبب الوحيد الذي أدّى بها إلى الخضوع لخطّته هو إرضاؤه. كانت متوتّرة توتّرًا شديدًا حتى إنّ أقلّ صوت كان يبعث القشعريرة في جسدها. وشعر بقلق شديد لا لأنّه جاء إلى منزلها فحسب، بل لأنّه دخل حياتها أيضًا وسبّب كلّ هذا الشقاء والألم. وكان يريد من حبّه أن يخلق الأعاجيب، ولكنّه يبدو أنّه لم يخلق سوى المتاعب. ولكي لا يتركها تشعر بأكثر ممّا شعرت به من حرج واضطراب، فقد لبث إلياس مرتديًا معطفه، وعلى استعداد للانصراف عند أوّل إشارة تبدر منها.

لكن على الرّغم من ذلك، كان المنزل نفسه يمثّل رؤية نافذة إلى عالم حبيبته الذي كان يتوق إليه توقًا شديدًا، لأنّ هذا البيت الصغير المعتم الذي أنفقت فيه بمبي وقتًا طويلاً بمفردها، كان هو السبب الذي يجعلها صنو راقصة الباليه الأولى والوحيدة في صندوق الموسيقى. فرأى المفارش الصغيرة المطرّزة والمخرّمة على طاولات القهوة والرفوف والكراسي، وشاهد النماذج التطريزيّة التي ابتكرتها وخضار الفلفل والباذنجان المجفّفة والمعلّقة بخيط قرب النافذة كي تعدّ الدولمة، وخفّها القرمزي بكراته المزركشة. استوعب التفاصيل والألوان. كان المكان معبقًا بروائح تتنافس بينها: مثل المعجّنات منزليّة الصنع والثياب المغسولة قبل قليل

ونكهة القرفة وماء الورد. كلّ شيء جديد في رأي إلياس، ولكنّه يشبه إلى حدٍّ كبير حياة أسرته التي تركها من ورائه في لبنان، ممّا أدّى إلى أن تترقرق الدموع في مآقيه.

عندما كان إلياس صبيًّا، أنفق فصل الصيف في بيروت رفقة جدّيه، يمشي الهوينى على ساحل البحر المتموّج تموّجًا هادئًا، ومن فوق الرمال الدافئة والوفيرة. وفي إحدى المرّات، وبعد هدوء العاصفة، صادف عددًا من المخلوقات التي تعيش في أعماق البحر وقد جرفها المدّ إلى الساحل وصُعق لمّا شاهد هذه العضويّات الغريبة وهي خارج موطنها. ومع مرور السنين، وبعد أن عمل في مدن غريبة لا حصر لها، واطّلع على حياة الجيل الأوّل من المهاجرين، فإنّه يستذكر هذا المشهد. فقد كانت هذه العضويّات قد انقطعت عن بيئتها الطبيعيّة، وأصبحت تتنفّس في هذا المكان الجديد في صعوبة ومشقّة، تنتظر في ضعفٍ المحيطَ كي يعيدها إليه، أو الساحل كي يبلع ما تشعر به من قلق واضطراب وأن يساعدها. فهم إلياس هذا الإحساس لأنّه كان على الدوام ينظر إلى نفسه بوصفه رجلاً عاش على سواحل ثقافات أخرى، ولكنّه يختلف عنها في قضيّة واحدة جوهريّة وهي أنّ في إمكانه أن يعيش في أيّ مكان، ولا تربطه رابطة بأيّ قطعة أرض مهما كانت.

سار إلياس نحو الباب وشكر بمبي إذْ سمحت له بالدخول، واعتذر لما سبّبه لها من ألم، فبدت مرتاحة وحزينة في آن واحد لرحيله. فقالت له في صوت هادئ:

ـ اشرب شايًا ثم ارحل.

ـ أأنتِ متأكّدة؟

ثمّة سماور برونزي على الطاولة يتصاعد منه بخار الماء. ارتعشت يداها ارتعاشًا شديدًا وهي تصبّ له الشاي في قدح، فأدّى ذلك إلى انسكاب قدر قليل من الشاي الساخن على قميصها القرمزي.

هتف إلياس:

ـ آه، لا! هل أحرقتِ نفسك؟

هزّت رأسها وهي تحاول أن تبعد قميصها عن يدها، وقالت:

ـ لا بأس. اشرب الشاي هنا وسأذهب لأغيّر القميص.

امتثل لأمرها ولبث في الانتظار. ولم يكد يفرغ من شرب شايه حتى قرع أحدٌ ما الجرس، وكان قرعًا قصيرًا، تبعه قرع آخر، أطول هذه المرّة وأكثر إلحاحًا. وشعر إلياس بالأعصاب تتصلّب في رقبته، وأصابعه تحكم الإمساك بالقدح.

اندفعت بمبي من حجرة نومها، وقميصها الأبيض مزرّر على نحو مرتبك، ونظرت إليه مرتعدة. فأولادها لم يحن موعد عودتهم إلّا بعد ساعتين ونصف الساعة، وجاراتها في أعمالهنّ فضلاً عن أنّهنّ لا يأتين إليها من دون سابق إنذار. فأشار إليها إلياس أن يختبئ وإن لم يكن لديه أيّة فكرة أين يختبئ وكيف. تبادلا همسات تنمّ عن شدّة توتّرهما، فزحف إلى تحت طاولة الطعام، وكأنّه في حلم مرعب لا يصدّق ما يحدث له.

وبعد ثانية واحدة، دُفع مفتاح في ثقب الباب، فامتقع وجه بمبي أيّما امتقاع، وعرفتْ من الباب، إذْ لا يوجد سوى شخص واحد لديه المفتاح.

* * *

ثوب السكون

لندن، ١ كانون الأوّل ١٩٧٨

كان إلياس يسقي نبتته الهوائيّة ماءها الشهري عندما تناهى إلى سمعه نبأ جريمة القتل أوّل مرّة. النباتات الهوائيّة كائنات غريبة، لغز عالم النبات. فهي تتشبّع بالرطوبة من خلال المسامات في أوراقها كي تعيش من دون أن تكون لها أيّة جذور في التربة، بخلاف بقيّة النباتات، وتتعلّق بمختلف الأجسام وتنمو غالبًا تحت الهواء. إنّها نباتات هائمة على وجهها. احتفظ إلياس بنبتة التيلاندزيا في محارة كبيرة وضعها في المطبخ. وعندما يصبح الجوّ داخل المنزل شديد الجفاف في فصل الصيف، فإنّه يغمر النبات بالماء كلّ عشرة أيّام ـ الحمام. أمّا الآن، فقد كان الوقت شتاءً، لهذا اكتفى برشّ مقدار قليل من الماء كلّ أربعة أسابيع ـ رذاذ الماء.

كان إلياس منشغلاً الانشغال كلّه في عمله، فلم يسمع الطرقة الأولى، فقد كان جرس الباب لا يعمل على نحو صحيح منذ

انقطاع التيّار الكهربائي آخر مرّة، ولم يتسنَّ له الوقت كي يصلحه. وفي غضون ثوانٍ معدودة، جاءت الطرقة الثانية أعلى صوتًا. استبدّ به حبّ الفضول لمعرفة من الطارق في هذه الساعة المبكرة، فوضع النبتة في مكانها وجفّف يديه بمنشفة.

كانت بمبي قد جاءت إلى شقّته أربع مرّات، خائفة ومسرعة كأنّها عصفور يتربّع فوق غصن شجرة قبل أن يجد في نفسه الشجاعة للطيران بعيدًا. وكانت قد جلست هادئة، يقظة وسريعة الانتباه، على الأريكة الجلديّة، والهرّة مكوّرة في حضنها. وكانت قد راقبته وهو يعمل في المطبخ المفتوح، مصغية له وهو يتكلّم. ابتسامتها حقيقيّة مثل القلق الواضح في عينيها.

كانت قد أثارت اهتمامه منذ البداية بما تتّصف به من تناقضات شديدة. وكان في وسعه أن يلاحظ مدى تذبذبها، وهشاشتها، ولكن من تحت ذلك كلّه، ثمّة طبقة من الإصرار ـ خيط من الشجاعة، عناد يصل حدّ الوقاحة، يعلو ويهبط. كلّ شيء متشابك. وفي تحديقتها، رأى ضوءًا سبق له أن شاهده في عيني أمّه عندما كان طفلاً، ولم يره في عين أيّ شخص آخر مرّة أخرى. ولكن على الرّغم من ذلك، لاحظ حزنًا دائميًّا يلقي بظلاله عليها، كان إلى حدٍّ ما هو الحزن المتعذّر على التفسير الذي جذبه إليها.

منذ اليوم الذي شبكا فيه يديهما في السينما أثناء مشاهدتهما شريط «اللقيط» معًا أوّل مرّة، اشتاق شوقًا كبيرًا إلى التعبير عن مشاعر حبّه لها، أن يكون ودودًا لها، بعيدًا عن أعين الناس أجمعين، وأن يخلّصها من العجالة التي هي فيها والإحساس بالذنب والخوف اللذين كانت تحملهما داخلها في كلّ مكان،

ولكن في كلّ مرّة كانت تزور شقّته، كان ثمّة إحساس غريب بالكبت يخيّم عليهما، بالانضباط الذاتي الذي لم يعلم أنّه قادر على إظهاره.

كان إلياس يريد حلّ اللغز الذي تمثّله، ولكنّه تمنّى شيئًا أكبر من ذلك وهو أن يجعلها سعيدة. هذه فكرة بدت له إيثاريّة ونبيلة إلى حدٍّ كبير، ولكنّه كان يدرك أنّها في جوهرها فكرة أنانيّة. كان يريد من حبّه أن يكون له مفعول العصا السحريّة التي تحوّل كلّ شيء تلمسه. وإذا ما أحبّها حبًّا طاهرًا وعميقًا بما يكفي، فيمكنه تحويل السندريلا إلى أميرة، جميلة وسعيدة جدًّا ومتوهّجة. وكانت هذه الرغبة في إعادة تكوينها في قالب أخفّ وأكثر حرِّيّة هي التي أغوته وأثارته.

كانت تتصرّف إلى حدٍّ ما تصرّف خادمة شابّة، فتسمح له أن يمسك يديها وأن يسرق منها قبلة ويضع رأسها على صدره ويستمتع بدفء جسده الملتصق بجسدها، ولكنّها لم تتجرّأ على فعل ما هو أكثر من ذلك. وسرعان ما شعر أنّ أيّة محاولة للتوغّل إلى ما هو أبعد من هذا الخطّ الفاصل بينهما سيثير قلقها تمامًا ويسبّب لها قدرًا كبيرًا من الشعور بالذنب. كانت مشاعر قد انتابتها قبل الآن أنّها امرأة ميتة: امرأة متزوّجة لها ثلاثة أطفال وتلتقي سرًّا رجلاً أكبر منها سنًّا. واعترفت له مرارًا أنّها تفضّل أن تحصل على الطلاق وكذلك فضّل زوجها، ولكنّها لم تشأ أن تسيء إلى أطفالها وبخاصّة الطفل الأصغر سنًّا. وكان ابتعادها جسديًّا عنه سببًا كي يجذبه إليها أكثر فأكثر بدلاً من أن يبعده عنها. وهكذا، فقد قبل بها وهي على هذه الحال ممّا كان يثير من دهشته.

وعلى حين بغتة، أضحى الجنس شبيهًا بالحلوى التي تقدّم بعد انتهاء وجبة طعام استغرقت وقتًا طويلاً. صحيح أنّ الحلوى سارّة ورائعة بخلاف الطبق الرئيس، كما أنّه ليس مستحيلاً تجاوزه عندما يحين وقته. الآن هما في مرحلة المقبّلات فحسب. ولم يعرف إلياس إلى أيّ مدًى يمكنهما الاستمرار على هذا النحو، كما أنّه لم يكن في عجالة من أمره كي يكتشف ذلك. ثمّة ما هو غريب في الامتناع عن الجنس، وهنا ضحك من نفسه لمّا وصل إلى هذا الاكتشاف وهو في هذه السنّ، وخاصّة بعد أن فكّر أنّه بلغ من الكبر ما يجعله لا يقدر على اكتشاف أيّ شيء جديد.

وقالت له يومًا ما:

ـ إنّ الله يختبرنا. أتظنّ أنّنا سوف ننجح؟

ـ لست مهتمًّا باختبارات الله، بل أريد مواجهة تحدّياتي.

لم يرقها سماعه وهو يتكلّم مثل هذا الكلام، لأنّها كانت تريد أن يكون كلاهما مفعمًا بالأمل ومخلصًا ـ وهما صفتان فقدهما منذ زمن طويل، هذا إن كان يتمتّع بهما أصلاً. فمنذ أن كان شابًّا يافعًا تمكّن من تدبير أموره من دون أن يتوسّل الحصول على أيّ شيء من قوّة أعظم، آثمًا باستمرار، إنْ كان ذلك إثمًا. ومع هذا، فهو لم يشأ أن يحطّم قلب بمبي ـ أو إلٰهها.

ولكن بالرّغم من ذلك، كان إلياس في صميم فؤاده على يقين من أنّ أناملهما سوف تلتقي يومًا ما، في القريب العاجل، من تلقائها وسيكون ذلك بداية مرحلة جديدة في حياتهما. وعندئذٍ يصبح في استطاعتهما النظر إلى عينيْ بعضهما بعضًا، نظرة جادّة وحيَّة وهما مطمئنان في عريهما. ولن تكون لديهما أيّة مخاوف أو

أيّ خجل. وسوف يكون الحبّ كافيًا، وستعقبه كلّ الأشياء الأخرى. وسوف تأتي إليه حرّة وخفيفة، ويساعدها في تنشئة أطفالها، ويكون حاضرًا كلّما احتاجت إليه. وسوف يغدق من حبّه ويحظى بالحبّ بدوره، وسيرتق ذلك الفتق الكامن في روحه.

وبينما كان إلياس يتقدّم إلى أمام على امتداد الممرّ ليردّ على الطارق، فإنّه لم يتمكّن من الحيلولة دون التفكير إن كانت بمبي هي التي جاءت لتزوره. ولكن ليس من دأبها أن تأتي على حين بغتة، وأنّ ثمّة احتمالاً في أنّها قرّرت مفاجأته. بيد أنّه أُصيب بخيبة أمل لمّا فتح الباب إذْ شاهد فتاة مراهقة غريبة ترتدي بنطالاً من الجينز وقميصًا خمريَّ اللون بأكمام فضفاضة، ولفاعًا حريريًّا أبيض اللون يلفّ رقبتها. وكان شعرها مفروقًا من الوسط، منسابًا إلى جانبي رأسها في تلافيف مسترسلة، كما كانت واسعة الجبين وبارزة الذقن.

قالت الفتاة:

ـ إنّني أبحث عن إلياس.

فقال مبتسمًا في حذر:

ـ نعم. كيف يمكنني مساعدتك؟

ـ إذًا، أنت هو؟

كان السؤال غير متوقّع، ينذر بالوعيد حتى عجز عن إخفاء مدى ارتباكه واضطرابه. وقالت:

ـ أمّي. . .

ـ عفوًا؟

رفعت الفتاة من بصرها من دون أن تنظر إلى عينيه، حذرة من نظراته الثاقبة.

ـ توفيت أمّي.

ثم استدارت، توشك أن تمضي في سبيلها، فما كان منه إلّا أن أمسك بها من مرفقها، في خشونة، والرعب يستبدّ به.

وسألها في صوت يتدفّق مرتعشًا:

ـ ماذا تقولين؟ من أنتِ؟

ثم أضاف بالنبرة نفسها:

ـ ومن هي أمّك؟

وهنا تنبّه إلى أنّها كانت تجهش بالبكاء. فقالت مؤنّبة إيّاه:

ـ ألا تعرف عمَّن أتكلّم؟

بدأ يفهم ما تقول، لكنّه تلعثم.

ـ إنّني... إنّني لا أفهم. لكن متى... وكيف؟

ـ طعنها أخي بسبب علاقتك الغراميّة بها.

اتّسعت عيناه وامتقع وجهه، وتوقّف قلبه لحظة قبل أن يتمكّن من تلقّي ما يرسله إليه دماغه. ترك ذراعها وهو مضطرّ إلى الاستناد إلى الجدار.

وقالت:

ـ أنت لم تجلب علينا سوى العار، وأرجو أن تكون الآن مطمئنًّا.

بدأ إلياس يفكّر في مدى حبّ هذه البنت لأمّها، ولكنّه على الرّغم من ذلك شعر نحوها بالحسد والضيق في آن واحد، ولم يكن يملك من الكلمات ما يجعله قادرًا على تعزيتها أو تعزية نفسه. ففتح فمه وأغلقه مثل سمكة ذهبيّة في وعاء.

ـ إنّنا لا نريد رؤيتك قريبًا منّا، ولا تحضر إلى مراسيم تشييعها، ولا تحاول أن تورّط نفسك أكثر من هذا. حسبك أن تتركنا وشأننا. هل فهمت؟

كان السؤال غاية في الإيلام، لا يمكن تركه من دون إجابة، ولهذا هزَّ إلياس رأسه، وقال:

ـ نعم.

ثم كرّرها ثانية:

ـ نعم.

ثم شاهدها وهي تعدو مضطربة وتهبط السلالم من دون أن تنظر إلى الوراء. ظلّ جزء منه غير قادر على تصديقها. وفكّر أنّ البنت قد اخترعت هذه الكذبة الفَظيعة مؤملة إنقاذ زواج والديها، فالصغار يلجأون إلى مثل هذا الكلام في كلّ وقت. وطمأن نفسه بألّا يجزع وأنّ كلّ شيء سيكون واضحًا في غضون ساعات.

وجد إلياس عذرًا كي لا يذهب إلى عمله، ومكث في شقّته من بعد ظهر ذلك اليوم، منتظرًا قدوم بمبي واطمئنانه إيّاه عليها. احتسى قليلاً من الشراب، ونام نومًا مضطربًا، واستيقظ من بعد ذلك وهو يشعر بطعم يشبه مذاق الصدأ في فمه. وكان أوّل شيء يفعله في صباح اليوم التالي هو شراء الصحف. فوجد الخبر. على الصفحة الأولى: «صبيّ يقتل أمّه غسلاً للعار». فطرفت عيناه لرؤية الكلمات التي قرأ كلّ واحدة منها وفهمها فهمًا تامًّا، ولكنّه رفض أن يفهم معناها برمّتها.

* * *

تنبّه إلياس أوّل مرّة إلى أنّ فتًى مراهقًا كان يتعقّبه عندما كان يشتري من الدكّان الهندي القريب عنبة لذيذة ومتبّلة بالبهارات لتناسب مختلف الأطباق. وكان قد هيَّأ نفسه كي يقدّمها مع أرنب منقوع بالخلّ. ولكنّه ما إن أمسك بزجاجة حتى شعر بضيق غريب مدركًا أنّ شخصًا ما يراقبه. فما كان منه إلّا أن التفت غريزيًا فرأى الفتى واقفًا خارج الدكّان يحدّجه بنظراته من خلف كومة من العلب والصناديق. وكان وجهه ينمّ عن حقد وبغضاء وإنْ شابه شيء من حبّ الاستطلاع. ولمع في عينيه وميض الاهتمام مثل شرارة تنبعث من فم محترق.

غادر إلياس الدكّان، ملتفتًا يمينًا ويسارًا ومصمّمًا على أن يكلّم الفتى إن رآه واقفًا خارج الدكّان. ولكنّه لم يجده لمّا خطا إلى الأمام فوق الرصيف. وافترض إلياس أنّ الفتى ربّما كان يبحث عن شخص آخر. لا ضرورة للهوس، واختار إلياس أن يصدّق هذا حتى وإن عرف الصبي: فقد اقترب من إلياس وطلب منه أن يشعل سيكارة في دار السينما، وكان يشبه بمبي شبهًا عظيمًا. وبعد يومين اثنين، رآه من جديد يدخّن سيكارة أمام مطعم كليو. ولمّا خرج من المطعم في تلك الليلة، مستعدًّا لما هو أسوأ، كان الفتى قد توارى عن الأنظار وتبخّر في الهواء.

وهكذا سارت الأمور. وفي الأسابيع القليلة اللاحقة، كان الفتى يتعقّب إلياس في مختلف ساعات النهار، يظهر للعيان ويتوارى مثل شبح تائه. ولم يحاول مرّة واحدة أن يتوارى عن أنظاره، وإن كان يترك مسافة كافية كي يطلق ساقيه للريح إنْ اقتضت الضرورة. ولم يذكر إلياس هذه المواجهات لبمبي، فكان

بهذا التصرّف قد ارتكب غلطة كبيرة، وهذا ما أدركه الآن.

* * *

رغب إلياس في أوقات كثيرة أن يذهب إلى المستشفى القريبة من منزل بمبي أو إلى المشرحة، بيد أنّ قلقه من المشهد الذي قد يتفجّر إذا ما صادف هناك أقرباءها أو جيرانها حال بينه وبين تنفيذ تلك الرغبة. وتمنّى أن يكلّم ابنتها على انفراد ثانية، ولكن حتى إذا ما تمكّن من العثور على الكلمات الملائمة، فإنّه توقّع ألّا يحظى بالترحيب، لأنّ الفتاة أوضحت ذلك له بكلّ جلاء. وفكّر في الذهاب إلى قسم الشرطة ولكنّه ظنّ أنّه لا يملك ما يقوله لهم.

أمضى إلياس الأيّام القليلة المقبلة في المطبخ عمومًا، مرتديًا الملابس نفسها، وسخ الشعر، خاملاً. وحضّر لنفسه أنواع الصلصة والشوربة: الحمراء والبرتقاليّة والبيضاء، التي ما من شأنه أن يقدّمها لأيّ شخص. في داخله ثورة، ونقد ذاتي وحزن وأسى، كلّ يعمل على هواه. كانت الغلطة غلطته إذْ ترك الأمور تصل إلى هذه النقطة، كلّ شيء من صنع يديه. كيف أخفق في ملاحظة ذلك؟ كيف يمكنه أن يكون ساذجًا إلى ذلك الحدّ؟

قالت الصحف إنّ اسكندر طبرق، وهو المتّهم الرئيس، طليق وهارب من القانون، فانتظره إلياس كي يظهر أمام الباب، وهو على استعداد لمواجهته. ولكن بدلاً من اسكندر، ظهر رجال شرطة سكوتلانديارد أمامه، وطرحوا عليه أسئلة أكثر ممّا ينبغي، والتقطوا صورًا لمنزله، وجمعوا معلومات مفصّلة عن عمله، وسألوه أسئلة لا نهاية لها عن علاقته بالمتوفّاة.

ولمّا انصرفوا في نهاية المطاف، أسدل إلياس الستائر وأشعل

شمعة، وظلّ يراقبها إلى أن أصبحت متناهية في الصغر. كما وضع أسطوانة لأغاني فيروز التي تغلغل صوتها العميق في كلّ شقّ من شقوق الشقّة، مغيّرًا بذلك جوّها مثل هبّة ريح قويّة. ولمّا انطلق صوتها يشدو أغنية «سكن الليل»، انهار وانفجر باكيًا:

سكن الليل/ وفي ثوب السكون/ تختبئ الأحلام

خدع إلياس نفسه طوال تلك السنين حتى اعتقد أنّه لا يستطيع قضاء يوم واحد بعيدًا عن مطعم كليو. وكان ردّه على الإرهاق الذي يصيبه من العمل الشاقّ يتمثّل على الدوام بالعمل أكثر وأكثر. ولكنّه في الأسابيع الثلاثة التالية ظلّ أسير شقّته، لا يغادرها إلّا نادرًا. وظلّ زملاؤه يتّصلون به، ويستفسرون عن موعد رجوعه إلى العمل. ولمّا شعروا بفداحة الألم الذي أُصيب به، ألحّوا عليه أن يتمتّع بإجازة بعض الوقت. وبعد مرور شهر، عيَّن إلياس الطاهي الثاني مسؤولاً عن المطعم. وبعد أن تحرّر من مسؤوليّاته، دخل حالة تشبه الحلم، وقد دُهش فيها إذْ اكتشف أنّ الأعمال العاجلة جدًّا لم تعد عاجلة بعد اليوم.

في بواكير العام ١٩٧٩، وبعد أن أدّى إلياس الشهادة في المحكمة ولم يعد لديه ما يفعله، أو يثبته أو يعترف به، أقدم على عمل لم يخطر بباله يومًا أن يُقدم عليه، إذْ وضَّب حقيبتيْ ملابس ووزّع بقيّة مقتنياته على المستخدمين. الهرّة الفارسيّة العجوز لأبابيل التي فرحت كثيرًا باستعادتها. ثم اشترى تذكرة سفر، ذهابًا من دون إياب، وعاد إلى مونتريال.

* * *

الساعة

أبو ظبي، آذار ١٩٨٢

ذهب آدم بُعيد فجر يوم ما إلى موقع البناء الذي يشتغل فيه، فاستبدّت الدهشة بالحارس الليلي ـ الباكستاني الضخم ذي العينين السوداوين الواسعتين ـ إذْ رآه، ولكنّه فرح لأنّه سيكون في رفقته.

قال الحارس:

ـ أنت مبكر اليوم!

ـ جفاني النوم.

ابتسم الرجل عن دراية، وقال:

ـ لا بدَّ أنّك اشتقت إلى زوجتك. أرسل لها مبلغًا من المال. وعندما تكون الزوجة سعيدة، فستكون أنت سعيدًا أيضًا.

بحث آدم عن جواب ينسجم والملاحظة التي أبداها الحارس شريطة ألّا تؤرق روح بمبي، ولكن كلّ ما صدر عنه هو إيماءة صغيرة من رأسه. رنا إلى عينيْ الحارس تلمعان مثل مجوهرات

سود ومتسائلاً إن كان صحيحًا جعل العينين أشدّ بريقًا ولمعانًا بوضع بضع قطرات من الليمون فيها.

وضع آدم سيكارة بين شفتيه وقدَّم واحدة للحارس، وظلَّا يدخّنان برهة وجيزة في صمت، كلّ واحد منهما غارق في أفكاره. واقتطع آدم جزءًا من الوقت متذكّرًا أيّام شبابه في اسطنبول عندما كان يجمع أعقاب السكائر من الشوارع ليجذب منها نفسًا واحدًا وأخيرًا. وفي أحد الأيّام عثر على سيكارة فوق الرصيف وعليها بقايا صبغة أحمر الشفاه. وانتابه العجب مرّتين، مرّة لأنّ شخصًا ما رمى بسيكارة لم يدخّن منها إلّا قليلاً، ومرّة أخرى لأنّ امرأة كانت تدخّنها في الشارع.

وعندما وصل لندن، أصبح من المألوف لديه رؤية امرأة تدخّن أمام الملأ، كما أنّ مشاركة روكسانا في تدخين سيكارة زادت من نشوتها تلك اللحظة من الألفة والمودّة.

وقال وهو يقدّم علبة السكائر المملوءة تقريبًا:

ـ تفضّل، خذها!

فسأله الرجل:

ـ أتعطيني إيّاها؟

ـ نعم، هديّة لأخي.

أشرق وجه الحارس متبسّمًا، كاشفًا بذلك عن صفّ من أسنان بيضاء كالحليب. وفكّر آدم: هل هي بيضاء بسبب عصير الليمون أيضًا؟ وندم لأنّه لم يجرّب ذلك. للإنكليز أسنان بائسة، وكان ينبغي له أن يخبرهم بأمر عصير الليمون.

وعلى حين بغتة، صكّت أسماعهما ضجّة مئات الأجنحة لطيور مهاجرة تحلّق من فوق رأسيهما، وكأنّها جسد واحد. لعلّ هذه الطيور كانت تحلّق قادمة من اسطنبول، أو ربّما جاءت من لندن وشاهدها أحد أولاده ـ أسماء وهي تخرج من مكتبة بعد أن اشترت مجموعة من كتب جديدة، أو يونس وهو يكتب على الجدران رفقة بعض أصدقائه، أو اسكندر، وهو في السجن، يتطلّع من وراء نافذة ويراقب المطر الخفيف وهو يضرب الفناء. لكن، لا. ما زال يجد التفكير في الابن الأكبر والمكان الذي انتهى إليه مؤلمًا جدًّا. لام آدم نفسه، وعدّ نفسه مسؤولاً عن الأعمال التي لم يستطع القيام بها أكثر من مسؤوليّته عن الأعمال التي قام بها. وفكّر في أنّه أدّى على الدوام دور المتهرّب من أداء المهامّ في الحياة، الغائب والخائف دومًا من أن تبتلعه الأرض.

ابتسم آدم ابتسامة حزينة عندما شاهد الباكستاني ينظر إليه. ثمّة براءة نادرة المثال في وجه الحارس الليلي ـ وتلك صفة لم يصادفها منذ زمن طويل ـ وشعر أنّه قريب من هذا الرجل، وكأنّ أحدهما يشاطر الآخر في خسارة واحدة. لو أنّهما التقيا في وقت آخر لسأله عن قضيّته، لأنّه كان يجب أن يطّلع على صور زوجة الرجل وأولاده، لأنّ هذا الرجل أعطى لآدم الانطباع بأنّه من النمط الذي يحمل صور أفراد أسرته معه أينما ذهب، حتى لو كان في الكوخ الموقّت الذي كان يرقب منه الليل بمفرده.

وربّما كان من شأن آدم أن يطلع الحارس الليلي على صور أولاده ـ اسكندر وأسماء وهي تحمل الطفل الصغير يونس بين ذراعيها، مزهوّة ومحتارة في الوقت نفسه ولم يكن قد مضى على

وجودهم في إنكلترا إلّا زمن قصير، وكانوا يلبسون ثيابًا رثّة إلى حدٍّ ما، ولكن ملامحهم كانت قد تأقلمت مع البلد الجديد. وكانت لدى آدم أيضًا صورة بمبي التقطها في اليوم الذي غادروا فيه اسطنبول، ولكنّه لم يشأ إطلاع أيّ شخص عليها، ولا حتى على نفسه هو.

نهض على قدميه وأشار إلى الموقع، وقال:

ـ إن كنت لا تمانع، فإنّ لديّ بعض الأمور أريد التفكير بها هناك.

فهزّ الحارس الليلي كتفيه، وقال:

ـ حسنًا، ولكن لا تفكّر كثيرًا.

ثم نقر على جبهته قائلاً:

ـ لأنّ في ذلك ضررًا على الدماغ.

مشى آدم متثاقلاً فوق الطريق المفروش بالحصاء. وفي الوقت الذي كاد أن يدخل المبنى الذي بدا مثل طيف في زرقة ذلك الصباح، هرول الحارس من ورائه ملوّحًا بجسم أصفر في يده.

ـ هه! انتظر! لقد نسيت أن تضع الخوذة على رأسك.

ـ آه، نعم، الخوذة. شكرًا لك أيّها الأخ.

وضع آدم الخوذة على رأسه وأدّى تحيّة جنديّ له ودخل.

* * *

عندما كان آدم في سنّ الثامنة ـ أو ربّما في سنّ التاسعة، هو غير متأكّد ـ أخذته أمّه في نزهة؛ وشعر بالزهو لأنّ أمّه اختارته هو من دون أخوته لمرافقتها.

سارا يدًا بيد، وكان الوقت نهار يوم خريفي دافئ، ولكنّه أشبه بفصل الربيع. وانعطفا إلى محطّة القطار، فاستبدّت الدهشة بالطفل الصغير لدى رؤيته القطارات ـ روائحها وأصواتها وروعتها. وكان ثمّة رجل ينتظرهما، يدخّن سيكارة من وراء عمود، متواريًا إلى حدٍّ ما عن الأنظار، شعر رأسه الأسود الفاحم مصفّف إلى الوراء فبرزت جبهته وحاجباه الكثيفان إلى أمام. كم من الوقت مضى عليه وهو واقف في هذا المكان؟ ما اسمه؟ كيف عرف أمّه؟ أسئلة لن يعرف لها جوابًا أبدًا.

وعندما شاهد الرجل المرأة تقترب، افترّ ثغره عن ابتسامة صغيرة واثقة ـ إلى أن رأى الصبيّ.

وقال:

ـ الطفل...

فقالت:

ـ أرجوك، لم أستطع ترك الطفل وحيدًا من ورائي.

ـ لقد تحدّثنا عن هذا الموضوع قبل الآن يا عائشة.

بدا الاستياء على الرجل، مثلما بدا في عجالة من أمره. وتحوّلت عيناه سريعًا من وجه المرأة إلى القطار، ومن القطار إلى الساعة الكبيرة المدوّرة.

وقالت بنبرة جامدة:

ـ إنّه أصغر أطفالي، وهو في حاجة إلى أمّ.

قذف الرجل سيكارته على الأرض وداس من فوقها، وكأنّه يسحق صرصورًا. ثم رفع رأسه وحملق في عينيْ المرأة.

ـ قلت لكِ إنّني لن أربّي طفل رجل آخر. اتركيه لدى أبيه، وهذا أفضل لكلّ واحد.

وضعت يدها على كتف ابنها في رفق، وقالت:

ـ اذهب يا ولدي واسأل أحد الناس عن الوقت.

ـ ماذا؟ ولكن...

فكرّرت عائشة:

ـ قلت لك اذهب واسأل.

وعندما رجع الصبيّ وعلم أنّ الساعة هي الحادية عشرة والدقيقة العشرون، وجد الرجل يشجب ويستنكر بينما وقفت أمّه تحدّق إلى قدميها من دون أن تنبس بكلمة.

وقال الرجل:

ـ لن نتمكّن من السفر بالقطار المقبل. وثمّة قطار آخر في الساعة الثالثة. ارجعي في ذلك الوقت. بمفردك.

وفي طريق الخروج أمسك كلّ واحد منهما بيد الآخر، الأمّ وولدها. وخرجا من المحطّة إلى حيث كانت السماء تمطر مطرًا خفيفًا لم يضطرهما إلى اللجوء إلى أيّ ملاذ. واشتريا قطعتين من السميط من بائع جوّال قريب وجلسا على السلالم. أطعم الصبيّ طيور الحمام بنصف قطعته من السميط، في حين راقبته أمّه بعينين غائمتين لا تبصران شيئًا.

ـ من ذلك الرجل؟

ـ صديق فحسب.

قال الولد وشفته ترتعش، ولم يقرّر بعد إن كان عليه أن يبدأ بالبكاء:

ـ لم يعجبني.

جذبته عائشة إليها ونفشت شعره، وقالت:

ـ وأنا أيضًا لا يعجبني.

على الرّغم من الإحساس بالارتياح الذي راود الصبيّ لدى سماعه هذا الكلام، إلّا أنّه عرف أنّ ثمّة خطأً ما، خطأً شنيعًا حتى إنّ أمّه لم تنهره عندما ركض ركضًا دائريًّا لإفزاع الحمائم وإبعادها، والعرق يتصبّب منه داخل سترته السميكة. وحتى عندما داس على البرك الموحلة وأصدر حذاءه صوتًا غريبًا نتيجة تسرّب الماء داخله، وتجمّدت أصابع قدميه، فإنّ أمّه لبثت صامتة.

ـ أريد أن أرافقكِ.

فسألته:

ـ آه، حقًّا؟

ـ نعم يا ماما. أريد منك أن تأخذيني معك. وعد.

وعلى حين بغتة تحوّلت عائشة إلى الجدّ، وقالت:

ـ نعم يا حبيبي الصغير.

فصحّح لها الصبيّ كلامها:

ـ لا، عليك أن تقولي يا حبيبي الكبير.

* * *

دخل آدم مصعد الشحن وضغط على الزرّ الأعلى: اثنان وعشرون. وبعد ذلك ينبغي له أن يرتقي السلالم كي يصل الطبقة السابعة والعشرين.

من هنا لا يمكنك أن تذهب إلى أيّ مكان آخر لأنّه لا يوجد أيّ هيكل بناء، وإنّما قضبان حديديّة لا أكثر. وعندما يكتمل البناء، فإنّه سيكون أطول مبنى في أبو ظبي.

وعندما وصل القمّة، جذب كيسًا من إسمنت على مقربة من الحافّة وجلس من فوقه، جافّ الفم، مرتجف اليدين على النحو الذي باتت ترتجف فيه في هذه الأيّام. غير أنّ المشهد كان هائلاً غارقًا في الضوء، أفضل بكثير من المشهد الذي يحظى به الأغنياء من شققهم ومكاتبهم الأنيقة. وفي الطرف المقابل له ثمّة فندق مشهور بشرفات مزخرفة وواجهة معقّدة في شكلها. وتخيّل في لحظة من لحظات الزمان أنّ ثمّة من يراقبه ـ وهو إحساس زال بالسرعة نفسها التي راوده فيها.

وبينما هو جالس في مكانه يرقب السحب وهي تجري من فوقه، وقد تدلّى ساقاه من فوق الهيكل، حاول أن يتخيّل متى طرق سمع الوالد أوّل مرّة بما يدور من أقاويل عن والدته. وعلى الرّغم من مضي زمن بعيد على ذلك الحدث، فإنّه لم يستطع أن يتذكّر أيّ مشهد من مشاهد طفولته يتّضح فيه أنّ أباه كان على معرفة بالأمر. ولم يستطع أن يتذكّر أيّ شخص يمكن أن يكون قد لطّخ سمعة عائشة، وإن فطن إلى أنّ عددًا لا بأس به من الناس قد تورّطوا في ذلك. أهو أحد الجيران؟ أهو الجزّار الذي يبيع اللحم الحلال من حول الناصية ـ الذي زلَّ لسانه أثناء تقطيعه لحم الضأن؟ أم هو شخص غريب تمامًا جالس بجانبه في المقهى متظاهرًا أنّه صديق ولكن فمه لا يطلق سوى الافتراءات والأحقاد؟

إنّ التلميح يسير بسرعة أكبر من سرعة الضوء. وكان الناس

يقولون: ماذا يمكننا أن نفعل لرجل طيّب مثلك؟ ويقدّمون عزاءً كاذبًا، ويعتاشون على شقاء غيرهم.

كُرّرتْ هذه القصّة نفسها على مدى السنين، جيلاً إثر جيل. وقبل وقت قصير، كان قد وصل عامل تركي يعرف بالجريمة التي اقترفها اسكندر والسبب الكامن من ورائها. لو كان للرجل لسان طويل، وهو شيء واثق منه آدم ثقة تامّة، فإنّ الشائعة سوف تنتشر في هذا المكان أيضًا، وسوف يرى في عيون زملائه العمّال الوميض البشع الذي أصبح مألوفًا لديه ـ شفقة وازدراء وحبّ استطلاع. لكن لا يهمّ. فقد قرّر آدم منذ فترة أنّ أيّ شيء لن يهمّه بعد اليوم. إنّه ظلُّ رجلٍ كان حاضرًا يومًا ما، وليس في وسع أحد أن يؤذي ظلًّا من الظلال.

كان الأفق البعيد مكسوًّا بخيط من شعاع برتقالي ـ قرمزي، زاهٍ ومثير. وبدا العالم من تحت هذا الألق هادئًا وحكيمًا على نحو غريب. جلس آدم في موقعه دهشًا بانبلاج الصبح، والمباني البعيدة متوهّجة في إطار هذا المنظر الهادئ. بدت السماء وكأنّها انشقّت لتكشف عن كون آخر، كلّ ما فيه من مخلوقات من صنع الله.

* * *

لم ترجع أمّ آدم إلى محطّة القطار في الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم، وعوضًا عن ذلك، أمسكت بيد ولدها وخرجت وإيّاه إلى ضواحي المدينة. صعدا إلى إحدى التلال، يصارعان الريح ويتجاهلان علامات الدلالة على امتداد الطريق والتي كتب عليها: ممنوع التجاوز. كان ممنوعًا الاقتراب على هذا النحو من السدّ، ولكنّهما مع ذلك اقتربا. لم يشاهدهما أحد ولم يوقفهما

أحد! جلسا على السدّة والمياه تتألّق بشكل غامض من تحتهما.

قالت عائشة:

ـ هل رأيت؟ إنّني لن أتركك. هل أنت سعيد؟

أجاب الصبي بالإيجاب، أسنانه تصطكّ، وشفتاه تزرقّان بزرقة شاحبة وإن لم يكن الطقس باردًا إلى تلك الدرجة. ثمّة منديل في يده، ظلّ يلويه مرّة إثر أخرى حتى تحوّل إلى عقدة صعب عليه حلّها.

وسمع نفسه يتوسّل إلى أمّه، وأزيز أنفاسه يتواصل:

ـ لنعد إلى البيت.. أريد الذهاب!

فقالت في نبرة حادّة:

ـ ماذا في البيت؟

كان صوتها خشنًا خشونة الهواء الرطب، بل صوت شخص غريب. ولكنّها، على ما يبدو، شعرت بالخجل من ردّ فعلها تجاه ابنها، فوضعت إصبعها على شفتيه، وأردفت في رقّة:

ـ إهدأ!

وسرعان ما ران الصمت على كلّ شيء كأنّ طاعتها واجبة: زيز الحصاد وصرّار الليل في الحقل، والشاحنات البعيدة على الطريق، بل حتى اسطنبول بما فيها من نشاط وحركة.. لقد توقّف العالم عن الحركة. كلّ شخص وكلّ شيء رهن إشارتها. وهي لعبة يمارسانها. شعر آدم بأنّه متميّز، وناضج، أمّا والدته فكانت تطلعه هو وليس أخواته على سرّها.

ـ أمّاه....

ـ نعم؟

ـ إلى أين نحن ذاهبان؟

ـ تحدّثنا في هذا الموضوع من قبل يا حبيبي.

ـ نسيت.

ـ سوف نذهب إلى منطقة جميلة فيها الكثير من التفّاح المغطّى بطبقة من الطوفي.

ـ ولكن إذا أكلتُ كمِّيّة كبيرة تسوّست أسناني.

ـ لا تقلق.. يمكنك أن تأكل قدر ما تشاء.

حاول آدم أن يظهر قدرًا من البهجة، ولكن عينيه بقيتا مرتبكتين ومضطربتين، إذْ لم يعجبه تغيّر نبرة الصوت. على الأمّهات أن ينهرن ويقلقن إذا ما تسوّست الأسنان بسبب الحلوى أو إذا ما اضطربت المعدة!! وأدرك في وقت متأخّر أنّ ما من أحد كان يؤدّي واجبه على الوجه الأمثل.

تنهّدت عائشة وشعرت بقلق ولدها شعور البومة عندما تتنبّه لأقلّ حركة في الظلمة. وقالت وهي تنظر إلى الأرض:

ـ سوف نذهب إلى مكان لا يصاب فيه أحد بالمرض. وسوف تكون أسنانك في حالة جيّدة، ولن يوجعني رأسي من بعد ذلك. أليس هذا بالشيء الرائع؟

أراد أن يسألها: لماذا تبكين إذًا! ولكنّه عجز. كانت إضمامتها إيّاه رقيقة ومؤلمة. ولمّا ضمّها إليه كان في وسعه أن يحسّ بحرارة الشمس على جسدها. ففي أنفاسها ـ ومن تحت رائحتها الدافئة والعذبة المألوفة ـ رائحة غريبة تدلّ على شيء متعفّن. لمس كدمة

على خدّها الأيمن، تحت عينها مباشرة، لم يتبيّنها عندما خرجا من البيت. غير أنّ مساحيق التجميل زالت لتجعل العلامة واضحة بما فيها من قباحة زرقاء مخضرّة، يزداد لونها عمقًا في الوسط.

استبدّ بآدم خوف لا يشبه أيّ خوف سبق له أنْ مرَّ به، فتشبّث بيد أمّه، أنامله باردة وشاحبة وهي تلمس يدها. اقترب الإثنان من الحافّة، يجرّان ظلالهما من خلفهما. شفتاها لا تتوقّفان عن التمتمة، فعرف أنّها كانت تتوجّه بالأدعية. وفي اللحظة التي كادت أن تدفع بنفسها إلى الأمام وهي ممسكة به، لفّه رعب هائل، واندفع بعيدًا، محرّرًا يده من يدها بالسرعة نفسها التي يُمتشق فيها الخنجر من غمده. هذه الحركة المفاجئة شوّشت كلّ شيء، وأفقدتها توازنها في لحظة من الزمان، إن لم تكن قد فقدت إصرارها وعزيمتها. وسقطت عائشة، ولكن بدلاً من أن تسقط في المياه المنحدرة من تحت، فقد تعثّرت إلى هذا الجانب وذاك، وتدحرجت أسفل التلّ، وهوت على بعد بضع ياردات، فجرحت الحجارة والنباتات وجهها، وشقّت شفتها السفلى.

فصرخ بها من عل:

ـ هل أنتِ على ما يرام يا أمّاه؟

كانت بخير، وليست بخير تمامًا. فعادا أدراجهما إلى البيت ولم يتفوّها بكلمة عمّا حدث لأيّ بشر.

وبعد مرور عامين، لم تعد عائشة تطيق التحمّل، فهجرتهم. ففي أحد الصباحات خرجت من البيت، ولم يعد معطفها على المشجب، فضلاً عن اختفاء حقيبة ثياب رثّة من تحت سريرها. ورفض آدم أن يصدّق أنّها مضت في سبيلها من دون أن تصحبه

وإيّاها، ولكي يطمئن نفسه أنّ هذه الحالة ليست كذلك، فقد فتح درج منضدة زِينتها مرّات ومرّات في اليوم الواحد، باحثًا عن مرآة. بمقبض فضّي وفرشاة شعر. فما دامت هاتان القطعتان موجودتين فإنّها ستعود إلى البيت. وعندما تناولتها الألسن بالقيل والقال، داخل المنزل وخارجه، أصغى آدم إلى ما يتفوّهون به من كلام بذيء، ولكنّه لم يذكر لأحد، خاصّة البابا (البابا السكّير) أنّها حاولت الانتحار وهو معها. ولم يفض بشيء عن الرجل الذي رآه في محطّة القطار ـ الرجل الذي أدرك الآن أنّ أمّه هربت وإيّاه.

* * *

في الليلة السابقة، كان آدم قد راهن وقامر وخسر في الشقّة الكئيبة على طرف الصحراء، خسر مبلغًا كبيرًا من المال لم يعد في مستطاعه أن يعيده أبدًا مهما عمل طويلاً ساعات إضافيّة. وبعد أن مسح عينيه الآن، تنشّق دهشًا قطرات الدمع على يده. لم يعرف أنّه كان يبكي، وإنْ لم يكن شعوره منطويًا على حزنٍ أو أسًى. غمره إحساس عميق باللامبالاة وعدم الاكتراث، والقبول بالأشياء التي لا طاقة له على تغييرها ـ ومنها نفسه.

نزع ساعته ووضعها جانبًا، حذرًا كي لا تنكسر. إنْ كانت الساعة من نوع روليكس الأصليّة فإنّه كان يفضّل أن يخلّفها لأحد أولاده، ربّما ليونس. ولكنّه لم يرغب في أن يترك لأيّ ولد من أولاده، هديّة مزيّفة. كلّ ما تمنّاه هو أن يكون الحارس الليلي هو الشخص الذي سوف يعثر عليها.

* * *

سجن شروزبيري ١٩٩١

يوقظني زيشان في فجر اليوم التالي للتأمّل. وعلى العكس من بقيّة الأيّام، فإنّني لا أتذمّر. نجلس القرفصاء على الأرض، يواجه أحدنا الآخر. يبتسم. وأتعجّب من أين له هذه الحيويّة وهذا النشاط!

يقول كعهده دائمًا:

ـ أفرغ دماغك. تلوّث الهواء يضرّ المدن. تلوّث الدماغ يضرّ بالإنسان.

نجلس صامتين على مدى عشر دقائق. هذا هو تمرين علّمني إيّاه في الشهر الماضي. يفترض بي ألّا أفكّر في أيّ شيء، وهو ما لا طاقة لي به. ويبدأ عقلي باللفّ والدوران وسرعان ما يغدو كهف ساحرات. يستبدّ بي قلق بخصوص الزائر الغامض. لا أستطيع التوقّف عن متابعة المرشّحين المحتملين. العمّ طارق، الخطيب، صديقي القديم أرشد... لا أريد رؤية أيّ واحد منهم. ألومهم لأنّهم هم الذي جعلوني أصل إلى هذه الحال. ولكنّهم على الرّغم من ذلك طلقاء، يتمتّعون بحياتهم. أمّا أنا، فأحترق في هذا المكان.

إذًا، التأمّل لا يفيد. لا يفيد أبدًا. غير أنّ زيشان لا يبدو مقتنعًا. لا، أبدًا.

ـ عندما تفكّر بالآخرين يا اسكندر، فإنّ كلّ طاقتك الداخليّة تنصرف إليهم، فلا يبقى لديك أيّ شيء.

في عالم زيشان، ثمّة شبكات غير مرئيّة في فضاء تربط بين

الناس والحوادث والأماكن. ونحن نرسل بوساطة هذه القنوات الموادّ من شخص إلى آخر. تمامًا، مثل شريط من أشرطة الخيال العلمي السينمائيّة.

ـ قلب الإنسان يشبه الطبّاخ، فنحن نصدر حرارة ونصنع الطاقة كلّ يوم، ولكنّنا عندما نوجّه أصابع الاتّهام إلى الآخرين، بعبارات فظيعة، فإنّ الطاقة الداخليّة تتّجه وجهة أخرى. ويصبح قلبنا باردًا.

يقول زيشان:

ـ يُفضَّل النظر إلى الداخل على الدوام. اترك الآخرين وشأنهم. كلّ مرارة حقيبة ثقيلة. فلم تحملها؟ أنت منطاد مملوء بهواء حارّ. قل لي: أتريد الصعود إلى أعلى أم الهبوط إلى أسفل؟ اترك الغضب والأذى. وابعد عنك حملك. ثمّة قوسان في الكون. الأوّل صاعد والثاني هابط. كلّ بشر في حالة حركة مستمرّة. البعض يهبط إلى أسفل، والبعض يصعد إلى أعلى. فإذا أردت أن تصعد، فما عليك إلّا البدء بتوجيه النقد إلى نفسك. فالإنسان الذي لا يستطيع أن يرى أخطاءه لا يمكن شفاؤه!

حاولت مرّات ومرّات أن أسدّد لكمة قويّة إلى وجه زيشان منذ اليوم الذي جاء فيه إلى زنزانتي، أو أن أطلب منه أن يلتزم الصمت. لكنّ الغريب هو أنّني لم أتمكّن من تنفيذ ذلك. لا بدَّ أنّني أسامح هذا الرجل إلى أبعد الحدود. أصغي إلى هذيانه الذي لا حدود له، فأبتهج أحيانًا وأقتنع إلى حدٍ ما أحيانًا أخرى. لهذا، فإنّني عندما أسمع ما يردّد، تراني أصغي له.

ـ عندما يأتيك زائر من الماضي، فلا يُجنّ جنونك.

أضحك.

ـ يجنّ جنوني!

ـ نعم، نعم. لا تتشاجر مع أحد. فأنت منهمك في العمل بينك وبين نفسك. لا تنسَ ذلك! أنت جوهرة، ولكن بحافّات مدبّبة، جدًّا. عليك أن تعتمد على قلبك مثل العامل.

هذا الرجل يربكني بكلامه. ولكنّه يتمكّن بالقدر نفسه من أن يسمّيني الطبّاخ، والمنطاد الحارّ الهواء وعامل البناء. ثم أسمع نفسي أردّد: لست جوهرة يا زيشان. أنا لست مثلك، فقد ارتكبت جريمة، جريمة كبرى.

يغمض زيشان عينيه وينفث الهواء، ويتنهّد تنهيدة طويلة وعميقة تذكّرني بنوبات الربو التي كانت تداهم أبي.

ـ كثيرون هم الذين يهبطون في هذا العالم، ولكنّ القليل منهم هو الذي يسقط من أعلى إلى أسفل. ولكن هل تعرف ماذا هناك عند طرف القوس؟

ـ لا.

فيقول:

ـ تبًّا. لقد كنت هناك. آه، إنّ روحك تحترق، ولكن ينبغي لها أن تحترق لأنّك ارتكبت إثمًا عظيمًا. عليك أن تحترق، وبعد ذلك تبدأ بشقّ طريقك إلى أعلى. قوس الصعود. هل تعرف ماذا هناك في طرفه؟

فأقول له متسائلاً:

ـ الجنّة؟

- نعم، عندما نحبّ وعندما نكون محبوبين، وعندما نكون متحرّرين من طاقة الأذى، فإنّنا نقترب من الجنّة. خطوة صغيرة في كلّ يوم. أنا لا أعدك أنّك سوف تقدر على ذلك، ولكنّنا نحاول يا أليكس. نحاول.

في ذلك الأسبوع نفسه، أذهب إلى غرفة الزوّار من دون أن أعرف ماذا أتوقّع. الضابط ماك لوخلين حاضر. لا يرنو إليّ، ولكنّ الأمر لا يحتاج إلى قفزة كبيرة من الخيال لأن أدرك أنّه يريد أن يراقب المشهد، إنْ كان ثمّة مشهد.

ثم أراه. إنّه يونس. أخي الصغير الذي لم أره منذ سنين طويلة. منذ اليوم الذي اعتقلت فيه، جاء لزيارتي مرّتين لا أكثر. المرّة الأولى بعد الملاكمة مباشرة. ولم نتكلّم أثناءها بكلمة واحدة. حسبه أنّه جلس. ينظر إلى يديه. ثم جاء بعد مرور عام واحد. ولم يتكلّم أيضًا. ثم توقّف عن المجيء.

إنّه رجل بالغ. متوسّط الطول، رشيق القامة، بهيّ الطلعة، وبقدر ما تغيّر فإنّ عينيه لم تتغيّرا. عينان رائعتان، عطوفتان، كثيفتا الرموش. عينا صبيّ مغرم بفتاة من البانك.

- مرحبًا أيّها الرفيق.

فيقول:

- مرحبًا أيّها الأخ.

يحدّق أحدنا إلى الآخر. أُشيح بنظري أوّلاً. الأسهل عليّ مواجهة أسماء. تكرهني. واضح الوضوح كلّه. تأتي إلى هنا من وقت إلى آخر لكي تصبّ جامّ غضبها. تقول كلّ شيء أمامي وممّا لا ريب فيه، من ورائي أيضًا. ولكنّها على الرّغم من ذلك، لم

تجعلني أشعر بنصف الذنب الذي أشعر به الآن. ثمّة شيء ما في عيني يونس لا أفهمه: ضرورة الفهم. ما يزال يبحث عن تفسير. ما يزال يعتقد أنّ البشر طيّبون وأنّ شيئًا ما، شرّيرًا، تغلَّب عليَّ كي يحدث مثل هذا الأمر الفظيع.

ـ كيف حالك والموسيقى؟

يقول في حدّة:

ـ رائع. صدر ألبومي الأوّل قبل وقت قصير. أحضرت لك نسخة ولكنّهم صادروها منّي، وقالوا لي إنّهم سوف يسلّمونك إيّاها.

فأقول وأنا أعلم أنّني لن أحصل على ذلك الألبوم:

ـ نعم، لا تقلق بشأن ذلك. لماذا أتيت إلى هنا يا يونس؟ لا تسيء فهمي. إنّني سعيد لرؤيتك، ولكنّني... في دهشة.

يتردّد في الكلام. ويمرّ ظلّ من على وجهه، فيقول:

ـ سوف تخرج من السجن عمّا قريب، وأحبّ أنّ أعرف ما هي مشاريعك؟

مشاريعي؟ يبدو هذا واهيًا. يشبه كلام صبيان الكشّافة، لكن هذا هو أخي الأصغر، ولن أفطر فؤاده. كما أنّني وعدت زيشان أن أبدأ بالصعود، بغض النظر عن معنى ذلك.

ـ مشاريعي هي أن أعثر على وظيفة محترمة وأتجنّب الدَّين وأعيش حياة هادئة. وإذا ما كانت كاتي مستعدّة لأن تكون عاقلة، فإنّني سوف ألحق بولدي.

أنتظر دقّة من دقّات قلبي.

ـ وأن أقضي وقتًا أطول رفقتك ورفقة أسماء. إن أردتما منّي العودة.

اعتدل يونس في جلسته ورمقني بنظرة مباشرة.

ـ كنت أسأل نفسي طوال هذه السنين. وكذلك أسماء. لقد اتّفقتا. أمّا الآن فإنّني لا أجازف.

أضحك ضحكة مكبوتة من دون ابتسامة.

ـ هه! كفّ عن الحديث بالألغاز. أنا لا أعرف ماذا تعني.

تنفّس تنفّسًا عميقًا.

ـ كنتُ طفلاً صغيرًا عندما قتلْتَ أمّي. ولم أتمكّن من منعك. أمّا إذا ألحقت الأذى بها من جديد، فهذا أمر مختلف. فأنا لم أعد طفلاً صغيرًا، وسوف أقاتلك.

مرّت لحظة فكّرت فيها أنّ أخي فقد عقله. فقد شاهدت هذا يحدث من قبل. رجال في جناح المجانين، طارت عقولهم من فرط الحزن.

ـ ماذا تقول يا يونس؟

ـ أقول إنّني أحبّ أمّي ولن أدعك تلحق الأذى بها.

ـ أخي، إنّ ماما...

فيقاطعني في صوت عالٍ:

ـ لا، لم أفرغ من الكلام بعد.

ينظر الضابط ماك لوخلين إلى جهتنا والبريق في عينيه. فالمسرحيّة التي كان يأمل في مشاهدتها توشك أن تبدأ.

وهنا يخفض يونس من صوته حتى يغدو همسًا يجعلني غير

متأكّد إن كنت قد فهمت ما يقول:

ويقول:

ـ استمع إليَّ يا اسكندر. ماما على قيد الحياة.

اسكندر طبرق

* * *

صورة طبق الأصل

لندن، ٣٠ تشرين الثاني ١٩٧٨

رفع يونس رأسه من فوق طبق وجبة الفطور وابتسم للمرأتين الجالستين على الأريكة. لقد حدثت معجزة، فقد وصلت خالته جميلة مدينة لندن، وكانت قد مرَّت ثلاثة أعوام منذ أن رآها الصبي آخر مرّة. أمّا قبل ذلك، فقد زاروها بين حين وآخر، وكانت معظم الزيارات في فصل الصيف، وهي لقاءات قصيرة ومكثّفة جدًّا حتى إنّهم كانوا يصابون بوجع الرأس. لكنّ الأسرة توقّفت في السنوات الثلاث الأخيرة عن السفر بعد أن أصبحت الإجازات تكلّف مبالغ طائلة لا طاقة لهم على تحمّلها بعد الآن. واليوم، وبعد شوق متبادل، أصبحت الشقيقتان تحت سقف واحد: بخت بمبي وبس جميلة.

كان يونس قد جلس متّكئًا وبدأ يفتّش عن الفروق بين التوأمين المتشابهتين تشابهًا تامًّا وكأنّهما صورة طبق الأصل، وكان في تفتيشه عن الفروق وكأنّه يلعب لعبة الشخص المفرد الذي يبقى

وحيدًا بعد تقسيم الآخرين إلى جماعات. فقد كانت بمبي يسراويّة وجميلة يمينيّة. وكانت لبمبي غمّازة على خدّها الأيمن بينما كانت لجميلة غمّازة على خدّها الأيسر. وكانت شامة بمبي على الجانب الأيمن من جبينها، بينما كانت شامة جميلة على الجانب الأيسر. وكانت خصلتا شعر كلّ واحدة منهما المرفوعتان أعلى الجبين تنموان في اتّجاهين متعاكسين. وكانت جميلة أطول من بمبي بمقدار نصف بوصة، وأطرافها أطول قليلاً، وأصابع يديها ناتئة العظام.

وسأل يونس:

ـ ثم ماذا يا أمّي؟

ـ هناك اختلاف آخر، فقد نسيت أهمّ فرق.

فقال يونس:

ـ حقًّا؟ وما هو؟

فجاء الجواب من جميلة.

ـ قلبانا يدقّان في اتّجاهين معاكسين.

ـ ما معنى هذا؟

كانت لديهما حالة قلّما توجد بين التوائم. فقد كان قلب بمبي يدقّ في الجهة اليسرى من بدنها في حين كان قلب جميلة في الجهة اليمنى.

فهتف يونس مندهشًا:

ـ آه!

ضحكت بمبي لمّا رأت الدهشة والحماسة على الوجوه، وشعرت أنّها أكثر خفّة وكمالاً ممّا كانت عليه قبل زمن طويل.

ولم يتنبّه أحد إلى أنّ جميلة لم تستطع تحيّة اثنين من أفراد الأسرة، وهما آدم الذي كان قد رحل عن لندن وسافر إلى أبو ظبي، واسكندر الذي جاء إلى المنزل في الليلة الفائتة بعد أن كان الآخرون نيامًا، وخرج قبل أن تؤاتي الفرصة بمبي لكي تخبره أنّ خالته جاءت إليهم، فأعدّوا العدّة لمفاجأته في ذلك المساء.

توسّل يونس بأمّه كي تدعه يبقى في البيت، لأنّه لم يكن على ما يرام، وقال إنّ لوزتيه تؤلمانه وإنّه مريض. وكانت بمبي تعرف جيّدًا أنّه كان يبالغ كثيرًا حتى وإن كان في كلامه شيء من الصدق. ولكن فرحتها بوجودها رفقة أختها التوأم بلغت حدًّا جعلها تسمح لولدها أن يغيب عن المدرسة يومًا واحدًا.

وبينما هم يتناولون الشاي بجانب النافذة، بدأ الحديث باللغة الكرديّة وبهذا استُبعد يونس من الحديث بها. وأسرَّت بمبي لأختها جميلة أنّ الناس قد تناهى إلى سمعهم خبر علاقتها بإلياس على نحوٍ ما. ثمّة لغو وقيل وقال وانتقادات شديدة وصلت مسامع اسكندر، فلم يعد ينظر إليها منذئذٍ، وهمست قائلة إنّ اسكندر حال بينها وبين الذهاب إلى العمل، ولمّا لم يكن ذلك الإجراء كافيًا، منعها من الخروج من المنزل. شرحت كلّ هذه التفاصيل وهي تغتصب ابتسامة كي لا يفطن يونس إلى مدى قلقها.

وقالت جميلة:

ـ إن شاء الله سوف نحلّ هذه المشكلة. دعيني أكلّم ابن أختي.

ثم افترّ ثغرها عن ابتسامة وكأنّ الجملة التي تفوّهت بها باتت واقعًا محسوسًا.

ـ سأخبرك بشيء ما. لم لا أخرج وأنجز التسوّق اليوم؟

كانت تريد شراء خضراوات طازجة وخبز لذيذ وأفضل ما توافر من أعشاب. لم تكن تتكلّم كلمة واحدة بالإنكليزيّة، ولكن لو تمكّن يونس، الذي يبدو أنّه شفي فجأة من ألم اللوزتين، من مدّ يد العون لها، فلن تكون ثمّة مشكلة.

انتهز يونس الفرصة بعد أن تحمّس لقضاء الوقت رفقة خالته.

ـ نعم، نعم يا أمّاه. دعيني أذهب!

وكان كلّ ما قالته بمبي هو:

ـ ولكن لا تتأخّر.

كان يومًا ككلّ الأيّام. وما أن احتذى يونس وجميلة أحذيتهم. ولبسا معطفيهما حتى أوقفتهما بمبي.

ـ آه، انتظر لحظة!

فتّشت عن قلم شفاه في حقيبتها، وكان باللون البنفسجي الغامق، وطلت به شفتي شقيقتها اللتين كانتا جافّتين وشاحبتين بسبب تعرّضها للشمس والرياح والإهمال على مدى سنوات طويلة. ثم جذبت بحركة واحدة الوشاح من على رأس شقيقتها، فانساب شعر جميلة الكثيف على كتفيها، شلّالاً من لونين بنّي، وبنّي داكن.

ـ أنتِ أكثر جمالاً الآن.

تردّدت جميلة. وسنحت لها الفرصة كي تلقي نظرة خاطفة على شكلها في المرآة الرفيعة المثبّتة في الممرّ: يا لهذا الثوب الجديد، وهذا الشعر الجديد! هذا الشكل الجديد الذي ظهرت به آثار قلقها. وحثّها يونس الواقف إلى جانبها قائلاً باللغة التركيّة:

ـ هيّا يا خالتي. أنت رائعة.

فوافقته على رأيه.

ـ إن كان هذا ظنّك.

ابتسمت بمبي ومنحت أختها مبلغًا من المال وناولت يونس حفنة من نقود معدنيّة. ثم قبّلتهما، وقالت:

ـ لا تنسيا شراء حبّ الهال، فلدينا لحم على العشاء هذه الليلة، وأنا في حاجة ماسّة له كي أضيفه إلى القهوة.

وهكذا خرج الاثنان من البيت: جميلة ويونس، فرحين، مبتهجين في رفقة أحدهما الآخر. حاولت جميلة أن تتكلّم باللغة الكرديّة، ولكنّها شعرت بخيبة الأمل لمّا رأته غير قادر على فهمها. كلاهما ضعيف في اللغة التركيّة ولهذا لم يتحدّثا إلّا قليلاً، وأمسك كلّ واحد منهما بيد الآخر، مستمتعين وسعيدين. وبقدر ما كان يونس سعيدًا وإيّاها، فقد وجد بعد مرور ساعتين على التسوّق فرصة للعودة إلى المنزل، لأنّ لديه مشاغل أخرى، أكثر أهمّيّة، ينبغي له أن ينجزها بعد أن رأى مصادفةً توبيكو في الشارع.

كان شبّان البانك يخطّطون للاستيلاء من جديد على بيتهم القديم. وها قد حلَّ اليوم الموعود أخيرًا. ففي منتصف الليل، سوف يشنّ الفريق هجومهم الذي طال انتظارهم له بعد أن حشدوا قوّاتهم. وسوف يلجأون إلى استعمال العتلات للوصول إلى الإعلانات الضخمة المحيطة بالبيت الفكتوري، ويحتلّون المكان ثانية بما لديهم من حقائب نوم وذخيرة. وفي صباح اليوم التالي، سوف يستيقظ كلّ الجيران ليجدوهم في البيت، وإذا ما أرسل المجلس المحلّي «جنوده» فسوف يطردونهم مستخدمين الحجارة والزجاجات.

لمّا لاحظ يونس مدى استياء توبيكو، استأذن خالته كي يذهب إلى بعض أصدقائه وقضاء بعض الوقت وإيّاهم. وقال إنّهما قد أصبحا على بعد مسافة قصيرة من المنزل في كلّ الأحوال، وأنّهما اشتريا كلّ ما هو مدوَّن على القائمة.

وسألته جميلة:

ـ هل أنت متأكّد من أنّ والدتك لا تمانع؟

بدا كلامها أشبه بتأنيب بسيط وليس سؤالاً، فما كان من يونس إلّا أن طمأنها بقوله:

ـ أعدك أنّني سألحق بك بعد دقائق.

أومأت جميلة برأسها وحملت الأكياس وسارت في الاتّجاه الذي أشار إليها يونس أن تتبعه. توقّفت بضع مرّات أثناء سيرها، كي تستمع إلى أحد عازفي الشارع، أو تحدّق إلى لوحة على أحد الجدران أو إلقاء نظرة على واجهات المحلّات، وتفكّر مندهشة في شتّى أنواع السلع المعروضة للبيع. كانت مشتّتة الانتباه والأفكار، إحساسها بالرهبة والدهشة لوجودها في مثل هذه المدينة الغريبة جعلها لا تنتبه إلى أنّ شخصًا ما بدأ يتعقّب أثرها.

* * *

شجرة ليمون

لندن، ٣٠ تشرين الثاني ١٩٧٨

كانت بمبي في المطبخ تدندن بأغنية عاطفيّة كرديّة قديمة بعنوان «سوزان سوزي»، وكانت بالغة الحزن، مؤثّرة في نفس المغني كما هو شأن معظم الأغاني العاطفيّة الكرديّة القديمة، ولكنّها على الرّغم من ذلك لم تكن حزينة. صحيح أنّ عقلها كان في دوّامة وقلبها متشوّق إلى إلياس، إلّا أنّها لم تستطع منع نفسها من الإحساس بالجذل والحبور. فقد جدّد حضور أختها إيمانها بالحياة ومنحها أملاً جديدًا. قبل بضعة أشهر، كانت قد كتبت رسالة إلى آدم شرحت له فيها أنّهما مضطرّان إلى الانفصال انفصالاً نهائيًّا ومن دون رجعة. ولكنّه لم يردّ على رسالتها. والآن سوف تبحث لها عن محامٍ، وسوف ينتاب الحزن آدم ولكنّه لن يصاب بالدهشة. ربّما سيكون مرتاحًا لأنّها هي، وليس هو، من بادر إلى اتّخاذ الخطوة الأولى في هذا الاتّجاه. ممّا لا ريب فيه أنّ إقناع اسكندر أكثر صعوبة، ولكن ربّما ستتمكّن من جعله يفهم. ولن

تخبره بأيّة أكاذيب، بل ستقول له الحقّ. لا شيء غير الحقّ. وسوف تغدو الأشياء مختلفة من الآن فصاعدًا. لم تعرف بمبي وسيلة إلى ذلك، ولكنّها كانت متأكّدة من أنّ الأمور ستجري على هذا النحو.

وبعد أن وضعت خطّة، انطلقت لإعداد فطيرة الليمون بالسكّر والبيض ـ وهي وصفة تعلّمتها من إلياس. وكان الأمل يراودها في إدهاش جميلة بهذه الفطيرة الحلوة المذاق. فقد كانتا تقضمان الليمون المملّح عن حبّ عندما كانتا بنتين صغيرتين وكانتا تردّدان: حامض + حامض = حلو. ولم تكن أخواتهما الأكبر سنًّا منهما بقادرات على أكل مثل هذا الليمون الحامض المملّح، وكانت وجوههنّ تتلوّى عند كلّ محاولة. ولكنّ الأختان التوأمان كانتا قادرتين على أكل خمس ليمونات دفعة واحدة، وكان المربّى المفضّل لديهما هو المربّى الحامض ـ الحلو على الدوام.

ولكن لا يبدو أنّ ثمّة بقيّة باقية من تلك الشهيّة التي كانت تتمتّع بها جميلة. فقد وصلت لندن قبل يوم واحد، ولم تأكل من يومها إلّا مقدارًا قليلاً من الطعام، ولم تتكلّم عن نفسها إلّا نادرًا. أمّا شقيقتها، فقد تغيّرت. عيناها تظلّلهما دوائر سود، ابتسامتها متردّدة، تنمّ عن اعتذار. لكن هذه التغييرات كانت طفيفة جدًّا، لم يلحظها أحد سوى بمبي.

واستبدّت الدهشة بالأطفال لمّا رأوا مدى التشابه الكبير بين والدتهم وخالتهم. وفي إحدى المرّات، خلعت جميلة ثيابها الصوفيّة الخشنة وارتدت أحد فساتين بمبي ومشّطت شعرها على طريقة أختها ـ بخصلة شعر تنسدل إلى الجهة الأماميّة من رأسها ـ

فكان يستحيل معرفة الفرق بينهما.

ولمّا فرغت بمبي من إعداد البيض وخفقه بالسكّر إلى أن أصبح رغوة كثيفة، أشعلت الفرن. وكان إلياس قد نصحها بإضافة كمِّيّة كبيرة من الليمون المبروش، وكانت هي تحتفظ بكمِّيّة كبيرة من الليمون والبرتقال والليموناضة في سلّة من الخيزران تضعها على الشرفة. حاولت في الماضي أن ترعى أشجار الليمون، ولكنّ الصقيع المفاجئ كان يقضي عليها في كلّ مرّة.

هرعت بمبي إلى الشرفة وهي ما تزال تدندن بالأغنية نفسها. فخفضت من بصرها عن غير عمد إلى ما تحت الحاجز الحديدي، في اتّجاه الشارع. شيء ما جذب انتباهها. وبعد ثانية واحدة، شاهدت أختها التوأم تدخل شارع لافندر غروف حاملة عددًا من الأكياس. فاشرأبّت من فوق الحاجز ولوّحت، لكن شقيقتها لم تتنبّه لها في بداية الأمر.

ـ جميلة... انظري إلى أعلى! هنا!

رفعت جميلة من بصرها في اتّجاه الشرفة، واكتسى وجهها بملامح السكينة والهدوء. وهنا أشرق وجهه بمبي عن ابتسامة. ورأت من تحت ملامح شقيقتها الرزينة والهادئة شيئًا من سذاجتها الطفوليّة، رقيقة رقّة الضباب. ولم تستطع منع نفسها من حسد شقيقتها على جاذبيّتها. صحيح أنّهما توأمان، ولكنّهما ليستا متشابهتين. فالجاذبيّة صفة طبيعيّة عند جميلة، تمامًا مثل نحلة تحطّ رحالها على زهرة، تفيض حيويّة ونشاطًا وإشراقًا، ملؤها العزم والثبات ورباطة الجأش؛ وهي، كما ظنّت بمبي، على العكس منها.

ـ إنّني أعدّ طبقًا من الحلوى لك.

فسألت جميلة، وقد شتّت سيّارة عابرة انتباهها:

ـ ماذا؟

ـ إنّني . . .

ولكن بمبي توقّفت عن الكلام بعد أن رأت اسكندر قادمًا من بداية الطريق.

راقبت بمبي ابنها ثانية أو ثانيتين وهو يسير من وراء أختها. ضاقت عينا اسكندر حتى أصبحتا مثل شقّين. مطبق الفكّين، شفتاه تتحرّكان من دون توقّف وكأنّه يحارب نفسه.

لم تستطع معرفة ماذا يجري. وحتى عندما شاهدته يندفع في اتّجاه جميلة، وحتى عندما شاهدت السكّين في يده، وحتى عندما اعترض طريق أختها وتفوّه بكلمات ترقى إلى شحذ نفسه بالعزم والتصميم إزاء أيّة شكوك، فإنّ ما رأته يحدث أمام أنظارها تواصل من دون معنى، ولكنّ الستارة التي كانت تغشى عينيها ارتفعت على حين بغتة، ورأت الحقيقة كلّها، الخطر كلّه. شعرت أنّها فقدت القدرة على التنفّس. وهرعت، والليمون في يدها، من الشرفة إلى حجرة المعيشة، فالممرّ، ثم خرجت من الباب إلى الشارع.

ركضت بمبي. وكانت على بعد ثمانية أقدام عندما رأت ابنها يطعن أختها. هزَّ اسكندر السكّين في عجالة وصبيانيّة، كأنّما يريد أن ينتهي منها على الفور ويمضي في سبيله. ورسم النصل نصف دائرة في الهواء، وتغلغل في جسد جميلة، وفي الجانب الأيمن من صدرها تحديدًا. وأدركت من فورها أنّ السكّين أُغمد في قلب أختها.

تراجع اسكندر خطوة إلى الوراء، وتوقّف هنيهة، مقطّبًا ينظر إلى السكّين في يده. وبدا مشوّشًا، برهة وجيزة، وكأنّه لا يدري ماذا فعل، كأنّه دمية ترقص عند جذب خيوطها، وأنّه لم يدرك ما حدث إلّا في هذه اللحظة. فرمى السكّين وهرع في الاتّجاه المعاكس.

كان في وسع بمبي أن تسمع شخصًا ما يصرخ. صراخ يصمّ الآذان في عاصفة. ومضت دقيقة أخرى قبل أن تدرك أنّ الصوت صوتها. لم تستطع الحراك. فقد باتت بلا جسد. بلا جوهر. ليس لها سوى الصوت. كيانها كلّه تضاءل ـ أو تضخّم ـ ليغدو صرخة فسحت المجال أمام صرخات أخرى دوّت متصاعدة، خارج إرادتها، تدور وتدور، وتذوب في صدًى لا نهاية له.

تعثّرت بمبي في اتّجاه أختها، متقلّبة المعدة، واسعة العينين. محتويات الأكياس تبعثرت على الطريق. خبز وجبنة وتفّاح أخضر وريحان وعلبة هال.

حضنت بمبي أختها وكأنّها تسير نائمة، وقبّلت وجه جميلة ـ جبينها وعظام وجنتيها والتجويف الناعم في مقدّمة رقبتها. فحصت نبضها. ساكن. جسدها يترنّح، فقد حرارته. وامتقع وجهها وضاع منه ألقه، باستثناء الشفتين اللتين باتتا بلون جرحها. وبدأت بمبي ترتعش، كأنّ الحياة تنزف من جسدها. وبانت على الأرض بركة من دم غامق اللون يقترب من السواد، اتّسعت وازدادت سمكًا. وسمعت صوت وقع أقدام مسرعة، ونبرات أصوات مكتومة. صافرة سيّارة إسعاف تدور من حول الناصية. أبواب سيّارة تغلق بقوّة، أجهزة اتّصال تابعة للشرطة. ترنّحت بعيدًا عن جسد أختها

التوأم. الطريق المسفلتة صلبة وهي تطأها بخفّها.

بعد مرور نصف دقيقة، اقتربت امرأة متقدّمة في العمر، وهي جارة ألبانيّة طيّبة القلب، من المكان، قادمة من الجهة الأخرى للشارع بعد أن جذبت الجلبة والضجّة أنظارها. ثم تقدّمت من الجثّة الممدّة على الأرض، خائفة محتارة، وجثت على ركبتيها، تصرخ وتولول:

ـ آه، أيّتها المسكينة! ماذا حدث لك يا عزيزتي بمبي؟

وعلى مقربة من المكان، سرت القشعريرة في أرجاء جسد بمبي. فقد صكّ سمعها صوت العويل والصياح من أجلها، فبدا غريبًا مؤثّرًا، ولكنّه من جهة أخرى ساعدها على فصل نفسها عن محيطها. فلم تتوقّف، ولم تلتفت إلى الوراء، بل أحاطت صدرها بذراعيها، مطأطئة رأسها وكأنّها تسير في مواجهة ريح عاتية، وطافت بين الجموع المحتشدة مثل شبح آلت هي إليه الآن.

* * *

ظلّت بمبي تطوف في الشوارع على امتداد ما تبقّى من نهار ذلك اليوم، وشاهدت من مناطق إيست لندن ما لم تشاهده من قبل. كانت تعرف أنّها لا تستطيع الذهاب إلى إلياس بينما كان اسكندر حرًّا وطليقًا في مكان ما. ولم ينقضِ وقت طويل حتى أدرك ابنها غلطته، فعاد يبحث عنها. وكان خوفها قد بلغ بها مبلغًا كبيرًا لم تعد تستطيع معه أن تحزن من أجل أختها، وباتت كثيرة الهواجس والمخاوف وكأنّ القلق مادّة، سائل استحوذ عليها شيئًا فشيئًا.

اضطرت أكثر من مرّة إلى التوقّف كي تأخذ نفسًا عميقًا يمكّنها

من الاحتفاظ بتوازنها. ودارت من حول صالون المقصّ البلّوري إلى أن وصلت قبالة المدخل. كانت قد تخلّت عن عملها من دون تفسير. وكانت قد وضعت المفاتيح في صندوق الرسائل وأنهت علاقتها بالعمل. توارت من خلف سيّارة البريد الملكي وراقبت ريتا المفعمة بالحيويّة والنشاط من خلال الواجهة الزجاجيّة. ورأت زبونتين داخل الصالون وامرأة أخرى لا بدَّ أن تكون هي المتدرّبة الجديدة ـ امرأة آسيويّة شابّة، شعرها بلون الباذنجان.

تسلّلت بمبي إلى المنطقة الواقعة خلف الصالون حيث تجفّف المناشف والصدريّات. لو كانت محظوظة، لوجدت شيئًا تلبسه، فقد كان قميصها ملوّثًا بدم كانت تخفيه بوضع ذراعيها متشابكتين من فوقه، وظهرها محدودبًا. المضحك أنّ عابري السبيل المارّين بها لم ينتبهوا لها، أو ربّما آثروا ألّا ينظروا. فتحت الباب الخلفي، وتقدّمت ثم توقّفت.

تقدّمت المرأة المتدرّبة لجمع المناشف من حبل الغسيل متمايلة إلى هذه الجهة وتلك الجهة على أنغام الموسيقى المنبعثة من داخل الصالون، وفي فمها علكة. فات الأوان كي تتراجع بمبي، مثلما لم تجد مكانًا تلجأ إليه بعيدًا عن الأنظار. ووجدت بمبي نفسها تنظر إلى هذه المراهقة فاغرة فمها والتي نظرت إليها في دهشة أيضًا.

قالت بمبي، وقد تورّدت وجنتاها:

ـ آسفة.

ثم مشت إلى أمام وأمسكت بصدريّة وابتعدت.

فهتفت بها الفتاة:

ـ ماذا تفعلين؟ لصّة، لصّة!

لكن بمبي كانت قد توارت عن الأنظار.

ظلّت على مدى الساعات القليلة التالية تتجوّل. الشمس الغاربة تلقي ظلًّا على مؤخّر عنقها. ليس لديها مكان تذهب إليه. فإذا ما ذهبت إلى قسم الشرطة، فسوف يحقّقون معها. ولمّا كانت عاجزة عن التفاهم باللغة، فإنّها سوف تخفق في الإجابة عن أسئلتهم، وربّما ينتهي بها المطاف إلى أن تكون هي المسؤولة عمّا حدث.

ولم يكن في وسعها اللجوء إلى بيت الجيران. فمن ذا الذي يرغب في تحمّل المخاطرة؟ يضاف إلى ذلك، لا تعرف إن كان اسكندر تصرّف من تلقاء نفسه أو أنّه كان مدفوعًا من آخرين. وإذا كان الأمر كذلك، فمن هم المتورّطون الآخرون؟ هل لطارق دخل في القضيّة؟ وزوجها؟ هل أقنع الأخوان اسكندر، سلطانها وقرّة عينها، على قتل أمّه؟ كان رأسها في دوّامة، لا تقوى على إيلاء ثقتها إلى أيّ بشر، باستثناء إلياس. وكان التفكير فيه كافيًا لأن يجعل قشعريرة تسري في بدنها. هكذا إذًا. لن تلتقيه ثانية. وحمدت الله أنّ اسكندر لا يعرف محلّ سكن إلياس أو عمله. وإذا ما بقيت بعيدة عن إلياس، فإنّ إلياس سيكون في خير. الأفضل أن يعتقد أنّها قضت نحبها.

الإثم هو تلك الأفعى المخادعة التي تتغذّى داخل صدرها على مدى شهور حتى اكتنز جسمها بمرور الأيّام، وظهرت الآن للعيان بكلّ قوّتها القبيحة لتنهش روحها. لامت نفسها، نفسها وحدها ولا أحد غيرها. لقد تسبّبت علاقتها الغراميّة بإلياس

بالمصيبة التي حلّت بها. كيف يمكنها أن تراه من جديد؟ الحقيقة هي أنّ بمبي ظلّت حتى تلك اللحظة وفي ذلك المكان تجد العذر لاسكندر. وتاقت روحها لرؤية ولديها الآخرين. وفكّرت في ما قد يفعلانه عندما يكتشفان أنّ خالتهما توفّيت وأنّ أمّهما ضاعت؟ ما الذي سيقوله رجال الشرطة لهم، وما الذي سيقولانه بدورهما للشرطة؟

عندما أرخى الظلام سدوله، عادت بمبي إلى حيّها السكني، تسير سيرًا متلكّئًا من فرط تعبها، وإن كانت تعلم خطورة ذلك. توارت عن الأنظار قدر الإمكان ووصلت إلى شارع لافندر غروف. وشاهدت فوق البقعة التي توفّيت فيها جميلة قبل بضع ساعات تخطيطًا مرسومًا لها بالطبشور الأبيض، وكانت المنطقة قد طُوّقت ومُنع الأهالي من الاقتراب منها، وإن كان عدد قليل منهم وقفوا على مقربة يدخّنون ويتبادلون الحديث. ولمّا وجدت صعوبة في الاقتراب أكثر، قرّرت أن تغيب عن الأنظار.

وفي تلك الليلة، عثرت بمبي على ركن وُضعت فيه نفايات أمام مصرف باركليز، فتكوّرت فيه، تجفل وتنكمش كلّما مرقت سيّارة من أمامها. لجأت إلى مرافق صحّيّة عموميّة وتوسّلت من صاحب مطعم أن يمنحها ماءً وطعامًا، وبكت حتى نامت.

وجاء متشرّد ووقف بجانبها وصاح:

ـ استيقظي! انهضي أيّتها النفايات!

كان الرجل طويل القامة، منتفخ البطن بالجعة، متورّم الوجه، كثّ الحاجبين، وبلا أسنان. وأضاف:

ـ تبًّا لك! ماذا تظنّين نفسك فاعلة في مكاني.

قالت بمبي مذعورة، مرتعشة الشفتين:

ـ أنا . . . أنا آسفة.

واشتمّت رائحته التي كانت مزيجًا من الخمرة والتبغ والعثّ والبول. تقدّم الرجل منها، مصمّمًا على أمر ما، ولكن بمبي راوغته وأطلقت ساقيها للريح.

ـ تعالي، تعالي أيّتها العصفورة الصغيرة. لماذا تخافين؟

راقبها المتشرّد تندفع مسرعة وتهبط الشارع إلى أن غابت عن أنظاره من وراء منعطف الطريق. وضحك ضحكة نصف مكبوتة وكأنّه سمع نكتة، وجلس في الركن الذي ما زال دافئًا وتنهّد وهو ينزع حذاءه الثقيل، وبدأ يفرك قدميه شارد الذهن.

* * *

أسماء

لندن، ١ كانون الأوّل ١٩٧٨

ثمّة كمّيات كبيرة من الطعام في المطبخ ـ في قدور كبيرة وصغيرة مملوءة بما لذَّ وطاب، تفوح منها روائح لاذعة وقويّة: طعام مقدّم في كسرولة ومعجّنات وحلويات وضعت كلّها فوق الطاولة والمنضدة والكراسي والأرض. لا أعرف من الذي سيأكل كلّ هذا الطعام في حين لا يوجد في المنزل إلّا أنا ويونس. لكنّ المعزّين استمرّوا في التدفّق وكانوا يأتون حاملين طعامهم، مصمّمين على تقديمه لنا. وفي حجرة الجلوس، جلست نساء من مختلف الأعمار، الواحدة بجانب الأخرى. بعضهنّ جارات قديمات، والبعض الآخر نساء لا أعرفهنّ إلّا معرفة قليلة. وثمّة نساء أخريات أراهنّ لأوّل مرّة. ومع وفود كلّ مجموعة من الزائرات، كانت العمّة ميرال، المضيفة، تنهض واقفة على قدميها وترحّب بهنّ وتولول وإيّاهنّ. كنت أنا ويونس جالسين في ركن، حاضرين وغائبين في الوقت عينه ـ مثل سمكتين ناعستين في

حوض زجاجي فارغ. كانت كلّ واحدة تأتي إلينا وتحدّق وتُنعم النظر فينا وتنقر على الجدار الزجاجي الذي يفصلنا عنهنّ، ثم ينتظرن ماذا سنفعل. كنّا نسمعهنّ ونراهنّ ولكنّنا لم نكن نشعر بأيّ شيء، لا نحسّ بكلمات التعزية التي يتفوّهن بها. ذهننا منشغل في حلّ أحجية لا يعلمها إلّا أنا وهو.

قال يونس في صوت حادّ:

ـ الغلطة غلطتي يا أسماء.

ـ ماذا تعني؟

ـ لقد تركت خالتي بمفردها.

أمسكت يده، وعانقته.

ـ اسكندر هو الذي أقدم على ذلك العمل وليس أنت.

ـ لكن إذا كانت الخالة جميلة في سيّارة الإسعاف، فأين ماما؟

ـ هذا ما أفكّر فيه.

سوف نعرف الجواب في أقلّ من ساعة. ففي منتصف النهار، فُتح الباب ودخلت ضيفة جديدة، متّشحة باللون الأخضر من قمّة رأسها حتى أخمص قدميها، وعلى رأسها قبّعة ريش. حدَّقت إلى المعزّيات بما تنزيّن به من أشياء لامعة، وأظافر مطليّة، وتصرّفات غريبة، من دون أن تنبس بكلمة.

لكنّني أنا شخصيًّا سررت بمجيئها، وقلت لها:

ـ آه، ريتا...

ثم هرعت إليها دامعة العينين.

جلسنا معًا إلى طاولة المطبخ بعيدًا عن العيون الفضوليّة.

همست:

ـ لم تمت أمّي.

فأومأت برأسها.

ـ وهل هي معك؟

إيماءة أخرى.

أخبرتني ريتا أنّها ذهبت مبكرة في صباح ذلك اليوم لفتح محلّها فوجدت زميلتها القديمة في المحلّ نائمة على عتبة الباب. ولمّا سألتها عمّا حدث، لم تحصل إلّا على إجابة مقتضبة، فأخذتها إلى الغرفة في مؤخّرة المحلّ وقدّمت لها شايًا وبعض قطع البسكويت، وأغلقت النوافذ ومنحت المتدرّبة إجازة يوم واحد وأعلنت عن غلق الصالون. ثم ساعدت أمّي على غسل وجهها وتنظيف ثيابها.

فسألت:

ـ هل يمكنك أن تحافظي عليها في مأمن بضعة أيّام إلى أن نفهم ما حدث؟

هزَّت ريتا رأسها نافية، لأنّ صديقها لم يسمح لها أن تأتي بأمّي إلى البيت، وإذا ما سمح لها بذلك، فإنّها غير متأكّدة أنّ من الممكن أن تودعه مثل هذا السرّ.

قالت ريتا:

ـ ثمّة شيء واحد آخر.

ثم ناولتني قصاصة ورق وقد كتب عليها اسم إلياس وعنوانه.

ـ يجب عليك أن تخبريه أنّ والدتك توفّيت، لأنّ بمبي تعتقد أنّ هذا هو أفضل سبيل لسلوكه.

لم يدم الحديث أكثر من ذلك. ودّعتها إلى الباب، وعانقتني ريتا عناقًا مؤثّرًا، مؤدّية بذلك دورها بكلّ ما فيه من تفاصيل وقالت:

ـ آسفة يا حبيبتي. كانت أمّك عزيزة عليَّ جدًّا.

* * *

وبعد غروب الشمس، دخلت أنا ويونس صالون المقصّ البلّوري من الباب الخلفي، متماسكي الأيدي، ولن أنسى ما حييت تلك اللحظة التي ركضنا فيها إليها ونحن نجهش بالبكاء ونضحك في الوقت نفسه. كانت تبدو مرتبكة جدًّا، واجمة، تحيط الدوائر السود بعينيها.

استراح رأس يونس على صدر أمّي وهو يئنّ ويتأوّه.

ـ الغلطة غلطتي، فقد تركت خالة جميلة بمفردها. كنت أتحدّث إلى أصدقائي وتركتها تعود وحدها إلى البيت سيرًا على الأقدام.

قبّلته أمّي. ثم قبّلتني هامسة:

ـ هل كلَّمتِهِ؟

حدّثتها باختصار عن زيارتي إلى إلياس. فأصغت إليَّ، واجمة، ممتقعة، وكأنّها نصف حالمة.

وقاطعنا يونس:

ـ إنّهم يتقوّلون عليك بأقوال مشينة، ولن نكلّمهم بعد الآن.

هكذا عرفت أمّي أنّ الحيّ بأكمله كان أسير الشائعات والقيل والقال. فبعض الناس اتّهمها بجلب العار على الأسرة، مستفزّة

ولدها بذلك على اللجوء إلى طريق الرذيلة.

حدّقت إلى أمّي.

ـ سوف تكون الجنازة جاهزة بعد يوم واحد، وقد رتّبت العمّة ميرال كلّ شيء.

وهنا تشبّث يونس بذراع أمّي وربت عليه في لهجة آمرة:

ـ لا تقلقي. أعرف إلى أين آخذك. ثمّة مكان واحد في لندن تكونين فيه بمأمن تامّ، ولن يسلّمك أحد إلى الشرطة.

وهكذا بدأت أمّي بمبي قدر طبرق البالغة ثلاثة وثلاثين عامًا، والتي انتقلت إلى رحمة الله بحسب التقارير الرسميّة، تعيش في بيت محتلّ منهار في حيّ هاكني، احتلّته مجموعة من الصبيان المختلّين عقليًا.

* * *

التنظيف

لندن، ٥ كانون الأوّل ١٩٧٨

جلست بمبي معتدلة الظهر فوق السرير وعلى محيَّاها أمارات التعب والإنهاك، وأحاطت ركبتيها المطويّتين بذراعيها، وشبكت أصابعها. ثمّة ضيق في صدرها، ألم متزايد وكأنّ شيئًا ما يضغط في قوّة على أضلاعها. تنفّسها مشقّة، وبلع ريقها مؤلم.

أصاخت السمع للأصوات المتردّدة في البيت الڤكتوري القديم الذي بات غارقًا في الظلام الآن، وشمّت الرائحة اللاذعة والنفّاذة المنتشرة في الجوّ: غبار وعرق وأثاث عفن وغسيل رطب وملاءات قذرة وقناني فارغة ومنفضات مملوءة بأعقاب السكائر. ولمّا كانت تقبع في حجرة ينام فيها عدد من الناس على الأرض جنبًا إلى جنب، فقد تذكّرت أيّام طفولتها، تذكّرت كيف كانت هي وأخواتها السبع يقضين الليل نائمات أو يتدافعن الواحدة بعد الأخرى أو ينشدن الدفء إحداهنّ في حضن الأخرى. وبغض النظر عن عدد البطّانيّات المتوافرة، كانت تستيقظ في منتصف الليل لتجد نفسها

باردة من دون دثار، فتسحب أقرب بطّانيّة من فوق رأسها وتلتفّ على أحسن ما يكون، تاركة بذلك أختًا من أخواتها معرّضة للبرد من دون غطاء.

رنت بمبي الآن إلى ما وراء أجساد الشبّان النائمين وحدّقت إلى العدم الكئيب الممتدّ وراء النافذة، وشعرت بنوع من الكسل لم يسبق لها أن شعرت بمثله في حياتها. مرّت ساعة كاملة. ربّما أكثر من ساعة. ليست لديها وسيلة كي تعرف بها. وبعد برهة وجيزة، لمحت عيناها تباشير أوّل ضياء في الأفق، أعمدة من لون قرمزي حادّ تشبه السهام. الصبح ينبلج من فوق أفق لندن. وانتابها ذعر حادّ، فسرعان ما سوف يستيقظون جميعًا ويأكلون ويمزحون ويدخّنون. وعلى الرّغم من أنّهم وافقوا على إيوائها، وبذلوا قصارى جهدهم كي لا يُقلقوا راحتها، فإنّ هؤلاء الصبيان لم يستطيعوا منع أنفسهم من توجيه الأسئلة، غير قادرين على فهم ما يحدث.

كان معظم صبيان المنزل يروقهم النوم في ساعة متأخّرة، ولكن في ضوء الوضع غير المؤكّد مع المجلس المحلّي، فقد بالغوا في البقاء يقظين، مدركين الإدراك كلّه أنّ أيّام الصفاء التي كانوا ينامون فيها أضحت الآن شيئًا من الماضي. وهكذا استيقظ كلّ واحدٍ منهم في الساعة الثامنة صباحًا، يبحث عن ثياب الأمس ويشعل أوّل سيكارة في ذلك النهار، ويدفع كلّ واحد منهم الآخر من حول المغسلة. وكان إيغي بوب الذي نام وفي أذنيه سدادة أذن قد استيقظ بدوره ونهض.

وكانت توبيكو في المطبخ تراقب بمبي تعدّ الكعك المحلّى

للجيش، وكافحت من أجل أن تنطق بكلمة، ولكنّها لم تستطع إلّا أن تقول:

ـ عظيم، رائحة طيّبة جدًّا.

ابتسمت بمبي لها ابتسامة باهتة، وظلّت يداها تعملان، في سرعة وتركيز، ذهنها على بعد أميال. وبعد بضع دقائق، ناولت توبيكو طبقًا كبيرًا مملوءًا بقطع الكعك، وقالت:

ـ هيًّا... كلي.

تردّدت توبيكو.

ـ وأنتِ؟

ـ سوف آكل لاحقًا.

وقالت توبيكو على حين بغتة:

ـ أنت تعرفين أنّنا نحبّ ولدك. إنّه أشبه بجالب الحظّ السعيد لنا. و... آه. لا أعرف تمامًا ما المشكلة، بيد أنّ يونس قال إنّ الموضوع خاصّ وإنّكِ مضطرّة إلى الاختباء مدّة من الزمان. على أيّة حال، أنت على الرحب والسعة مهما أردت أن يطول بقاؤك هنا.

تعاطفت بمبي مع توبيكو تعاطفًا عميقًا أدّى إلى ترقرق عينيها بالدمع، فعانقت المرأة الشابّة التي لم تتوقّع هذا الشيء، ولكنّها على الرّغم من ذلك بادلتها العناق من فورها. وفي تلك اللحظة دخل إيغي بوب يصرخ بأعلى صوته وكأنّه في ساحة عامّة.

ـ آخ. إنّنا نتضوّر جوعًا هنا. الشعب يريد الطعام!

ابتسمت توبيكو وحملت الطبق واندفعت إلى الداخل.

ظلّت بمبي وحدها في المطبخ، فأمسكت بالمكنسة الرثّة وراحت تكنس الأرضيّة. لو لم تفعل ما كانت تفعله على الدوام لظنّت أنّها ستفقد رشدها. وهكذا أنفقت الساعة المقبلة تنظّف وتكنس وتمسح الأتربة وتلمّع البيت كلّه من تحت عيون نزلائه المحتارة. وبلغ بها التوتّر طوال النهار حدًّا لم يتمكّن معه أيّ شخص من السخرية أو يطلب التوقّف منها. ولا بدّ أنّ ذلك كان سببًا للعدوى، إذْ عرض عدد من الناس المساعدة عليها مستخدمين الماسحات أو المكانس الموقّتة لينضمّوا إلى جنونها، ولكنّهم سرعان ما تخلّوا عن المهمّة، مرهقين وضجرين.

حلَّ المساء وما زالت تعمل، وما زال الصبيان يمشون على رؤوس أصابعهم من حولها، مراقبين هذه المرأة المنتمية إلى ثقافة مغايرة ولغة أخرى وحكاية أخرى، وهي تبكي وتنظّف، تنظّف وتبكي على الدوام.

* * *

سجن شروزبيري ١٩٩٢

قبل ثلاثة أشهر على إطلاق سراحي، تفتح امرأة عجوز عينيها وهي في غرفة العناية المشدّدة. تشكو من الظمأ ومن ألم في ظهرها. وفيما خلا ذلك، كانت تبدو في أحسن حال. وعندما تُضحي على استعداد للكلام، يسألونها عن الرجل الذي سرق حقيبة يدها وهاجمها بزجاجة مكسورة في يوم بارد. تصفه. ذاكرتها في حالة جيّدة. وصفها لا يشبه وصف زيشان بأيّ حال من الأحوال. ما يزالون غير مقتنعين. يطلعونها على صورة لرفيقي في الزنزانة، فتقول إنّه ليس هو. يأخذون زيشان ويتركونها تنظر إليه بواسطة مرآة

مزدوجة، فتقول إنّه ليس هو. فتقرّر المحكمة إعادة فتح ملفّ القضيّة من جديد.

وأقول:

ـ لا بدَّ أنّك فوق العمر. سوف تكون رجلاً طليقًا عمّا قريب.

يقول:

ـ زيشان طليق قبل الآن. لا ضرورة للذهاب إلى القمر.

ـ سأشتاق إليك كثيرًا أيّها الرجل.

يبدو مكتئبًا، يزدرد ريقه في صعوبة، ويقول:

ـ سأخرج وأفكّر فيك. كنت تلميذي المفضّل.

ـ وأنت، كذّاب سيّئ.

يضحك ضحكة مكبوتة، ويهتزّ كتفاه.

ـ لا تنسَ إنجاز فروضك المدرسيّة.

ـ أيّة فروض؟

ثم يخبرني ما هي.

في صباح اليوم الذي تقرّر فيه إطلاق سراح زيشان، أجلس أنا وهو نتأمّل معًا آخر مرّة. وعلى العكس من بقيّة الأيّام، لا أحتجّ، بل أجلس متصالب الساقين على الأرضيّة الصلبة محدّقًا إليه، وللمرّة الأولى، أفلح في تهدئة فكري، وإن لمدّة قصيرة.

وفي مساء ذلك اليوم نفسه، وكان زيشان قد ذهب، أستلقي على سريري وأفكّر. غيابه ثقيل عليَّ. آخر مرّة ساورني هذا الإحساس هو عند وفاة تريبي، ولكنّني أحاول أن أنهي ما طلب

منّي أن أفعله. فروضي. أصعب شيء أفعله. واجبي هو أن أكتب رسالة إلى أمّي وأسلمّها لها عندما يطلق سراحي وأصبح حرًّا.

قلم حبر في يدي. أكتب عددًا من الرسائل في أيّام مختلفة. بعضها يبدو لا بأس به، ولكن فيها أشياء كثيرة ناقصة، ومعظمها تافه. أمزّقها إربًا إربًا، وأبدأ من جديد، من دون أن أصل إلى نتيجة. في كلّ يوم أكتب شيئًا ما، تمامًا مثلما وعدت زيشان. وأتأمّل قليلاً أيضًا. الضابط ماك لوخلين يأتي ويذهب. ليسا على وفاق. ولكنّنا لسنا في عداء أيضًا. لم نعد كذلك.

ثم أكتب شيئًا يبدو إلى حدٍّ ما أقلّ فظاعة، وأقرّر أن أحتفظ به في هذه المرّة. طلب منّي زيشان أن أكتب الرسالة على ورقة بيضاء في كلّ يوم إلى أن أحفظها عن ظهر قلب. وهذا ما أفعله لاحقًا.

أمّي العزيزة.

لن أرسل لك هذه الرسالة، بل سوف أجلبها بنفسي إن شاء الله وأسلّمك إيّاها لأنّ كتابة المحتويات أسهل من التفوّه بها. في هذه السنة فتحت عينيَّ. كان يرافقني هذا المجنون في الزنزانة. مجنون ولكن جنونه لذيذ، من شأنك أن تعجبي به. اسمه زيشان. إنسان طيّب القلب، مدَّ لي يد العون إلى أبعد الحدود. إنّني أفهم الآن فهمًا أفضل بعد أن أطلق سراحه. أمر سيّئ. إنّنا على الدوام نقدّر قيمة الأشياء بعد أن تضيع منّا.

لو أصبح عمري الآن ستّة عشر عامًا من جديد، لمّا فعلت ذلك الشيء الذي أقدمت عليه وسبّبت ألمًا رهيبًا، لك ولأختي ولأخي ولخالتي المسكينة. لا يمكنني أن أغيّر الماضي، ولا حتى لحظة واحدة منه، يقول زيشان إنّ في إمكاني أن أُحسّن من حالي.

لكنّني لست واثقًا حتى من هذا الأمر، ولكن لو قبلت بي ثانية، وإن وجدتِ أنّك قادرة من صميم فؤادك على مغفرتي، فتلك نعمة كبيرة كي أعود ابناً لك ثانية.

اسكندر طبرق

* * *

أســماء

لندن، ١٢ أيلول ١٩٩٢

صباح يوم السبت أعدُّ وجبة الفطور في مطبخنا الذي أثّثناه حديثًا. وكلّفنا مبلغًا كبيرًا، أكثر ممّا نقدر عليه، ولكن زوجي أَصرَّ على أن نحصل على أحدث المستجدّات، وكان هديّة لي في الذكرى الثامنة لزواجنا. لونه بلون قهوة الإسبريسو، وخشب الأرضيّة من خشب الأسفندان، فضلاً على ثلّاجة أميركيّة راقية وعصّارة فواكه عمليّة لا تستدعي تقطيع الموادّ. ناعمة وهادئة وعمليّة. هذا ما يشير إليه الدليل المرفق بها.

أهيّئ البيض وأراقب الأجزاء السفلى منها وهي تُطهى طهوًا جيّدًا وتصعد إلى أعلى وكأنّها أجزاء من الماضي تطفو على سطح الحاضر. ليس سهلاً إعداد البيض المخفوق عندما يكون الذهن مشغولاً بشيء آخر.

إذْ ينبغي أن يكون كلّ شيء بحسب توقيت صحيح حتى تكون النتيجة جيّدة، وإنْ كنت أعتقد أنّ أيّ توقيت لا يمكن أن يكون

صحيحًا. ربّما لديّ مشكلة في مفهوم التوقيت عمومًا، فأنا لا أستطيع التخلّص من الأمس ولا أركّز في الغد. ولم يبق شيء اليوم من الفتاة ذات الأفكار العظيمة والكلمات المتألّقة. وعندما أنظر إلى نفسي ذات العينين الخضراوين، وهو ما أفعله في أغلب الأحيان، فإنّني لا أستطيع أن أحول بيني وبين الإحساس بأنّني مخدوعة، وإن لم يخدعني أحد سوى نفسي.

ابنتاي تجلسان حول الطاولة تتجاذبان أطراف الحديث عن برنامجهنّ المفضّل بلوبيتر. وكما هي العادة، أفكارهنّ متضاربة. أصغي إليهما، ولكنَّ فكري في مكان آخر، يحلّق في كلّ اتّجاه تهبّ فيه الريح.

وتقول ليلى:

ـ هلّا طلبتِ يا أمّاه من ابنتك الأخرى أن تصمت.

فأقول لها وأنا أرفع المقلاة من فوق النار.

ـ نعم.

البيض لم يكتمل إعداده بعد، ولكنّني لا أريد أن يبقى على النار مدّة أطول، كما في السابق.

وتقول جميلة:

ـ ماما!

فأسألها، وإن كان الأوان قد فات.

ـ عفوًا يا عزيزتي، ماذا قلت؟

عندما ألتفت أشاهد إحداهما مبتسمة، منتصرة، والأخرى مستاءة. غير أنّ زوجي يهرع إلى نجدتي.

ـ اتركي والدتك وشأنها، ففكرها مشغول بأشياء كثيرة.

وتسأل ليلى:

ـ لماذا؟

يقول نادر في ودّ:

ـ لقد تحدّثنا في هذا الموضوع من قبل، فخالك قادم لزيارتنا، ووالدتك لم تره منذ زمن طويل.

تقول ليلى وإن كان وجهها يخلو من أيّ أمارة تدلّ على التعجّب:

ـ آه!

أراقب جميلة تحدّق إلى أبيها عن قصد، وميض التحدّي يبرق في عينيها، السوداوين واللوزيتي الشكل والمختلفتين عن عيني المرأة التي سُمّيتْ باسمها. وتقول بغتة:

ـ هل تكذبان عليَّ.

تتوقّف يدي التي رفعت من فوق البيض في منتصف المسافة وأصغي إلى الصمت المطبق غير قادرة على كسره.

نادر هادئ، رابط الجأش كدأبه دائمًا.

ـ هذه ليست كلمة حلوة تقولينها عندما تتحدّثين إلى والديك يا حبيبتي، ولا إلى أيّ شخص آخر.

تقول جميلة في صوت رتيب:

ـ آآآسفة.

ـ لا بأس. والآن قولي ما معنى كلامك؟

تزمّ جميلة شفتيها بعد أن فرحت بالانتباه الذي انصبّ عليها.

- حسنًا... لا أعتقد أنّ الخال اسكندر يعمل في آلاسكا. أظنّ... وهنا ترنو إلى الطاولة وكأنّها تبحث عن كلمة.

- إنّه جاسوس روسي.

تتدخّل ليلى في الحديث:

- هذا في أحلامك.

- صحيح. إنّه يلقي القنابل على الجبال الجليديّة.

- لا.

- بل نعم.

أضع بضع شرائح من الطماطم وقطعة من الريحان في كلّ طبق وأحملها إلى الطاولة متسائلة إن كانت الأمور أفضل لو كان أخي الأكبر جاسوسًا يعمل في مصلحة الروس، يختبر القنابل في القطب الشمالي.

وفي وقت لاحق، عندما ذهبت الفتاتان للاستعداد لحفل عيد الميلاد، طوّقني نادر بذراعه، رأسه يميل إلى الجانب. أنظر إليه، وأفهمه. الأسلوب الذي يضغط فيه على عينيه، البسمة مرتسمة على وجنتيه، والتجاعيد الواضحة على جبينه. شعره كثيف وكثّ ينمو إلى أعلى متحدّيًا الجاذبيّة، رافضًا أن يغطّي أذنيه. ثمّة خصلات قليلة رماديّة اللون عند الصدغين تولّد الانطباع عن عمره. أكبر منّي بستّة عشر عامًا. الفارق نفسه في العمر بين إلياس وأمّي. مصادفة بطبيعة الحال. هكذا أردّد دومًا في نفسي.

أحبّه، ولكن كلّ شيء لم يبدأ على أنّه حبّ. كلانا علم في

البدء أنّني لم أهبه نفسي على النحو الذي وهب هو نفسه لي. ففي صميم فؤادي خالجتني مشاعر ممتزجة عنه: احترام وولع وإعجاب، وعلى وجه الخصوص العرفان التامّ لانتشالي من تلك الوحدة التي كنت أتخبّط فيها. أحيانًا تسمع أناسًا يقولون إنّهم أضحوا أفضل حالاً نظرًا لوجودهم رفقة والديهم. أنت تسمع هذا الكلام، ولكنّك لا تصدّقه إلّا إذا حدث لك.

بعد آخر يوم من أيّام شهر تشرين الثاني ١٩٧٨، ذابت أسرتنا ذوبان الرجل الثلجي من تحت أشعّة شمس حارقة. وفجأة أصبح كلّ ما تبقّى لنا من حياتنا الماضية هو كومة رماديّة من أشياء مائعة. وتحوّل ما كان يبدو قويًّا وصلدًا إلى شيء مراوغ، لا يمكن الاعتماد عليه. عشت أنا والعمّ طارق والعمّة ميرال برهة من الزمان، وكرهت كلّ لحظة من تلك الأيّام وإنْ لم يكونا بخيلين أو قاسيين تجاهنا. ولن أسامحهما على ما نشراه من قذارة عن أمّي في الأسابيع التي سبقت الجريمة؛ وحتى عندما لبثتُ تحت سقفهما وأكلتُ من طعامهما ولبست الثياب التي اشترياها لي، فإنّهما كانا على رأس قائمة الناس الذين كنت أمتعض منهم. في البدء، أرسل والدي لنا بطاقات بريديّة وهدايا ونقودًا من أبو ظبي، وإن ظلّ هذا الإرسال متقطّعًا على مدى السنين إلى أن توقّفت المراسلات نهائيًّا. وظلّ عمّي وعمّتي يخبّئان عنّا نبأ انتحاره عنّا أطول مدّة ممكنة، يغطّيان على الحقيقة، يمنعانها ويشوّهانها. كان ينبغي لي أن أعرف، لأنّني أنا بدوري أمارس هنا الأشياء نفسها مع أولادي. إنّه موروث أسري، يلقي ظلاله على الحقيقة، ويدفنها عميقًا بين طيّات الحياة اليوميّة الراكدة كي لا يمكن الوصول إليها بعد حين

حتى إن كان ذلك في الخيال.

ذكرياتي عن تلك السنين مثل رمال متحرّكة ملؤها الأذى والخيبة. ولمّا تعثّرت بها، لم أجد سوى الغضب يجذبني بعيدًا، وقد استمرّ ذلك مدّة من الزمان. في السنوات الأولى من حكم السيّدة تاتشر بدأت تحوّلات عميقة. وبدأت إنكلترا تسير في سرعة رهيبة مبتعدة عن كلّ ما كانت تتّصف به، فرس نهر يستيقظ من حلم شتائي يبعث على الكسل. علاماتي في الامتحانات كانت عالية على الدوام. وأظهرت مديريّة التربية اهتمامًا خاصًا بقضيّتنا، ونقلتنا أنا ويونس إلى مدرسة داخليّة في ساسكس. وقد ساعدنا ذلك إلى حدٍّ ما، أعني البعد. لكنّني تشبّثت بهيجاني من دون أن أدرك أنّه لا يوصلني إلى أيّة نتيجة. كنت أغرق في حالات الامتعاض والاستياء التي تستبدّ بي. وبعد المدرسة الداخليّة، انتقلت إلى كوين ماري كوليج حيث درست اللغة الإنكليزيّة. ثم التقيت نادر.

رجل صامت. مثقّف يؤمن بقناعات شموليّة وحقائق موضوعيّة. ولد في مدينة غزّة ونشأ وترعرع في أحد مخيّمات اللاجئين الفلسطينيين، ورحل عن وطنه متوجّهًا إلى إنكلترا وهو في سنّ التاسعة عشرة بفضل قريب من أقربائه ساعده على إكمال تعليمه. وبعد وقت قصير من إطلاق فريق الغناء البيتلز ألبومهم الغنائي «غوّاصة صفراء» نُصّب نيكسون رئيسًا للولايات المتّحدة وأصبح عرفات رئيس منظّمة التحرير الفلسطينيّة، ووصل نادر إلى مدينة مانشستر رابط الجأش، هادئًا، ولكنّه وفيّ ومخلص. ثم نهج في حياته نهجًا بعيدًا عنِ السياسة إلى أبعد حدٍّ ممكن: علم الأحياء الجزيئيّة. وفي حين كان العالم يدور في دوّامة عنيفة من

الصراعات، كان نادر يلجأ إلى مختبره، أنيقًا ومنهجيًّا ومسيطرًا لدراسة علم مورفولوجيا الخلايا.

ما يزال أقرباؤه في غزّة. وقد التقيتهم بضع مرّات. أسرة كبيرة. دافئة ومحبّة للاستطلاع وفخورة وثرثارة. راقبت زوجي بين أهله، أبحث عن متغيّرات في سلوكه، لمحة تظهر الجوهر من تحت هذا القناع. لكن نادر ظلّ كما هو، روحًا رقيقة في كلّ مكان ورفقة كلّ شخص. لم يتصرّف تصرّفًا ناجمًا عن نزوة، بل كان يهوى أن يتقدّم على مهل، أن يفكّر وهذه كلمة من كلماته المفضّلة. لم يكن يومًا ما في عجالة من أمره. شعاره في الحياة: العِرْق دسّاس. لا عجب أنّه انسجم ويونس انسجامًا كبيرًا.

ويسألني:

ـ أأنتِ على ما يرام؟

أومئ برأسي، أن أكون وحيدة هو كلّ ما كنت أريده الآن، أن أخلع معطفي وأخرج من الباب تاركة كلّ شيء على حاله، من دون أن تلمسه يد، بقايا الطعام في الصحون والفتات على السفرة، والبقع على الأقداح. إنّها أجزاء من ماضيَّ.

ـ كلّ ما هناك أنّ اليوم سيكون طويلاً.

يقول:

ـ لا تقلقي بشأننا. سوف أذهب لإحضار المسوخ من الحفلة، وعليك قضاء الوقت وإيّاه وحيدين.

أصغي للهجة زوجي. الأصوات الحلقيّة، أثر من آثار اللغة العربيّة.

ـ هذا ما أخشاه، أن أقضي وقتًا رفقة اسكندر.

يضع نادر راحتيْ كفّيه على وجنتيَّ ويطبع قبلة على شفتي.

ـ سوف تكون الأمور على ما يرام يا حبيبتي.

أتمنّى في لحظة عابرة ألّا يكون بهذا الاحترام وهذا الاهتمام. نادر نموذج للرجل الذي يتفادى المواجهات بكلّ ثمن إذا ما حدث أيّ اعتداء، جسدي أو لفظي. وإذا ما أخطأ أحد في حقّه، مثلما أخطأ زميله في العمل في الجامعة ذات مرّة، فإنّه سوف يتقبّل الوضع، والأهمّ من هذا، يعدُّ نفسه مسؤولاً عنه مسؤوليّة شخصيّة.

وأفطن بغتة، عن معرفة أو جهل، أنّني تزوّجت الشخص المناقض تمامًا لأخي الأكبر.

ويقول:

ـ لا أدري. ربّما لا ينبغي لي الذهاب. قد يأتي عمّي، أو أحد أصدقائه القدامى.

يعبس نادر ويعقد حاجبيه. في وسعه أن يرى مرارتي وقد عادت إليَّ. يبدو أنّه يختار ألفاظه في عناية.

ـ عليكِ أن تذهبي للقائه، إذا لم يكن قد تغيّر ولو بمقدار ذرّة، وإذا كان هو الرجل نفسه الذي كان عليه في السابق، فإنّك لستِ بحاجة إليه في حياتك، لكن ينبغي لك الذهاب والتأكّد بنفسك.

ثم تفوّه بعد ذلك بكلمات ستظلّ ترنّ في أذنيَّ على امتداد النهار: إنّه أخوكَ.

ـ ما الذي سأقوله لِلبنات عندما يأتي إلى هذا المكان؟ مرحبًا أيّتها البنات، هذا خالكم الذي لم تروْه من قبل. لماذا؟ حسنًا،

لأنّه كان في الحبس. لماذا؟ لأنّه، كما ترون، قتل. . .

ـ لست مضطرّة إلى توضيح كلّ شيء. ليس الآن.

تترقرق عيناي بالدمع، وعندما أتكلّم، يأتي صوتي متوتّرًا.

ـ أنتِ ويونس تريدان أن تكون الأمور سهلة وبسيطة على الدوام.

ولكنّ العالم بالغ التعقيد، وكلّ شيء معقّد.

تغضّن وجه نادر وهو يقلّد نبرتي:

ـ انسي العالم. استفيدي من كلّ ما سننفقه، قبل أن نتحوّل إلى تراب.

أضحك على الرّغم من نفسي.

ـ هل هذا من شعر الخيّام؟

ـ نعم، عمر الخيّام.

رجل ذو كلمات لطيفة وقصائد فخمة. هذا الرجل نزيه، يُعتمد عليه ومؤمن، وفي بعض الأحيان إلى حدّ السذاجة التي تدفعني إلى الجنون. هذا الرجل الذي يؤمن أنّ الشرف له صلة بقلوب الناس وليس بحُجرات نومهم. أحاول أن أتخيّل ماذا يرى فيَّ، وكيف أنّه ما زال يحبّني، غير قادر على الردّ بجواب. وأهمهم:

ـ يستحسن بي الذهاب والاستعداد.

ـ حسنًا يا حبيبتي.

في إحدى المرّات فكّرت أنّني خُلقت للأعمال المهمّة، والسعي الجدير بالمحاولة والمُثُل الكبيرة. أردت أن أصبح أديبة وناشطة في ميدان حقوق الإنسان، وأن أسافر إلى مختلف أرجاء

العالم لمناصرة المضطهدين والمظلومين. جَيْ. بي. أونو ـ مؤلّف الروايات التي لا ينخدع فيها أحد بالحبّ. وتمنّيت أن أكون مركز العالم، ولكنّني بمرور الزمان اقتنعت أنّني لست سوى واحدة من عديد الشخصيّات في إحدى القصص، ولست حتى شخصيّة رئيسة.

مارست الكتابة مدّة قصيرة عندما أنهيت دراستي الثانويّة وإن صعب عليَّ تذكّر ذلك الآن. كانت علاماتي في الجامعة جيّدة، ومقالاتي مبتكرة، وكان ثمّة أناس يؤمنون بقدراتي، ولكن شيئًا ما تغيّر تغيّرًا نهائيًّا، إذْ فقدت الثقة في نفسي. وكما هو شأن نبتة تبدو حيويّة في المتجر ولكنّها تذبل بعد شرائها وإحضارها إلى المنزل، فترت همّتي في أن أكون روائيّة حالما خرجت من محيطي المألوف لي.

ولم أكتب شيئًا من بعد ذلك، باستثناء الرسائل، الرسائل التي لا تعدّ ولا تحصى. كتبت إلى شروزبيري في انتظام وإلى يونس كلّما افترقنا. كما راسلت إلياس أيضًا (الذي واصلت الاتّصال به) وروكسانا (التي واصلت الاتّصال بي) وساعدني هذان الشخصان، كلّ بطريقته الخاصّة به للعثور على الأجزاء المفقودة في الأحجية. وكتبت أيضًا إلى والدتي، مرّتين في الأسبوع على مدى السنوات الاثنتي عشرة التالية.

وفي فصل الصيف الماضي، وبعد أن وافت المنية والدتي، بدأت أدوّن قصّة حياتها، فعملت ليل نهار، وكأنّني أخاف أن أفقد الحماس، أو أنّ الحماس سيفقدني وينهار كلّ شيء، إن توقّفت حتى ولو لحظة واحدة.

كانت الأشياء التي كتبتها شخصيّة جدًّا، حتى إنّ بعض فقراتها

مؤذية، في حين كانت أجزاء أخرى تخضّني. ومع هذا، وبعد أن فرغت من المخطوطة بوقت قصير استبدّ بي إحساس بالاغتراب: هذه القصّة ليست قصّتي.

الماضي صندوق قديم في العلّيّة، مملوء بأشياء رثّة وأخرى ثمينة. وعلى الرّغم من أنّني كنت أفضّل أن يبقى الصندوق مقفلاً، فإنّ أقلّ نسمة هواء كانت تفتحه. وقبل أن أدرك ذلك، أجد محتوياته تتطاير في كلّ حدب وصوب. أُعيدها إلى مكانها في الصندوق. واحدة تلو الأخرى. الذكريات: المزعجة والطيّبة. ولكنّ الصندوق كان ينفتح على الدوام في أوقات لا أتوقّعها إلّا نادرًا.

كان الحمل حدثًا عارضًا أكثر ممّا هو حدث خطّطنا له. وعندما اكتشفت أمره، صُدمت، وانتابني الذعر والهلع والجذل أيضًا. ولمّا عرفت أنّني حامل ببنتين توأمين، بكيت ساعة، وشعرت أنّ حياتي، بصرف النظر عمّا سأفعله بها، كانت حلقة في سلسلة من القصص. وفي أثناء الشهور الثمانية، اتّخذ بدني شكلاً جديدًا، وكأنّه مصنوع من صلصال. وهكذا الأمر بخصوص روحي. ابنتاي تبلغان الآن سبع سنوات، ليلى ذات الشعر الأسود الشبيه بالساتان، وجميلة التي سُمّيت على اسم خالة أمّها وإن لم تكن تعرف السبب.

أسمع وأنا جالسة في غرفتي في الدور العلوي صوت الهاتف يرنّ، فيردّ عليه زوجي. أحسست أنّ المكالمة من يونس ـ الولد الذي سُمّي على اسم النبي المتذبذب. كان أخي الأصغر وزوجي يتّصلان أحدهما بالآخر يوميًّا. ألفة ومودّة رجوليّة. أعلم أنّهما

يتآمران عليّ ويعرضان لحالاتي المزاجيّة البائسة. وكانا يحاولان برباطة جأش وعقلانيّة كيف السبيل إلى إغاظتي. أنظر إلى نفسي على أنّني رزمة تبعث على الشبهات مرميّة على الطريق، وأنّ نادر ويونس خبيران في تفجير القنابل، يرتديان ملابس واقية من الحريق وخوذتين ويقتربان منّي في حيطة وحذر.

ـ يودّ يونس أن يكلّمك يا حبيبتي.

ألتقط الهاتف، وأنتظر أن يتوقّف زوجي عن الكلام وأقول مبتهجة:

ـ نعم يا عزيزي.

ـ حبيبتي أسماء. كيف حالك اليوم؟

لماذا يسألني كلّ واحد عن حالي؟ فأقول:

ـ في خير. وأنت كيف حالك؟ كيف حال الطقس عندكم؟

يتجاهل سؤالي العامّ ويدخل صلب الموضوع.

ـ حسن. متى ستأتين وتأخذينه؟

يمكنني أن أسمع في مؤخّرة المكان صوت فرقة موسيقيّة منهمكة في التدريبات. البيانو والغيتار والناي. سيقيم أخي حفلاً موسيقيًّا هذه الليلة في أمستردام وستكون حدثًا ثقافيًّا، ويتوقّع حضور الأمير كلاوس.

ـ سوف أغادر بعد ساعة.

ـ انظري. . . أعرف أنّ الأمر ليس سهلاً، فأنا مستاء جدًّا لأنّني خذلتك. أتمنّى لو كنت هناك.

أشعر بنبرة لاذعة في صوتي. لو أنّ يونس شعر به، فلن يسترسل.

ـ أنت تعرف بماذا كنت أفكّر في صباح هذا اليوم: ذلك النهار الذي ذهبت لزيارته. وغمرته السعادة والفرح لمّا عرف أنّها على قيد الحياة... تأثّر تأثّرًا بالغًا. المؤسف جدًّا أنّه لم يستطع رؤيتها ويطلب منها المغفرة.

أقلّب عينيَّ.

ـ آه، مغفرتها.

فيؤكّد في إلحاح:

ـ كان يمكن أن يحدث ذلك. شيء لطيف لو أنّه قبّل يدها وطلب منها أن تمنحه بركاتها.

ـ آه، أرجوك امنحني فرصة.

ران صمت ثقيل، فبدأت أرتاب في أنّ الاتّصال انقطع عندما سمعت يونس يقول:

ـ أظنّه عانى ما فيه الكفاية.

أغمض عينيَّ، وأشعر بالدم يفور في أوردتي.

ـ كيف يمكنك أن تتفوّه بمثل هذا الكلام. إنّه لم يتعذّب بما يكفي. إنّه رجل أناني قتل خالتنا وسوف يموت إنسانًا أنانيًّا أيضًا.

ـ كان فتًى.

ـ لم يكن فتًى! ليس للأمر صلة بعمره. والآن أنت فتًى. ولم تفعل ما فعله. الأمر يخصّ شخصيّته.

فيقول يونس:

ـ ولكنّه كان الفتى الأكبر سنًّا. أنتِ دائمة الكلام عن أنّك عوملتِ معاملة مختلفة لأنّك بنت، وقد وجدت صعوبة في أن أكون

الطفل الأصغر سنًّا. ولكن هل فكّرت يومًا ما أنّ الأمر قد يكون أشدّ صعوبة على اسكندر؟

- نعم، لم يكن سهلاً وهو السلطان.

يتنهّد.

- استمعي إليَّ يا أختاه. إنّني مضطرّ لإنهاء المكالمة. سوف أكون هناك لو وجدت سبيلاً إلى ذلك. سوف أتحدّث إليك ثانية بعد رجوعي. سنفكّر في الأمر. معًا. تمامًا مثلما كنّا نفعل ذلك دائمًا. حسنًا؟

لم أصدّق صوتي، فدفعت رأسي وكأنّ يونس يستطيع أنْ يراني. وبعد إنهاء المكالمة، أذهب إلى الحمّام كي أغسل وجهي وأضع عليه بعض مساحيق التجميل. أكره يونس لأنّه يستطيع أن يعفو وينسى وأكره اسكندر لأنّه سلبنا والدتنا: طفولة اعتياديّة. ذلك الإحساس المطمئن بالأمن والحبّ والاستمراريّة تحصل عليه من أسرتك قبل أن تبلغ سنّ الرشد وتغوص في العالم الكبير بكلّ ما فيه من بؤس حقيقي. كنت في الخامسة عشرة من عمري عندما فقد اسكندر عقله. وبعد ذلك، باتت الحياة التي كنت أعرفها قد تداعت وانهارت والألم الممضّ وجد له مأوًى في قلبي. وكان الأمر أشدّ وقعًا وسوءًا على أمّي.

لقد قتل اسكندر الكثيرين عندما قتل واحدة.

* * *

أتوجّه إلى شروزبيري وأمرّ بالحدائق المكسوّة بالعشب والرياض الخضر المتموّجة. الوقت يمرّ بطيئًا، ويعود عقلي إلى

يونس. بات اليوم مشهورًا. أخي الصغير. ويخبرني نادر أنّ تلاميذه يعرفون موسيقاه ويحبّونها. إنّني فخورة به. وفي تلك اللحظات التي أكون فيها صادقة مع نفسي، أشعر أنّني حسودة. وأتساءل إن كانت لعبة أخرى من أحبّ الخالق وقد تمثّلت في أنّني، أنا المبدعة انتهى بها المطاف إلى حياة متوسّطة، بيتيّة. في حين أنّ يونس، الهادئ والرابط الجأش يسير من وراء أحلامه حول العالم. أعتقد أنّها لن تنتهي، هذه الخصومة الأسريّة. فأنت تتنافس من أجل الحصول على حبّ الأبوين، حتى وإن لم يعد لهما أيّ وجود.

عندما أصل سجن شروزبيري، أنتظر خارج المبنى مندهشة لأنّني لم أجد أحدًا في الجوار. لا عمّي طارق ولا عمّتي ميرال ولا جيران أو أصدقاء أو أقرباء. أين هم؟ أصدقاء اسكندر القدامى لم يأتوا بدورهم. هل نساه الآخرون يا ترى؟

تمرّ ساعة. ثمّة برودة تزحف في الجوّ، تكبت كلّ صوت، فأشعر بالظمأ إلى حدٍّ ما. لو أنّني دخلت المبنى لقدَّم لي الضبّاط في كلّ الأحوال مقدارًا من الماء إنْ لم يقدّموا لي قدح شاي. وكان من شأني أن أسألهم ماذا يتوقّعون، وأن أعرف أشياء جديدة عن اسكندر، لكن من شأنه أن يظهر في مثل هذه الحالة، فيعانق أحدنا الآخر، أو نتصافح أمام أنظار الكلّ. يستحسن بي أن أنتظره في الخارج.

وأخيرًا تُفتح البوّابة المزدوجة. فيبدو من تحت هذا الضوء مرتديًا بنطالاً من الجينز وسترة من القطيفة المضلّعة، مختلفًا الاختلاف كلّه عن آخر مرّة شاهدته فيها. لقد اهتمّ بنفسه، ويبدو في لياقة بدنيّة عالية، ورشيقًا. تغيّرت مشيته، ولم يعد يدفع كتفيه

إلى الوراء أو يشرئبّ كعهده. وبعد أن يخطو بضع خطوات إلى أمام، يتوقّف ويرنو إلى السماء الباردة المكفهرّة، تمامًا مثلما توقّعت.

ثم تنبّه إليَّ. وجهي جامد الملامح. يتحرّك في بطء مانحًا إيّاي وقتًا كي أرجع إلى موقف السيّارات وأدير المحرّك وأمضي في سبيلي إن شئت. وعندما يقترب أتقدّم خطوة إلى أمام، يداي في جيبي.

يقول:

ـ مرحبًا بك يا أسماء.

وعلى حين بغتة، يساورني القلق بشأن نادر ويونس وكلّ الأرواح في العالم لأنّها أقنعتني بالمجيء إلى هذا المكان، ولكنّني أحاول أن أطرد الأفكار السود من رأسي. فأردّ عليه وأنا أشدّد على الكلمة الأخيرة:

ـ مرحبًا بك يا أخي.

ـ لم أتوقّع رؤيتك.

ـ آه، أنا شخصيًا لم أفكّر أنّني سأجيء إلى هنا.

فيقول:

ـ حسنًا. يسرّني أنّك جئت.

وفي السيّارة، أحسست بضرورة أن أقول شيئًا ما لملء الفراغ الذي يفصل بيننا.

ـ ظننت خالك طارق سيأتي.

ـ كان يريد أن يأتي، ولكنّني طلبت منه ألّا يحضر.

أشدّد من قبضتي على مقود السيّارة.

ـ حقًّا؟ هذا أمر مثير للاهتمام.

يميل اسكندر إلى أمام من دون أن يتفوّه بكلمة.

ـ كيف حال البنتين، ونادر؟

أخبره أنّ البنتين تدرسان في مدرسة الموسيقى في هذا الفصل الدراسي. وستكون ليلى هي السمكة المغنّية ولكنّنا لا نعرف أيّ نوع من السمك بعد. ربّما ستكون سمكة القدّ، وإن كانت تفضّل أن تكون سمكة الدولفين. أمّا البنت الصغرى فقد مُنحت دور زوجة صيّاد السمك، وهي شخصيّة مزعجة وجشعة ولكنّها مهمّة. إذًا ثمّة منافسة في البيت في هذه اللحظة. السمكة المغنّية مقابل زوجة صيّاد السمك.

أخبره بكلّ هذه الأمور من دون أن أذكر اسم جميلة وإن كان يعرف بطبيعة الحال. وأخلص إلى القول:

ـ إنّهما متحمّستان جدًّا.

فيقول مبتسمًا:

ـ بنات رائعات.

الصمت الذي أعقب هذا الكلام مقلق. لهذا السبب، أضع شريط أغاني فريق آبا الغنائي الذي أحضرته معي، ولكنّني خشيت أن أضغط على الزرّ لسبب ما.

ـ أتريد سيكارة؟

يهزّ اسكندر رأسه بالنفي.

ـ توقّفت عن التدخين منذ زمن.

ـ صحيح؟

أدرس ملامحه من طرف عيني.

ـ أرجو أن تسمح لي أن أسألك: ماذا ستفعل الآن؟

ـ أريد أن أرى ابني بأسرع ما يمكن.

لم أخبره أنّ كاتي اتّصلت بي قبل بضعة أيّام. لقد استقرّت في مدينة برايتون وتزوّجت بعرّاف، برجل يقرأ الكفّ ويزعم أنّه يرى المستقبل، وإن كنت أرتاب في أنّه تنبّأ بإطلاق سراح صديقها السابق من السجن. لديهما ثلاثة أطفال الآن. وبينما كنّا نتجاذب أطراف الحديث على الهاتف، لم أستطع منع نفسي من التفكير أنّها ما تزال تهتمّ بأخي، وربّما ما تزال تحبّه قليلاً.

ويسألني اسكندر في رقّة وكأنّه قرأ أفكاري:

ـ وكيف حال كاتي؟

ـ تزوّجت وهي سعيدة.

لو كان جوابي مؤلمًا، فإنّ اسكندر لم يظهر ما يشير إلى أنّه تألّم.

ـ عظيم. إنّني سعيد لأجلها.

فكّرت: هل تراه مخلصًا في كلامه؟

فيقول:

ـ لطيف جدًّا أنّك أتيت لتقلّينني. لن أمكث طويلاً، وسأعثر لي على مأوى. وعلى وظيفة. سامريّون طيّبون كثيرون يساعدون أمثالي من الناس. ثم...

ويتوقّف، ثم يضيف:

ـ أودّ الذهاب لزيارة ماما.

ثمّة توقّع تلا كلماته التي تفوّه بها، توقّع خيّم مثل بخار متصاعد من البورك الذي كانت تعدّه ماما. أبدّل من سرعة السيّارة وأقول:

ـ لقد توفّيت.

يلتفت إليَّ ويحدّق:

ـ لكن... لكن يونس أخبرني...

ـ أعرف ماذا قال لك. وتلك هي الحقيقة.

ثم أمسح عينيَّ.

ـ توفّيت قبل ستّة أشهر.

ـ وحيدة؟

ـ وحيدة.

لم أخبره كيف توفّيت، وسوف أخبره لاحقًا.

فيقول:

ـ كنت... كنت أودّ الذهاب إليها لأقبّل يدها.

وهنا تنبّهت إلى تلعثمه في الكلام.

ـ كان أملي أن توافق على أن أزورها.

ـ أنا متأكّدة من ذلك. ما زلت أحتفظ برسائلها، وسوف تقرأ بعضها، وسترى أنّها كانت تستفسر عنك على الدوام.

خفض اسكندر من رأسه وأنعم النظر في رسغيه وكأنّ الأصفاد ما تزال فيهما. يلتفت إلى النافذة ويتنهّد، فيملأ بخار أنفاسه

الزجاج، فيعمد إلى إنزال زجاج النافذة ويخرج رأسه منها ويتنفّس في صعوبة. ثم يخرج قصاصة ورق من جيبه ويلقي بها في الريح.

أقول بعد أن يغلق زجاج النافذة ثانية:

ـ شيء واحد آخر. زوجي نادر لا يعرف شيئًا.

ـ ماذا تعنين؟

ـ يونس وأنا لا غير. والآن أنت بطبيعة الحال. لا أحد من أفراد الأسرة يعلم أنّ ماما كانت حيّة ولا ينبغي لأيّ أحد أن يعرف ذلك. لقد أقسمت أنا ويونس. عندما أدركنا أنّ كلّ فرد بدأ يخلط بين الخالة جميلة وأمّي، حلفنا اليمين على القرآن الكريم ألّا نكشف الحقيقة لأيّ شخص. ولا حتى لأبينا. ولا حتى للعمّ طارق، أو العمّة ميرال، أو إلياس. ولا حتى لأزواجنا إن تزوّجنا يومًا ما. أنا وهو وحدنا سنحمل السرّ.

ـ لماذا أخبرتني إذًا؟

ـ الفكرة هي فكرة يونس وليست فكرتي، يظنّ أنّ الأوان قد آن لك كي تعرف. وكان الأمل يراوده في أنّكما، أنت وهو، سوف تلتقيان وتتصالحان. أعتقد أنّه يريد منك أن تستعدّ.

نمرّ من أمام قرية غافية من دون أن نشاهد أيّ مخلوق. وقت العصر يشارف على نهايته ويشعر العالم أنّه كامل ومطمئن. وعند إشارة حمراء، يلتفت إليَّ فتلتقي عيوننا.

ـ أنتِ تعيشين وسط أسرار كثيرة يا أختاه!

فأقول وأنا أفتح الجرّار الصغير:

ـ عن أيّها تتحدّث؟ هل في وسعك أن تأخذ هذا؟

وببطء يمسك الشيء الذي أشرت إليه. كتاب. عن آلاسكا.

ـ لديك ساعة ونصف الساعة لتتعلّم كلّ ما ينبغي لك أن تتعلّمه من الكتاب عن آلاسكا. لقد أخبرت بناتي أنّك كنت هناك طوال هذه السنين منهمكًا في العمل.

ابتسم اسكندر ابتسامة حزينة وبدأ يقرأ الكتاب. جبال تكسوها الثلوج، دببة شهباء، أسماك سلمون تتراقص في مياه باردة نقيّة. وعلى حين بغتة، لا يبدو المكان سيّئًا، ليس سيّئًا أبدًا. آلاسكا.

* * *

حلم داخل حلم

منطقة على مقربة من نهر الفرات، أيّار ١٩٩١

فتحتْ الخزانة وأخرجتْ سجّادة الصلاة ووقفتْ تصيخ السمع للأصوات القادمة من الوادي، خصوصيّة أخرى من خصوصيّات العيش في هذه المنطقة. وما دامت الريح تهبّ نحو الشمال، فإنّها تنقل أذان الصلاة من المسجد في القرية أسفل الوادي، ولكن عندما تغيّر الريح من وجهتها، تعجز عن معرفة الوقت. الساعة التي اشتريتها من لندن وأحضرتها معها توقّفت وتعطّلت وباتت تنتظر في ركن الغرفة مثل وجه ذابل موغل في القدم، بلغ به التعب والإعياء حدًّا لم يعد يقوى فيه على الكلام. بيد أنّها كانت بحاجة إلى معرفة الوقت كي تصلّي، لأنّ جعبتها كانت مملوءة بأشياء تريد أن تبثّها إلى الله.

لعلّ عمرها هو الذي جعلها دقيقة الملاحظة، وإن لم تكن قد تقدّمت بها السنون كثيرًا. فهي في منتصف الأربعينيّات، أو ربّما أصبح في حياتها الآن عدد كبير من الأشباح وعدد كبير من

الأشخاص الذين تحزن من أجلهم. ففي كلّ يوم كانت تتضرّع إلى الله كي يساعد ابنتيها التوأمين للعثور على مكان آمن في السماء، وهو المكان الأكيد الذي انتقلت إليه جميلة. وكانت في دعائها لا تنسى ذكر هديّة، الأخت ـ الأمّ التي تتذكّرها لا بوصفها كتلة مكتنزة من لحم أرجواني معلّق من السقف، بل بوصفها فتاة شابّة مرحة عرفتها منذ الصغر. ودعت لزوجها أيضًا، متأمّلة في كلّ ما أعطاه وما لم يعطه أحدهما للآخر، فضلاً على الدعاء من أجل والديها اللذين توفّيا منذ زمن طويل. وإذا بقيت لديها أيّ طاقة أخرى، فإنّها تذكر أسماء القرويين الثلاثة الذين بلغوا مائة عام ولفظوا أنفاسهم الأخيرة قبل وقت قصير، واحدًا إثر الآخر.

وعندما تفرغ من الدعاء للموتى تنتقل إلى الدعاء من أجل الأحياء، فتبدأ بحفيداتها في لندن الماطرة دائمًا والذين لا تعرفهنّ إلّا من الصور. وطلبت من الله أن يهدي ابنتها العنيدة وزوجها الرقيق، لتنتقل من بعد ذلك إلى دعاء مطوّل من أجل يونس (وأحيانًا من أجل فرقته الموسيقيّة) كي يتميّز وينطلق عاليًا من دون أن تغلبه تفاهات الشهرة. ثم استغرقت دقيقة واحدة وهي تدعو من أجل إلياس وأن يكون في خير وصحّة ورضا وأن يجد له فتاة يحبّها إن لم يجد حتى الآن. ثم وصلت إلى أطول الأدعية وهو من أجل اسكندر: سلطانها وأسدها وقرّة عينها.

أحيانًا فكّرت إن كانت قد اتّخذت القرار الصائب بعودتها إلى القرية. غير أنّ الهدوء التامّ الذي يخيّم عليها من كلّ الجوانب مثل شال تلتفّ به صباح كلّ يوم وقت الفجر، إنّما ينطوي على ما يكفي من التوكيد والإثبات في صواب قرارها. إنّ العيش في مثل هذه

الحياة المنعزلة والمستوحدة قد لا يكون سوى خطوة قصيرة نحو الجنون. فحاولت أن توازن نفسها بالتعبير عن شكرها لله على كلّ شيء وهبها إيّاه أو حرمها منه. يصعب على المرء أن يصاب بالجنون إذا كان ممتنًّا لله.

بدت بواكير الأيّام التي أنفقتها في إنكلترا بعيدة عنها الآن، مثل حلم متداخل. ففي المرّة الأولى التي استقلّت فيها الحافلة الحمراء الكبيرة، كان الأطفال ما زالوا صغارًا إلى جانبها، ولم يكن يونس قد وُلد بعد. ولن تنسى البهجة التي طغت عليها لدى مشاهدتها قصر الملكة من خلال شبابيك الحافلة المكسوّة بالضباب ولا جنود الملكة الذين يعتلون في رزانة ووقار صهوات جيادهم. واستحوذ عليها إحساس بالوحدة لدى وصولها حيّ هاكني الذي غمرت الأمطار شوارعه، والبيوت المتلاصقة المشيّدة بالآجر، والحدائق الصغيرة التي لا يتجاوز حجمها حجم الكشتبان. وكان المنزل الذي عثر عليه زوجها رثًّا وفي حاجة ماسّة إلى طلاء، ولكنّها لم تمانع، خاصّة أنّها كانت معتادة أن تبعث الألفة في روح الأماكن الصغيرة، ولكنّ الشيء الذي لم تستطع التأقلم وإيّاه هو الطقس. المطر. الكآبة. فالسحب ذات لون ملتبس على الدوام. صحيح أنّ نشأتها وترعرعها في منطقة على ضفاف نهر الفرات قد عوَّدها على تحمّل مصاعب فصول الشتاء القاسية والصيف الأشدّ قسوة، بيد أنّها لم تتكيّف تكيّفًا سهلاً على الاستيقاظ صباح كلّ يوم لتجد من فوقها سماء غائمة مكفهرّة على الدوام. ومع هذا، فقد كانت تهوى الذهاب إلى السوق الواقع في شارع ريدلي وتراقب الأهالي يساومون في الأسعار، والشارع يضجّ في حركة ذات معنى

وكأنّه خليّة نحل. صحيح أنّه لا يشبه السوق الكبير في اسطنبول وإن كان يعجّ بالحياة. فكانت تبتهج لذلك. يمكن للمرء أن يلتقي أناسًا من شتّى الأشكال والألوان، البيض والسود، ومن بلدان لا تعرف سوى أنها أسماء على خارطة غير واضحة المعالم.

ولم تكن حركة السير القادمة من اليسار أو السائقين الجالسين في الجهة المعاكسة من السيّارة هو الذي كان يثير خوفها دائمًا بقدر ما كان يثيره أسلوب الحياة الذي دأب عليه أهل لندن، مثل تكلّف السيّدات العظمة وصفاقة الشبّان وحرّيّة ربّات البيوت ونمط الثقة التي لم تمتلكها ولم تفكّر يومًا أنّها ستحصل عليها. كانت ترقب النساء يرتدين القمصان الشفّافة التي تبدو من ورائها حلمات نهودهنّ، وشعرهنّ يتألّق تحت أشعّة الشمس، وكانت تتساءل كيف يمكن لهنّ أن يجعلن من أنوثتهنّ شيئًا وكأنّهنّ يرتدين ثوبًا من الأثواب. الشبّان والشابّات يتبادلن القبلات في الطرقات، ويدخّنون ويحتسون الخمرة ويتجادلون. لم تشاهد في حياتها قطّ مثل هؤلاء القوم المتحمّسين إلى أن يعيشوا حياتهم مكشوفة أمام الآخرين. إنّ القرويين الذين عرفتهم في أيّام طفولتها لم يكونوا من النماذج الأكثر لغوًا وثرثرة، كما أنّها شخصيًّا كانت ذات طبيعة صامتة متحفّظة في الكلام. إنكلترا، كما عرفتها أمّة كلمات، وبذلت قصارى جهدها كي تسبر غور المعاني الخفيّة لتلك الكلمات وظلال النكات والمفارقات.

غير أنّ الطيور هي التي أثارت دهشتها أكثر من أيّ شيء في المدن الكبيرة ـ إذْ كان وجودها يقتصر على الشقوق والثقوب، وغالبًا ما تكون غير مرئيّة، باستثناء الأوقات التي تتجمّع فيها

وتتدافع من أجل حفنة من الحبوب أو عندما تسقط ميتة على الأرصفة. ربّما لا توجد منها أنواع كثيرة، والمؤكّد أنّ أعدادها لا تصل إلى ما هي عليه في حديقة الحيوانات في لندن، ولكنّها حرّة ـ موضع ترحيب.

كانت تستاء عندما تشاهد حافّات النوافذ في لندن وقد ثبّتت عليها أبرٌ بارزة وكأنّها أبر حيوان من فصيلة القنفذ للحيلولة دون تربّع الطيور عليها وملئها بالقذارة. وذكّرتها بأسوار الحديقة ذات الكسر الزجاجيّة التي شاهدتها في اسطنبول، وهدفها إبعاد اللصوص كما قيل لها يومئذٍ. التفكير وحده بذلك الشأن جعلها تنكمش خوفًا. إنّ من يسكن في هذه البيوت لم يكن هدفه منع المتجاوزين من الدخول فحسب، بل كان يتمنّى أيضًا أن يجرح يده أو قدمه. حافّات نوافذ بإبر، وأسوار حديقة بزجاج ـ لم ترقها هذه الأشياء، ولم يرقها ما فعلته المدينة بأبنائها شيئًا فشيئًا.

* * *

لبثت بمبي بعد ارتكاب الجريمة في بيت الصبيان بضعة أشهر، وتناوب يونس وأسماء على زيارتها، حذرين محترسين كي لا يتفوّها بكلمة واحدة لخالهما أو خالتهما. ولكنّ اسكندر قُبض عليه وزُجَّ في السجن في حين كانت بمبي ما تزال مرتبكة ومضطربة لا تعرف هل تظهر للناس أم لا. في البدء. كانت تخشى أن يكتشف الصبيان السبب الذي يدفعها إلى الاختباء، لكنّ الشيء الذي كان في مصلحتها من هذه الناحية هو أنّ الصبيان نادرًا ما كانوا يطالعون الصحف أو يستمعون إلى الأقاويل التي يتداولها أهل الحيّ. غير أنّ هذا لا يعني أنّهم لم يتوجّسوا شرًّا، ولكنّهم تخيّلوا أنّ الأمر

يخصّ وزارة الداخليّة. ولمّا كان هؤلاء الشبّان يتمرّدون على كلّ شكل من أشكال السلطة، فقد شعروا بالسعادة وهم يوفّرون الحماية لها حتى بعد أن اكتشفوا السبب الحقيقي من وراء بقائها في بيتهم. وطلب يونس منهم مساعدة أمّه كي تغيّر من ملامحها، فما كان منهم إلّا أن انتهزوا الفرصة التي سنحت لهم. فقصّوا شعر بمبي وغيّروا لونه إلى أحمر خفيف يشبه شعر فتاة إيرلنديّة. وبعد أن ارتدت بنطالاً من الجينز ووضعت على عينيها نظّارات سميكة، أصبح الاستدلال عليها صعبًا.

وعلى الرّغم من كلّ ذلك، ومهما بذلت بمبي من جهود، لم تتمكّن من شقّ طريق حياتها في غمرة ظلام تلك الأيّام لولا مساعدة ابنتيها التوأمين. ففي منتصف ليلة من الليالي، كانت جالسة قرب النافذة في بيت الصبيان، لا تحدّق إلّا إلى ما تراه أمامها من خواء، تبيّنت شبحًا في الحديقة. كانت ناعسة إلى حدٍّ ما ولكنّها يقظة في الوقت نفسه. وتنبّهت. إنّها أختها. لكن جميلة لم تبادلها كلمة واحدة ولم تقترب منها. ولكن ظهورها بهذا الشكل كان كافيًا لكي يبعث الفرحة والبهجة في أوصال بمبي. ولكن سرعان ما تلاشت اللحظة، إذْ تحلّل الشبح في الجوّ مثل تحلّل قطرة حليب في ماء. بيد أنّ هذه التجربة أكّدت لبمبي أنّ أختها التوأم ليست متألّمة وأنّ المكان الذي هاجرت إليه ليس صعب الاحتمال. وبعد ذلك اليوم، كان الشبح نفسه يظهر لها بين حين وحين، يتواصل بين بمبي واسكندر الذي كان في السجن.

قبل وقت قصير على التحاق يونس وأسماء بالمدرسة الداخليّة في ساسكس، قرّرت بمبي أن ترجع بعد أن أدركت إدراكًا عميقًا

أنّها أكملت مدّتها في إنكلترا وأنّ عليها العودة إلى بلادها، إلى نهر الفرات، إلى المنطقة التي ولدت فيها لأنّها على العكس من إلياس ليست نباتًا من النباتات المتسلّقة في الهواء، وأنّها مضطرة إلى أن تحضن جذورها. وقد أيّد يونس وأسماء مشروعها ووعدا زيارتها في موسم الصيف.

كانا يحتفظان بالمحظيّة ذات اللون الكهرماني التي كانت جميلة قد أحضرتها معها بعد أن خبّأتها في كعب حذائها الخاوي وطلبت من أختها أن تحتفظ بها لأجلها. ولم يكن لأيّ واحدة منهما أدنى فكرة عن قيمتها أو كيفيّة بيعها. وفي نهاية المطاف، كانت السيّدة باول هي التي جاءت لإنقاذها رفقة الزعيم ممّا أثار حفيظة يونس. فقد بيعت الماسة عندما كانت السيّدة باول تعدّ ترتيبات سفر بمبي. وتأكّدت أيضًا من إيداع مبلغ من المال في أحد المصارف لكلّ من يونس وأسماء. أمّا بقيّة المال، فقد استخدمه الصبيان لإقامة حفلات صاخبة أضحت حديث حيّ هاكني على مدى الأشهر المقبلة. النقطة الوحيدة التي غابت عن ذهن بمبي عندما عقدت الصفقة في هاتون غاردن هو أنّ الماسة يمكن أخذها أو إعطاؤها هديّة وأنّها لا يمكن أن تعرض للبيع. لم يقل لها أحد عن اللعنة ولكن حتى لو أخبرها أحدٌ بذلك لما تردّدت في المضي قدمًا في خططها. لقد باتت بمبي المرأة التي لا حدود لخرافاتها، منهكة بسبب مخاوفها.

عندما توجّهت بمبي إلى كوخ شقيقتها في الوادي، لم تفزع فزعًا واضحًا بسبب ما رأته من دمار حلَّ بالكوخ. فقد دمّر مرور الوقت والرياح الأربع وقطّاع الطرق والإهمال العامّ تدميرًا جزئيًّا

ذلك المعتَزَل الآمن الذي شيّدته جميلة.

فرح الفلّاحون فرحًا لا يوصف لدى رؤيتهم القابلة العذراء وقد عادت إلى أحضانهم وإن ظلّوا لا يفهمون سبب رفضها حضور الولادات. ولكنّهم لبثوا يساعدونها في تنظيف كوخها وترتيبه، لكنّ المنطقة باتت اليوم خطرة، فالمتمرّدون الأكراد يقاتلون الحكومة والجنود ينتشرون في دوريّات ليلاً ونهارًا. غير أنّ بمبي ظلّت في خضمّ هذه الأوضاع كلّها لتحلّ محلّ أختها التوأم. أحيانًا كانت تتفادى المخاطر، ولكنّها لم تذكر شيئًا عنها في رسائلها. كانت تكتب عن الأشياء السارّة وحدها.

وكانت وعدت أطفالها أنّ انتقالها موقّت، وأنّها ستبقى مدّة محدودة من الزمان وتعود من بعد ذلك، امرأة جديدة، ولكن ما إن وطأت قدماها منزل أختها وبدأت ترتّب الأشياء حتى أدركت أنّها لن ترحل وهي في عجالة من أمرها.

* * *

أسماء

يقولون إنّك تبدأين فهم والدتك عندما تصبحين أمًّا بدورك. أمّا أنا، فإنّ رسائل بمبي هي التي ساعدتني لأفهمها فهمًا أفضل.

كانت تكتب لي الرسائل في انتظام، وفي صراحة، وتكشف لي عن خبايا نفسها أكثر ممّا كشفت لي وجهًا لوجه. وأصبح تسلّمي مظروف رسائلها الجوّي الأزرق اللون ضرورة لا أقدر على الاستغناء عنها، وحدثًا أسبوعيًّا بهيجًا. فكنت أعدّ الشاي وأجلس إلى طاولة المطبخ وأقرأ، مرّات، ومرّات وأعرف أنّها على ما يرام وناجحة.

ابنتي العزيزة، نور عيني في هذا العالم والعالم الآخر.

أفكّر فيكِ طوال الوقت. أرجوك أن تستمرّي في زيارة شقيقك. سامحيه يا أسماء. حاولي. أعرف أنّ هذا صعب، ولكن يجب عليك أن تحاولي. تأكّدي من أنّه يفهم أنّه ليس وحيدًا. فنحن لسنا وحيدين. أدعو الله أن يرسل له رفيقًا، شخصًا ما يؤنس أصحابه من بين البشر ويعرف مدى جهلهم ولكنّه يظلّ يغدق عليهم من حبّه على الرّغم من كلّ ذلك. إنّني أدعو الله يوميًّا أن يعثر له

على هذا الشخص ويرسله إلى السجن ليؤنس صحبة اسكندر.

لا تقطّبي وجهك يا حبيبتي. لا تقولي إنّني منحازة إليه حتى هذا اليوم. هل يمكنك أن تفضّلي إصبعًا على أخرى؟ هذا هو شعور الأمّ. لا يمكنك أن تنحازي إلى أيّ من أبنائك. اسكندر ويونس وأنت، أعزّاء على قلبي على نحو متساوٍ.

في هذه الأيّام بات يصعب أكثر من ذي قبل إرسال الرسائل. فلا تقلقي إن لم تأتك رسالة منّي. لقد راودني حلم ليلة أمس، هو الأكثر وداعة وسكينة. كنت هنا وهناك في لندن الملكة في الوقت نفسه. كان الجوّ مطيرًا إلّا أنّ المطر كان غريبًا بألوانه الزاهية وكأنّني كنت أشاهد ألعابًا ناريّة من دون نار. فاستيقظت وفكّرت، لكنّه حلم حقيقي. فأنا معك هناك. دائمًا.

أمّك الحبيبة، بمبي

كانت آخر رسالة أتسلّمها منها: الرسالة التي قرأتها مرّات ومرّات حتى إنّ ورقها تمزّق من حول حافّاتها وظهرت عليه آثار بصمات أصابع، أصابعي من فوق أصابعها، مثل خطوط رواية تتداخل وتفترق.

وفي وقت لاحق، ولمّا تمكّنت من السفر إلى تركيا، أخبرني القرويّون مفصّلاً كيف حدث كلّ شيء، وأكّدوا لي أنّها لم تشعر بألم، ولا أدنى ألم. جرثومة. وبدأ المرض ينتشر في هيأة طفح جلدي من حول الرقبة والذراعين، بقع ورديّة، لا تدعو إلى الخوف أو الفزع. وقبل أن يمضي وقت طويل، بدأت المريضة ترتعش وتتفصّد عرقًا، وإذا لم تعالج في تلك المرحلة فإنّها كانت تُصاب بحمّى شديدة وتنام نومًا تفقد فيه الوعي ممّا أضعف من عمل رئتيها

سريعًا، ولم يفلح الكثيرون في إيقاظها. وكان ذلك المرض قد ظهر في أواخر ربيع العام ١٩٩٢ وانتقل من الحيوانات إلى البشر وقضى على ستّة أشخاص في شهر واحد ـ ثم اختفى تمامًا وكأنّ شيئًا لم يكن. لعلّها أصيبت بالمرض من طريق العدوى لدى زيارتها قرية (منزل الرياح الأربع) للحصول على التموين وقبلت أن تتناول الشاي من امرأة أرادت أن تطلعها على السجّاد الذي نسجته في شبابها. وكان ابن المرأة البالغ ستّة أعوام قد أُصيب بالجرثومة وإن لم يكن أحد قد عرف به في ذلك الوقت. وقد عاش الولد، ولكن أمّي توفيت.

ولم أعرف أنّ أمّي ماتت للمرّة الثانية والأخيرة إلّا بعد أن توقّفت رسائلها إليَّ.

* * *

شكر وتقدير

أودّ أن أعبّر عن شكري لديڤيد روجرز لقراءته المخطوطة الأوّليّة وتقديمه مقترحات قيّمة.

وأشكر وكيلي إليزابيث شينكمان لما وجدت فيها من تشجيع ومحبّة. وأتوجّه بشكر خاصّ إلى المحرّرين المدهشين بول سلوفاك وفينيشيا بترفيلد لما قدّماه من ملاحظة معمّقة واهتمام دقيق بالتفاصيل، وإلى دونا بوبي لإسهامها الفريد والمميّز.

أمّا شكري الأعظم، فإنّني أتوجّه به إلى زيلدا وزاهر اللذين أجابا عندما سُئلا في المدرسة عن العمل النموذجي الذي تؤدّيه الأمّهات في البيوت: إنّهنّ يوقّعن الكتب.

وإلى أيّوب، الزوج والحبيب وجوهر الصبر والحكمة، كلّ الشكر.

وإنّني ممتنّة أيضًا إلى النساء، شرقًا وغربًا، اللواتي سردن حكاياتهنّ الشخصيّة لي، وشاركنني في صمتهنّ أيضًا.

أليف شافاك

تصميم الغلاف نجاح طاهر

تغادر بمبي تركيا، تاركة وراءها أختها التوأم، وتابعة زوجها الحبيب آدم إلى لندن. وتحاول عائلة "طبرق" الكرديّة، عبثًا، في المنفى الابتعاد عن التقاليد والمعتقدات، التي تبقى تلاحقهم حتى آخر نقطة دم.

يجد أولاد عائلة طبرق أنفسَهم عالقين في فخّ الماضي. ومصدومين بجريمة مروّعة تقلب حياتهم رأسًا على عقب. رواية قويّة تجري أحداثها بين تركيا ولندن، تحكي الفقدان والعذاب، الوفاء والخيانة، صراع الحداثة والتقاليد، فتمزّق العائلات إربًا إربًا.

أليف شافاك هي الروائيّة الأكثر مبيعًا في تركيا.
نالت جوائز أدبيّة عالميّة عديدة وتُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات.

صدر لها عن دار الآداب: "أربعون قاعدة للحبّ"، "لقيطة اسطنبول" و"شرف".

www.elifshafak.com

دار الآداب
هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-271-9

